

د. وسام عبدالعزيز فرج

بيزنطه

قراءة فى التاريخ السياسى والإدارى

بيزنطة

قراءة فى التاريخ السياسى والإدارى

تأليف

دكتور وسام عبد العزيز فرج

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

ورئيس قسم التاريخ بجامعة المنصورة

الطبعة الأولى

٢٠٠٤م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف: منى العيسوى

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

الناشـر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5. Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

إهــداء

إلى ابنتي مروة..

الأمل والرجاء... وبهجة الأيام

وســام

وحتى فى ذلك الوقت اعتبروا أنفسهم سليلى العصر القديم وورثة اللغة والقانون والإصطلاحات القديمة . ولأنهم آمنوا برسالة السيد المسيح - عليه السلام - فإنهم أصبحوا شعب الله المختار . فهل كان هذا الاعتقاد فى الأصل اليونانى والرومانى لهم صحيحًا ؟ .

وفى محاولة لمحاكاة الأدب الكلاسيكى ، كتب البيزنطيون وثائقهم ومصادرهم الأدبية باللغة اليونانية ولكن بأسلوب غلبت عليه الصنعة والتكلف حافل بالتعبيرات الملغزة ويتسم بالغموض والتكرار والإشارات الضمنية إلى أساطير الأولين . ولهذا تقدم المصادر البيزنطية فى معظم الأحيان صورة مضللة للماضى تستوجب الحذر . فإذا توارت النظم والعلاقات الاجتماعية الجديدة وراء ستار اصطلاحات قانونية قديمة ، فإن الباحث يجب أن يرتاب فى صحتها لأن البيزنطيين بالغوا دائمًا فى تصوير انتسابهم للعصر الكلاسيكى . ويرى المؤرخ الفرنسى بول ليميرل Paul Lemerle أن الزعم بأن بيزنطة لم يطرأ عليها تغيير على امتداد أحد عشر قرنًا من الزمان يعنى الوقوع فى الشرك الذى أعدته بنفسها .

على أية حال ، إذا كان علم التاريخ معنيًا بدراسة الآثار الباقية والوثائق المتباينة سعيًا وراء وقائع الماضى ، فإنه يجب على المشتغلين به البحث فى حياة الناس الحقيقية : مواقفهم ومعتقداتهم ونظمهم ، ولا يقتصر ذلك على الأغنياء والأقوياء والحكماء بل يشمل أيضًا الفقراء والضعفاء ومحدودى الثقافة . بيد أن طريق البحث فى الحقل البيزنطى طويل ومعقد وتعترضه العديد من الإشكاليات . ولما كان منهج البحث التاريخى جزءًا من بنية علم التاريخ نفسه ، فإن تطور المنهج أصبح أمرًا حتميًا كى يتطور العلم . وبعد رحلة حافلة وتجربة طويلة فى مجال الدراسات البيزنطية ، يرى المؤرخ الروسى الأصل إسكندر كجدان Alexander Kazhdan أنه باستخدام مناهج وتقنيات بحثية مستمدة من مجالات أخرى فى البحث التاريخى أو من علوم مساعدة مثل الأنثروبولوجيا والجغرافيا والإحصاء ، فإنه بمقدور الباحث أن يستخلص من أصول تاريخية محدودة ومضطربة ، تصورًا جديدًا للماضى يسمح له بإيجاد حلول لكثير من الإشكاليات القائمة والإجابة على أسئلة كانت من قبل بلا جواب . لقد كان المؤرخ الروسى الكبير محقًا ، لأن الصلة وثيقة بين الدراسات التاريخية والهموم الرئيسية للعالم المعاصر . فالعلماء يعتبرون جزءًا من العالم الذى يعيشون فيه ، وليس فى مقدورهم فصل هذا العالم عن بحثهم العلمى . ولهذا يجب على المؤرخين الاستجابة لحاجات مجتمعهم وأن يقبلوا على دراسة الماضى وهم على وعى بهذه الحاجات ، بالإضافة إلى رغبة فى فهم

حقيقة هذا الماضى ودراسته بمنهج نقدى وموضوعية . فمهمة المؤرخ الحقيقة أن يحقق التناغم بين منهج العلم وروح العصر الذى يتصدى لدراسته .

لقد حرصنا عند دراسة موضوعات هذا الكتاب على اتباع هذا النهج . فالموضوع الأول يبدأ بمناقشة مصطلح « الدولة البيزنطية » ولماذا يعد مضللاً ، وتطور الدراسات البيزنطية والعقبات التى صادفتها ، فضلاً عن رؤية البيزنطيين لأنفسهم ولدولتهم وما غلب عليها من أوهام . وجرى بعد ذلك بحث عناصر الهوية البيزنطية وأزمة ثقافتها اليونانية . أما الموضوع الثانى فيتناول الألقاب والمناصب الحكومية فى بيزنطة بين الاستمرارية والانقطاع . وهنا يجب أن نؤكد أننا لم نسع إلى كتابة تاريخ عام للإدارة البيزنطية بدراسة الألقاب والمناصب الرئيسية فى الحكومة المركزية من العصر الباكر إلى العصر البيزنطى الأخير . ولم تقتصر الدراسة على رصد الظواهر التى طرأت على آليات الحكومة بل شملت تفسير تطورها أيضًا . ولقد فرضت طبيعة الموضوع استخدام منهج تجريبى فى بحثه emperical research قائم على الملاحظة والاختيار فى رصد الظواهر ثم محاولة تفسيرها . ونظراً لصعوبة هذا الموضوع وتعدد إشكالياته وتعقد مصطلحاته وطبيعة المنهج المستخدم فى بحثه ، فإن دراسته استغرقت عدة سنوات . كما جرى عرض نتائجه على مرحلتين فى ندوتين علميتين فى عامى ١٩٩٤م و١٩٩٦م . ويعالج الموضوع الثالث قضية الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس المعروف بليو العاقل (٨٨٦ - ٩١٢م) وما أثارته من نزاع وخلاف فى مطلع القرن العاشر الميلادى فى الدولة البيزنطية . وإذا كان الخلاف قد احتدم حول هذه القضية بين الكنيسة والقصر وأحدث انقسامًا فى الكنيسة البيزنطية ، فإن القضية كانت أكبر من ذلك ، لأن مسألة الزواج للمرة الرابعة كانت من تجاوزات السلوك الاجتماعى والأخلاقى المتعارف عليه فى بيزنطة وأثارت نقاشًا وجدلاً واسعًا واستأثرت باهتمام الجموع العريضة فى المجتمع البيزنطى . ولما كان بحث هذا الموضوع يتطلب دراسة أبعاده الدينية ودلالته السياسية ، فإننى قمت بفحص معظم الوثائق والأصول التاريخية المعاصرة التى توافرت لى . فتتبعت تشريعات الزواج فى القوانين الكنسية ومجموعات القوانين المدنية التى صدرت منذ عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠م) وحتى عهد الإمبراطور ليو السادس فى مطلع القرن العاشر الميلادى ؛ ورسائل البطريرك نيقولا الأول مستيكوس Nicholas I . Mysticos

(٩٠١ - ٩٠٧ / ٩١٢ - ٩٢٥م) الوافرة ؛ وكتابات أرثاس Arethas أسقف قيصرية التى تتضمن رسائله وخطبه ومراثيه ؛ وتراجم حياة وسير الإمبراطورة ثيوفانو Theophano (الزوجة الأولى للإمبراطور ليو السادس) والبطريرك أنطون الثانى كاولياس . Anthony II Kauleas (٨٩٣ - ٩٠١م) والبطريرك إيثيميوس Euthymius (٩٠٧ - ٩١٢م) ؛ والمؤلفات العقيدية والحوليات البيزنطية التى تناولت أحداث الربع الأول من القرن العاشر الميلادى ، وكتابات الإمبراطور قسطنطين السابع ابن ليو السادس وخاصة كتابه المعروف بعنوان « مراسم القصور ». وبالإضافة إلى ذلك رجعت إلى مجموعة ضخمة من المراجع والدراسات الأوروبية المتخصصة على اختلاف لغاتها والتى تعد على جانب كبير من الأهمية ، كما طالعت العدد القليل من الدراسات العربية والمعربة التى أشارت إلى موضوع هذه الدراسة. هذا ، وقد تم جمع وثائق هذه الدراسة ومصادرها من خلال مهمات علمية فى جامعات بيرمنجهام فى بريطانيا (ربيع سنة ١٩٨٩م) ، وميونخ وبرلين فى جمهورية ألمانيا الاتحادية (صيف سنة ١٩٨٩م) . أما الموضوع الرابع فيتناول سلاحًا بحريًا بيزنطيًا سريًا يعرف بالنار الإغريقية ، لعب دوراً مهمًا فى الصراع البيزنطى الإسلامى من أجل السيادة على البحر المتوسط . والمعروف أن حوليات التاريخ تناقلت أخبار النار الإغريقية بصورة مشوشة لأنها ارتكزت على افتراضات خاطئة ، فشاعت الاجتهادات غير العلمية بشأن المادة السرية المقذوفة ووجدت طريقها إلى بعض كتب المؤرخين الحديثين فى العالم العربى . ولهذا ظهرت الحاجة إلى دراسة هذا الموضوع بمنهج مختلف على اعتبار أنه من البحوث البينية -interdisci plinary التى تحتاج إلى التعاون بين المؤرخ والكيميائى . وفى هذه الدراسة ناقشنا مصطلح النار الإغريقية ودلالته ، وطبيعة تركيبها وكيفية قذفها على السفن المعادية فضلاً عن أثرها على نشاط المسلمين البحرى . ويناقش الموضوع الخامس والأخير سياسة الدولة البيزنطية تجاه شبه جزيرة البلقان فى الفترة الممتدة من عام ٥٩١م وحتى عام ١٠١٨م ، والتى شهدت بدايتها استقرار العناصر السلافية (الصقلبية) فى مناطق شاسعة منها فضلاً عن قيام كيانات معادية على أرضها مثل دولة البلغار . وفى هذه الدراسة تناولت أبعاد التغير الذى أصاب التكوين البشرى للبلقان ، والسياسة التى اتبعتها الحكومة البيزنطية لاستيعاب العناصر السلافية (الصقلبية) فى الكيان الإمبراطورى ، فضلاً عن صراع بيزنطة ضد الدولة البلغارية من أجل استرداد سيادتها على شبه جزيرة البلقان .

لقد حاولت جهدى أن أكون موضوعيًا فى تناول هذه القضايا وقدمت طرحًا نقديًا واضحًا وموثقًا فى كل صغيرة وكبيرة . واتبعت فى حواشى هذه الدراسة وفى قائمة المصادر والمراجع نظام المختصرات الحديث الخاص بالدراسات البيزنطية والذى صدر بشأنه دليل تم نشره فى دورية Dumbarton Oaks Papers ، العددين ٢٦ (١٩٧٢م) ، ٢٧ (١٩٧٣م) .

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى إضافة لبنة متواضعة إلى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ، وأن تكون هذه القراءة فى التاريخ السياسى والإدارى لبيزنطة إسهامًا فى إثراء المكتبة العربية التى مازالت تحتاج إلى المزيد من الجهود المخلصة للباحثين فى هذا الميدان . ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان لأساتذتى وزملائى وأصدقائى فى مصر والكويت وبريطانيا وألمانيا الاتحادية والولايات المتحدة الأمريكية لجميل رعايتهم ودوام تشجيعهم . كما أخص بالشكر مؤسسة السكندر فون همبولدت Alexander von Humboldt الألمانية التى تولت الإنفاق على مهمتى العلمية فى جمهورية ألمانيا الاتحادية فى صيف سنة ١٩٨٩م ، والتى غطت نفقات رحلاتى العلمية التى لم تنقطع لمكتبات بريطانيا وفرنسا وهولندة لحضور المؤتمرات العلمية ذات الصلة . أما جامعة الكويت التى لم تبخل على البحث العلمى فى يوم من الأيام ، فإنها تستحق الشكر أيضًا لأنها تحملت نفقات سفرى وإقامتى لحضور مؤتمرين علميين ، الأول فى مارس سنة ١٩٨٩م فى جامعة بيرمنجهام فى بريطانيا والثانى فى أكتوبر من نفس العام فى جامعة ماساتشوستس - أمهرست Massachusetts at Amherst بالولايات المتحدة الأمريكية .

والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل

جليم - الإسكندرية فى ٢٩ نوفمبر سنة ٢٠٠٣م

وسام عبد العزيز فرج

(١)

الدولة البيزنطية
بين أوهام النظرية وحقيقة الهوية

إذا كان التاريخ يمثل سلسلة متصلة الحلقات لا يمكن فصلها عن بعضها وأن كل حلقة تعد فترة انتقال من السابقة إلى اللاحقة ، فإن التاريخ ليس له بدايات أو نهايات . وإذا كانت كتب التاريخ تبدأ وتنتهى فإن الأحداث التى تتناولها والتى تروى تجربة الإنسان الحضارية وقصته فى الكون لا تنتهى [١]. وعلى الرغم من ذلك اضطر المؤرخون إلى تقسيم التاريخ إلى عصور ، وحاولوا الاتفاق على تحديد كل عصر تحديداً زمنيًا دقيقًا بغرض تسهيل دراسته وفهمه . وهكذا ظهر التقسيم الشائع للتاريخ إلى ثلاثة عصور رئيسية هى على التوالى : العصر القديم ، والعصر الوسيط ، والعصر الحديث . وهنا يجب التنويه إلى أن تقسيم التاريخ على هذا النحو كان من إفرازات عصر النهضة الأوروبية ، وأنه إذا كان مناسبًا للتطور التاريخى لمجتمع الغرب الأوروبى ، فإنه قد لا يتلائم مع التطور التاريخى للمجتمعات الإنسانية الأخرى [٢]. ويقع تاريخ الدولة البيزنطية من حيث التحديد الزمنى فى إطار العصر الوسيط وفقًا لمرجعية تقسيم التاريخ إلى عصور .

مصطلح " الدولة البيزنطية " :

ويجب أن نعترف فى البداية بأن المصطلح الشائع " الدولة البيزنطية " يعد مصطلحًا مضللاً إلى حد بعيد . فمن ناحية لم يوجد كيان سياسى حمل هذا الاسم فى العصور الوسطى على الإطلاق . ومن المرجح أنه من ابتكار عصر النهضة الأوروبية الغربية . ومن ناحية ثانية ينطوى

استخدام لقب بيزنطى Byzantine بداهة على أن الحضارة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية كانت من نتاج العاصمة القسطنطينية Constantinople ، فى حين أنها كانت فى الواقع من نتاج الإمبراطورية الرومانية الشرقية ككل بما فى ذلك أقاليمها التى فقدتها فى القرن السابع الميلادى فى مصر والشام أيضًا . ومن ناحية ثالثة يعد هذا المصطلح مضللاً أيضًا لأن لقب بيزنطى بالمعنى الضيق يشير إلى مدينة بيزنطة Byzantion (Byzantium) التى كانت إحدى المستعمرات اليونانية القديمة ، والتى انتهى تاريخها حين بدأ تاريخ القسطنطينية .

والمعروف أن مدينة بيزنطة القديمة فقدت أهميتها واضمحلت بعد الدمار الذى لحق بها فى العقد الأخير من القرن الثانى خلال الحرب الأهلية التى اندلعت من أجل وراثة العرش فى الإمبراطورية الرومانية [٣]. وفى سنة ٣٢٤م أصبحت أطلال بيزنطة القديمة جزءاً من الموقع الذى وقع عليه اختيار الإمبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٦ - ٣٣٧م) لتشييد عاصمته الجديدة ، التى احتاج بناؤها إلى ست سنوات كاملة . وفى ١١ من مايو سنة ٣٣٠م قام الإمبراطور بافتتاحها رسميًا وسط احتفالات ضخمة استمرت أربعين يومًا [٤]. ويبدو أن قسطنطين أطلق عليها فى البداية اسم " روما الجديدة " ولكنها سرعان ما حملت اسم مؤسسها فأصبحت تعرف بالقسطنطينية أى مدينة قسطنطين . ولما كان تشييد المدينة الجديدة قد حدث بعد انتصار المسيحية ، فإن مدينة قسطنطين ولدت مدينة مسيحية فوق أنقاض بيزنطة القديمة الوثنية . ويحدد نقل العاصمة من روما القديمة إلى القسطنطينية المسيحية بداية تحول الإمبراطورية الرومانية الوثنية إلى الإمبراطورية الرومانية المسيحية . ولكن انتقال العاصمة من ضفاف نهر التيبر Tiber إلى مضيق البوسفور Bosphorus كانت له نتيجة مهمة أخرى . لقد ترتب عليه نقل مركز الإدارة الإمبراطورية والمجتمع إلى داخل المجال الحيوى للغة اليونانية . وأصبحت التقاليد الثقافية والتعليم فى إمبراطورية روما الجديدة هلنيستية خالصة . وفى القرن السابع الميلادى جرى التخلى رسميًا عن اللغة اللاتينية كلغة للإدارة والحكم ، وحلت اليونانية محلها وأصبحت اللغة الرسمية للحكومة والرعية [٥].

وعلى الرغم من رياح التغيير والتبديل التى جاءت بها الكنيسة المسيحية وعبرت عنها اللغة اليونانية ، فإن سكان الإمبراطورية نظروا إلى دولتهم باعتبارها امتداداً طبيعيًا للإمبراطورية الرومانية القديمة وأطلقوا عليها اسم إمبراطورية الرومان Romania ، ودعوا أنفسهم رومانا Romaioi (Romans) . وظلوا خاضعين لسحر اسم روما حتى نهاية دولتهم، كما أن تقاليد الحكومة الرومانية سيطرت على فكرهم وحددت أهدافهم السياسية [٦].

لقد كان فى إمكان الشخص أن يدعو نفسه بيزنطيًا Byzantios إذا كـان من مـواطنى العاصمة أى أحد مواليد القسطنطينية [٧]. أما إذا كان من مواطنى أى إقليم آخر فإنه ينسب إليـه . ويلاحظ أن كلمـة " رومـانى " Roman كـانت لها دلالة مـختلفة تمامًا فى الغرب الأوروبى، إذ ارتبطت بروما وإيطاليا والأدب اللاتينى . ولما كان سكان الإمبراطورية يتكلمون اللغة اليونانية فإن أهل الغرب الأوروبى أطلقوا عليهم اسم اليونانيين Graeci ، أمـا العرب المسلمون ومن بعدهم الأتراك السـلاجقـة والعـثـمـانيـون فـقـد عـرفـوهم باسم " الروم " أى الرومان[٨].

يتضح مما سبق أن كلمة " بيزنطى " أو " بيزنطية " كلقب مميز لإمبراطورية روما الجديدة وسكانها لم يشع استخدامه حتى عصر النهضة الأوروبية الغربية . وعلى الرغم من اعتراض عدد من المؤرخين الحديثين على استخدام هذا المصطلح لأنه وهمى وغير دقيق ، فإن الوهم عم وانتشر[٩] . كما باءت بالفشل محاولات استخدام مرادفات غير مألوفة مثل " الإمبراطورية الرومانية الشرقية " أو " الإمبراطورية المسيحية الشرقية " . والرأى الغالب الآن أنه لا جدوى من رفض استخدام مصطلح " الإمبراطورية البيزنطية " ، طالما أننا ندرك أنه مجرد لقب شائع[١٠] .

ومن الجدير بالذكر أن الدارسين اختلفوا كثيراً حول نقطة البدء فى تاريخ هذه الدولة البيزنطية ، واتخذ البعض سنوات بعينها وقعت فيها حوادث معينة منطلقًا إلى هذه البـــداية[١١]. ولكن هذه الآراء لم تعد تجد من يتصدى لتأييدها الآن ، لأن تحديد السنين والتواريخ مسألة اجتهادية تقليدية جرى عليها البعض فى الماضى بقصد تسهيل دراسة التاريخ وتبسيطه ، بيد أنها لا تعبر عن حقيقة الأمر . وربما تستحق نظرية الأستاذ ج . ب . بيورى J.B.Bury بعض التعليق . والمعروف أن الأستـاذ بيـورى يذهب إلى القـول باسـتـمـرار الإمبراطورية الرومانية من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، ويستشهد على ذلك بتتابع الأباطرة دون انقطاع من أوكتافيانوس أغسطس Octavianus Augustus (٢٧ ق.م - ١٤م) وحتى قسطنطين الحادى عشر باليولوج Constantine XI Palaeologus (١٤٤٩ - ١٤٥٣م) . فالإمبراطورية الرومانية فى رأيه لم تنته إلا فى سنة ١٤٥٣م[١٢]. أما الأستـاذ توينبى Toynbee فيرفض هذا الوهم مؤكداً أن الإمبراطورية الرومانية قد ماتت خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس الميلادى وأن القرن السابع شهد ميلاد إمبراطورية جديدة [١٣].

ويضيف الأستاذ جنكنز Jenkins أنه إذا كانت الإمبراطورية في عهد أسرة هرقل Hera- clius (٦١٠ - ٧١١م) لم تتغير من الناحية النظرية ، فإنها كانت في واقعها العملي مختلفة وبصورة جوهرية عن الإمبراطورية في عهد الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ - ٥٦٥م) من ناحية امتدادها الإقليمي وتكوينها السكاني ونظامها الإداري (١٤).

ومع أن سكان الإمبراطورية كانوا على قدر من الوعي بماضي دولتهم وارتباطه بروما القديمة ، وعلى الرغم من تمسكهم بالتراث الروماني سواء في مجال النظرية السياسية أو الممارسة العملية للسياسة ، فإنه بمرور الوقت أخذت الإمبراطورية تسبح مع التيار بعيداً عن الخصائص الأصيلة للعالم الروماني . ففي مجال الثقافة واللغة كان الفوز من نصيب العناصر اليونانية ، كما نمى في نفس الوقت نفوذ الكنيسة بقوة حتى هيمنت على إيقاع حركة الحياة في المجتمع وفرضت عليه قيمًا جديدة . وكانت التحديات التي واجهت الإمبراطورية قد فرضت العديد من التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، الأمر الذي عجل بظهور بناء اقتصادي واجتماعي جديد في إطار كيان سياسي له نظام إداري مختلف . ويلاحظ أن التطور الذي أصاب الإمبراطورية كان في حقيقة الأمر عبارة عن عملية تفاعل وتغير مستمرة لم تتوقف . ففي سعي المجتمع لتوفيق أوضاعه في مواجهة التحديات التي كان عليه أن يتصدى لها ، أصبح كل شيء يجري تعديله أو يعاد بناؤه من جديد . وعندما بلغت إمبراطورية البيزنطيين نهاية تطورها التاريخي ، فإنه لم يكن لديها شيء واحد مشترك مع إمبراطورية الرومان القديمة باستثناء اسمها والادعاءات الموروثة التي صاحبت هذا الاسم والتي لم يعد تحقيقها ممكنًا على الإطلاق .

على أية حال ، إذا عدنا إلى وحدة التاريخ ووافقنا على استخدام مصطلح " بيزنطي / بيزنطية " فإنه يمكن القول إن الإمبراطورية البيزنطية في الفترة المبكرة كانت في حقيقة الأمر لا تزال إمبراطورية رومانية الهوية ، لأن العناصر الرومانية كانت تغلب على معظم أوجه الحياة فيها . ولهذا يمكن أن نطلق على هذه الفترة المبكرة التي تمتد من نهاية القرن الثالث وحتى مطلع القرن السابع الميلادي " العصر الروماني الأخير " أو " العصر البيزنطي المبكر " ، لأنها تتعلق بمرحلة تطور رومانية أخيرة ، كما أنها ترتبط بمولد ونمو عناصر جديدة تدفع الإمبراطورية بعيداً عن الهوية الرومانية القديمة . ويجب أن نلاحظ أن القرون الثلاثة الأخيرة من التاريخ الروماني أو القرون الثلاثة الأولى من التاريخ البيزنطي تمثل عصر انتقال متميز وتعبر ثغرة

واسعة بين الإمبراطورية الرومانية الوثنية فى العصر القديم والإمبراطورية البيزنطية المسيحية الأرثوذكسية فى العصور الوسطى . وفى خلال هذا العصر أخذت معالم الحياة الرومانية القديمة تتراجع تدريجيًا وأفسحت المجال أمام العناصر البيزنطية الجديدة (١٥).

وهكذا يمكن القول أن الدولة البيزنطية ورثت الكثير من المعالم الواضحة الخاصة بمظهر الإمبراطورية الرومانية القديمة مثل الحدود المترامية الأطراف لأقاليمها ، والبلاط الإمبراطورى وما تميز به من دقة المراسم وعظمة الاحتفالات ، والجهاز البيروقراطى للحكومة المركزية ، والقانون الرومانى والنظام الضريبى والعملة الذهبية وغيرها . وبذلت بيزنطة أقصى جهد للحفاظ على هذا المظهر الإمبراطورى دون تغيير . ولكن خلف هذا المظهر الرائع الذى نجحت الدولة فى الحفاظ عليه إلى حد بعيد ، كانت القواعد الرئيسية للمجتمع تتطور وتتبدل . وبينما استمر استخدام المفردات والمصطلحات القديمة فى كافة المجالات : الرسمية والاحتفالية، الأدبية واللغوية ، فإن دلالاتها الحقيقية والمعانى التى ارتبطت بها كانت فى حالة تغير وتبدل تدريجى ومستمر(١٦) . ولم يشعر البيزنطيون بهذا التغير ، كما لم يدركوا أبعاد التناقض بين حاضرهم والماضى . لقد اعتبروا أنفسهم رومانًا مسيحيين على المذهب الأرثوذكسى . وكانت دولتهم هى الإمبراطورية الرومانية ، وإمبراطورهم الأوتوقراطور Autokrator هو سليل قيصر Caesar وأغسطس Augustus فى تعاقب متصل ، ولكنه كان أيضًا نائب السيد المسيح على الأرض Vicarius Christi . ولهذا لم يكن للإمبراطورية البيزنطية أية بداية مميزة باستثناء اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية وقيامه بتشييد عاصمته الجديدة القسطنطينية ، ولكن كانت لها نهاية محددة فى ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣م حين نجح الأتراك العثمانيون فى الاستيلاء عليها .

الدراسات البيزنطية :

بدأت الدراسات البيزنطية فى القرن السابع عشر الميلادى فى فرنسا . ويرجع الفضل فى ذلك إلى النهضة الثقافية التى شهدتها فرنسا فى عهد أسرة بوربون Bourbon والتى بلغت ذروتها فى عهد الملك الشهير لويس الرابع عشر Louis XIV (١٦٤٣ - ١٧١٥م) . ففى ذلك العصر تنافس الملوك والوزراء والنبلاء والأساقفة على إنشاء المكتبات وجمع المخطوطات وإحاطة طلاب العلم بالرعاية والاهتمام ، وأصبحت فرنسا مركز الإشعاع الثقافى فى أوروبا . وفى هذه الأجواء كانت البداية الحقيقية للدراسات البيزنطية ، حين إهتم عدد من الباحثين

الفرنسيين ، من أمثال فيليب لابيه Philippe Labbe (١٦٠٧ - ١٦٦٧م) وبيير بوسين Pierre Poussines (١٦٠٩ - ١٦٨٦م) وجاك جور Jacques Goar (١٦٠١ - ١٦٥٣م) وشارل فابرو Charles Fabrot (١٥٨٠ - ١٦٥٩م) وآخرون ، بدراسة المصادر الأدبية البيزنطية ونشرها على أساس أنها تمثل الجزء الختامى من تاريخ الإمبراطورية الرومانية أو الجزء الأخير من تاريخ العالم الهلنيستى [١٧].

ومن الجدير بالذكر ، أن نشر هذه المصادر البيزنطية لم يتم بجهود فردية أو كيفما اتفق ، بل جرى وفق خطة منظمة وتحت رعاية الملك لويس الرابع عشر ووزيره المعروف كولبير Col-bert الذى كان أيضًا مشرفًا على المكتبة الملكية التى أصبحت بعد ذلك تعرف بالمكتبة الأهلية فى باريس . وكان الكاردينال ريشليه Cardinal Richelieu ، الذى تولى رئاسة الحكومة الفرنسية ما بين عامى ١٦٢٤ - ١٦٤٢م (فى عهد الملك لويس الثالث عشر) ، قد أسس دارًا ملكية للطباعة والنشر فى باريس ، عرفت بعد ذلك باسم دار اللوفر Louvre لنشر الأعمال الأدبية المتميزة . فتولت هذه الدار نشر المصادر البيزنطية تباعًا . وإذا كان عام ١٦٤٥م قد شهد إصدار مجلد واحد من أول مجموعة للمصادر التاريخية البيزنطية ، فإن الجهد المنظم والمستمر أسفر عن نشر عشرات المصادر ، وشهد عام ١٧١١م اكتمال نشر أربع وثلاثين جزءًا من هذه المجموعة التى عرفت بعد ذلك باسم مجموعة باريس Paris Corpus[١٨]. وهكذا جرى نشر العديد من مصادر التاريخ البيزنطى لأول مرة مصحوبة بترجمة لاتينية وتعليقات مفيدة ، وأعقب ذلك نشر مخطوطات لاهوتية وقانونية فضلاً عن بعض تواريخ القديسين . وفى أوج هذا النشاط والاهتمام بالدراسات البيزنطية ، ظهر واحد من أبرز المشتغلين بالدراسات البيزنطية فى القرن السابع عشر الميلادى وهو المؤرخ دى كانج Du Cange . ويعد شارل دى كانج Charles Du Cange (١٦١٠ - ١٦٨٨م) الرائد الحقيقى للدراسات التاريخية فى الحقل البيزنطى . فبالإضافة إلى قيامه بنشر عدد كبير من حوليات التاريخ البيزنطى والتعليق عليها ، فإن أعماله لم تقتصر على حقل التاريخ بل إمتدت لتشمل عدداً من المجالات الأخرى ذات الصلة مثل الفيلولوجيا والطوبوغرافيا والمسكوكات والأنساب[١٩]. بيد أن أعظم إنجازات دى كانج على الإطلاق وأكثرها خلوداً كانت فى مجال المعاجم اللغوية ، إذ وضع اثنين من المعاجم أحدهما للغة اليونانية والآخر للغة اللاتينية فى العصور الوسطى . ويعد معجم اللغة اليونانية فى العصور الوسطى Glossarium ad scriptores mediae et infimae graecitatis أول معجم يصدر للغة

اليونانية البيزنطية ، كما أنه يتضمن إشارات مسهبة للمصادر التاريخية البيزنطية فضلاً عن تعليقات مهمة . ويرى بعض المؤرخين الحديثين أنه على الرغم من صدور معاجم أخرى بعد ذلك مثل معجم سوفوكليس Sophocles المختصر ومعجم ديميتراكوس Dimitrakos الشامل(٢٠) ، فإن أصالة معجم دى كانج ودقته وملاحظاته القيمة تجعله مرجعًا أساسيًا لاغنى عنه للباحث فى مجال الدراسات البيزنطية (٢١) .

وعلى الرغم من هذه الانطلاقة التى تحققت للدراسات البيزنطية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى ، فإنها كانت متواضعة . فمعظم الباحثين فى ذلك الوقت وجهوا جهودهم نحو تحقيق مخطوطات المصادر البيزنطية ونشرها والتعليق عليها مع ترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وإذا طالعنا المقدمات التى قدموا بها تلك المصادر أو التعليقات التى سجلوها ، فإننا سنلاحظ أنها تعاملت مع الدولة البيزنطية فى إطار ملامح غير واضحة كما أنها افتقرت أحيانًا إلى الفهم الصحيح .

كانت هذه البداية المتواضعة خطوة مهمة على طريق الدراسات البيزنطية ، بيد أنها واجهت انتكاسة خطيرة فى القرن التالى . وشهد القرن الثامن عشر الميلادى ، الذى يعد أوج عصر التنوير فى الغرب الأوروبى ، تراجع الاهتمام بالدراسات البيزنطية . ففى عصر العقل والتنوير ، الذى تميز بإنكار إيجابيات الماضى والشك فى المبادىء الأساسية للعقيدة المسيحية ورفض نفوذ الكنيسة وطغيان الملكيات الأوروبية المستبدة ، كان من المتعذر على الباحث أن يجد ما يثير الإهتمام فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (٢٢). وكانت العصور الوسطى الأوروبية تعد فى نظر المثقفين فى ذلك الزمان ، فترة حكم البرابرة وانتشار الجهل وهيمنة الكنيسة ، وبذلك صار مصطلح العصور الوسطى يعنى فترة وسطى منحطة حضاريًا بين الحضارة الكلاسيكية القديمة وحضارة أوروبا البازغة فى عصر التنوير (٢٣).

وفى إطار هذه النظرة وبدون أية دراسة موضوعية ، أصدر عدد من أفضل المفكرين الأوروبين فى القرن الثامن عشر - من أمثال فولتير Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) ومونتسكيه Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) وإدوارد جيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤م) وهجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١م) - أحكامًا خاطئة على تاريخ الدولة البيزنطية . لقد نظر فولتير بإزدراء إلى تاريخ الدولة البيزنطية ووصفه بالسخف والتفاهة واعتبره عديم القيمة لأنه لا يحتوى سوى على الخطب الرصينة وقصص المعجزات ، كما أن قراءته فيها امتهان للعقل الإنسانى(٢٤). ووصف المؤرخ مونتسكيه التاريخ البيزنطى

بأنه نسيج من الثورات والفتن وصور من الخيانة والغدر [٢٥]. أما إدوارد جيبون الذى يعد أهم مؤرخى عصره ، فعلى الرغم من معرفته الموسوعية ودقته المتناهية ، فإنه كان ضحية أخرى لنفس الوهم الذى ساد الغرب الأوروبى فى القرن الثامن عشر الميلادى . وجاء تناوله للعصر البيزنطى خاطئًا ويفتقر إلى الموضوعية إلى حد بعيد ، مما أشاع فى معاصريه اتجاهًا سالبًا دفعهم إلى تجنب الدراسات البيزنطية والنفور منها . ففى كتابه المعروف باسم " اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها " [٢٦]، امتدح جيبون عصر القياصرة الأنطونيين Antonine Caesars فى القرن الثانى الميلادى باعتباره العصر الذهبى الذى ازدهرت فيه الثقافة والبحث الحر فى آفاق المعرفة وآداب السلوك الراقى [٢٧]. أما الاثنى عشر قرنًا التالية فقد نظر إليها باعتبارها قصة اضمحلال متواصل . وشارك جيبون فى تلك النظرة معاصره الفرنسى شارل ليبو Charles Lebeau الذى استخف أيضًا بالتاريخ البيزنطى وتناوله على أساس أنه مرحلة اضمحلال دامت ألف عام من عمر الإمبراطورية الرومانية [٢٨]. وزاد من إيقاع الاضمحلال إغارات البرابرة المتعاقبة من الخارج بالإضافة إلى طغيان نظام الحكم والمنازعات حول الديانة المسيحية والرجعية التى أشاعتها الكنيسة فى الداخل . وعلى الرغم من براعة جيبون وكتابه المثير للإعجاب ، فإنه لم يكن مصيبًا دائمًا فى تحليله أو تفسيره . لقد فشل فى إدراك حقيقة مهمة تتمثل فى أنه فى القرن السابع الميلادى وبعده أخذت معالم دولة مختلفة تتشكل ، وأنها كانت فى واقع الأمر تختلف بشكل كبير عن الإمبراطورية الرومانية فى عصر الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ - ٥٦٥م) : إنها الدولة التى أطلق عليها فيما بعد اسم " الدولة البيزنطية " . هذه الدولة عجز جيبون عن فهم نمط حياتها وحقيقة هويتها ، كما تجاهل إنجازاتها وانتصاراتها لأنها لم تكن مثل إنجازات وانتصارات العصر الذهبى للأنطونيين .

واستمرت وجهة النظر السلبية التى تنظر بازدراء إلى الدولة البيزنطية وتحرص على الحط من قدرها ، تهيمن على الفكر فى الغرب الأوروبى حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان الفيلسوف الألمانى هجل من المؤمنين بها . فهو لم يرى فى بيزنطة سوى كيان سياسى هزيل وعاجز عن التصدى لخطر البرابرة فى الخارج ، أما فى الداخل فهو صرح فاسد يثير الاشمئزاز وتسوده الأهواء الحقيرة والأفكار الرجعية والتعصب الدينى الذى يعوق إرتقاء الإنسان وسمو فكره . والتاريخ البيزنطى فى نظر هجل عبارة عن صفحات باهتة تمتلىء بأخبار عصيان وتمرد القادة العسكريين ومكائد القصور ومؤامراتها التى تنتهى بعزل الأباطرة وسمل أعينهم ونفيهم إلى الأديرة أو قتلهم بدس السم لهم على يد زوجاتهم وأبنائهم[٢٩].

ويتضح مما سبق أن عصر التنوير فى الغرب الأوروبى ، الذى نادى مفكروه بأن العقل هو فى ذاته مصدر المعرفة ، كان يمثل انتكاسة حقيقية بالنسبة للدراسات البيزنطية . ويبدو أن مؤرخى القرن الثامن عشر الميلادى قد وقعوا فى خطأ منهجى ترتب عليه إغتيال حقيقة الدولة البيزنطية وتشويه صورتها . لقد استندوا إلى مفارقة خطيرة افترضت توقف التطور الإيجابى للإمبراطورية الرومانية عند عواصف الفترة الممتدة ما بين القرنين الرابع والسابع من الميلاد. وأنكروا بالتالى كل تطور لاحق فضلاً عن كل إيجابيات القرون التالية . وتقوم هذه المفارقة عند جيبون وشارل ليبو على وهم يعتمد نموذجًا كلاسيكيًا واحداً هو الإمبراطورية الرومانية القديمة بمثلها وقيمها فى عصرها الذهبى ، وتدين بالازدراء والإحتقار كل خروج عليه أو ابتعاد عنه . وهكذا ولقرن من الزمان تأثر الغرب الأوروبى بالعرض القوى والمؤثر الذى قدمه إدوارد جيبون لإضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها والذى أرجعه إلى انتصار البربرية والدين(٣٠).

على أية حال ، تغيرت نظرة الازدراء إلى العصور الوسطى بشكل جذرى مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى بسبب الحركة الرومانسية . فحل الخيال الرومانسى الجامح برؤاه الحالمة للعصور الوسطى محل العداء والإحتقار الذى أبداه العقلانيون تجاه العصور نفسها ، وكان من الطبيعى أن تمتد هذه النظرة الجديدة إلى الشرق . وهكذا بدأ الاهتمام مرة أخرى بالعصر البيزنطى .

ويمكن القول إن دراسة وفهم الدولة البيزنطية لم تبدأ فى الغرب الأوروبى إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . معنى ذلك أن الاهتمام بالدراسات البيزنطية تأخر وتخلف عن الدراسات الكلاسيكية بشكل كبير . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب من بينها كراهية أهل الغرب الأوروبى للمجتمعات الرجعية والمتعصبة فضلاً عن إختلاف نمط الحياة والسلوك الاجتماعى الذى تمثله الحضارة البيزنطية بثقافتها اليونانية ومرجعية كنيستها الأرثوذكسية عن الحضارة الغربية اللاتينية . ولكن أهم الأسباب الى ساهمت فى عزوف الباحثين عن الإقبال على الدراسات البيزنطية هو ذلك التناقض الواضح بين عظمة ووفرة وروعة الأدب الهللينى أو اليونانى القديم وبين التراث الفقير الذى خلفته الكتابة البيزنطية فى ألف عام . والحقيقة أن معرفة التراث اليونانى القديم ، الذى بدونه يتعذر تتبع وفهم الدراسات البيزنطية الأدبية والتاريخية بشكل صحيح ، كانت فى حد ذاتها عاملاً غير مشجع وحالت دون الإقدام على

مواصلة البحث فى مجال الدراسات البيزنطية . فقليل من العلماء أو الباحثين ممن لهم دراية بالتراث اليونانى القديم ، كانت لديهم الرغبة فى التخلى عن هوميروس Homer أو سوفوكليس Sophocles ، أو ثوكيديدس Thucydides ، أو أفلاطون Plato أو أرسطو Aristotle ، من أجل دراسة ما كتبه بروكوبيوس القيسارى Procopius of Caesarea أو بولس السيلنتيارى Paul the Silentiary أو جورج البيسيدى George of Pisidia ، أو ميخائيل بسللوس Michael Psellus أو إيستاثيوس السالونيكى Eustathius of Thes-saloniki أو غيرهم .

وعلى الرغم من أن النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى قد شهد اهتمامًا تدريجيًا بتاريخ الدولة البيزنطية ، فإن معظم أعمال الأجيال الباكرة من المؤرخين الأوروبيين اهتمت بسرد وقائع التاريخ السياسى الذى يتضمن تاريخ الحروب والثورات والمنازعات الدينية. ومع تطور علم التاريخ ومناهجه ، لم يعد الباحث الأوروبى يعتقد أن جوهر الماضى يمكن إدراكه بسرد وقائع التاريخ السياسى وتحليلها فقط ، وبدلاً من ذلك بدأ التوجه نحو تاريخ الحضارة أو تاريخ الإنسان بمنظوره الشامل [٣١]. وشهد القرن العشرون تحقيق ونشر العديد من مخطوطات المصادر البيزنطية وإصدار المزيد من الدوريات العلمية المتخصصة واتصال العلماء والباحثين من مختلف البلدان وتعاونهم ، فاتسعت آفاق البحث وتنوعت وحققت الدراسات البيزنطية طفرة كبرى [٣٢].

نظرية مشيئة الرب وشعبه المختار :

عاشت الدولة البيزنطية حياة غير عادية وانعكس ذلك بالتالى على مواطنيها الذين كان عليهم أن يتعاملوا مع كوارث الطبيعة التى أصابتهم ، ويتنازعوا حول قضايا العقيدة المسيحية التى شغلتهم ، ويتصدوا للأخطار الخارجية التى ألمت بهم . ولما كانت حياتهم تفتقر إلى عوامل الاستقرار ، فإن تفاعلهم مع الأحداث واستجابتهم للتحديات جعلتهم يتميزون بالنشاط والحيوية والحراك الاجتماعى . ولقد عبر الأدب بوضوح عن رؤية البيزنطيين المثالية لدولتهم وتصورهم لمستقبلها وصاغها فى نظرية محددة تشبع الغرور والكبرياء البيزنطى . وعلى الرغم من أن هذا التصور النظرى للدولة ومستقبلها كان يتناقض مع ملابسات الواقع العملى ، فإن البيزنطيين تشبثوا بالنظرية وآمنوا بكل عناصرها الغيبية .

تقول النظرية إن الإمبراطورية الرومانية الشرقية هى إمتداد واستمرار لإمبراطورية أغسطس الرومانية بكامل هيئتها وعناصرها قوتها وأسباب وجودها [٣٣]. إنها الإمبراطورية التى قضى جوبيتر Jupiter - كبير آلهة الرومان - بأن تكون لها السيادة الأبدية والشاملة على كل العالم . لقد أكد ذلك الشاعر الرومانى أوفيد Ovid (٤٣ ق.م-١٧م) حين نادى بأنه ذات يوم ستكون السيادة على العالم كله من نصيب روما وتلالها السبعة [٣٤]. ويلاحظ أن هذا الاعتقاد فى السيادة الطبيعية والمقدرة لروما ، اقترنت به ولعدة قرون قوة دينية عالمية هى العقيدة المسيحية . ففى نفس الوقت تقريبًا ، عندما ظهر الحاكم الدنيوى أغسطس بوصفه إمبراطور السلام الوحيد فى مملكة الأرض ، بعث الله بين الناس نظيره السماوى السيد المسيح، عليه السلام ، بوصفه إمبراطور السلام فى مملكة السماء الأبدية [٣٥]. وبدا لبعض الوقت أن القوتين البارزتين الدنيوية والدينية فى حالة صراع مع بعضهما البعض . ولكن مع مجىء الحوارى الثالث عشر فى شخص قسطنطين الأول [٣٦]، إندمج التقليدان الدنيوى والدينى فى نظرية فريدة متكاملة ، مادية وروحية فى وقت واحد ، سرعان ما اكتسبت نفوذاً وسلطانًا وأصبح الإيمان بها راسخًا عند الجميع . وكان السيد المسيح فى هيئته البشرية يعد تجسيد الرب للجنس البشرى ، وحكم بوصفه إمبراطوراً منفرداً مملكة السماء ونشر فى ربوعها السلام الذى يعد من أجل النعم . ولما كانت أحوال مملكة الأرض مضطربة ومختلة ، فإن السيد المسيح عبر فى صلواته عن رغبته فى تنظيم أحوالها لتصبح الأرض صورة طبق الأصل من مدينة الله القائمة فى السماء . ولقد ترتب على كل ذلك ، أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية النظير الدنيوى لجنة السماء . كما قضت المشيئة الإلهية أن تكون لهذه الإمبراطورية السيادة على كل العالم . ويجب الاعتراف بسيادة الإمبراطور الرومانى القائم على العرش ، لأنه تعبير عن مشيئة الله ومظهر لتجليه ، كما أنه يعد بحكم منصبه نائب المسيح Vicarius Christi على الأرض [٣٧]. أما رعايا الإمبراطورية الرومانية الذين آمنوا برسالة السيد المسيح فإنهم شعب الله المختار والمميز . وكانت أحوال الشعب الرومانى المسيحى أو شعب الله المختار تزدهر أو تسوء بقدر تمسك أبنائه بناموس الرب أو ابتعادهم عنه . فإذا امتنعوا عن إرتكاب الآثام والخطايا ، فإن الإمبراطورية تزدهر وتتسع وتزداد قوة وتتراجع أخطار البرابرة فى الخارج ويزول الإختلاف والصراع حول قضايا العقيدة وتنتهى المنازعات التى أثارتها الهرطقة فى الداخل . أما إذا ابتعدوا عن ناموس الرب أو خالفوه فإن عذاب الدنيا هو النتيجة المحتومة . معنى ذلك أن نظرية المشيئة الإلهية التى آمن بها البيزنطيون سمحت للكفرة والهراطقة فى الداخل والبرابرة فى الخارج أن يلحقوا بالشعب الرومانى المسيحى بعض الهزائم والكوارث . فمثل تلك

الكوارث والمحن كانت هى عقاب الله لشعبه المختار على الخطايا والذنوب التى ارتكبها أو على الهرطقات التى اعتنقها (٣٨). ولما كان دور الهراطقة أو البرابرة ينحصر فى أنهم أداة العقاب الإلهى من أجل التصحيح والتطهر ، فإن انتصارات البرابرة أو نجاح الهراطقة لا يمكن أن يستمر طويلاً . وحين يشاء الله فإن الإمبراطورية الرومانية العالمية تستعيد عافيتها وتعود إلى سابق وحدتها وقوتها تحت حكم إمبراطور واحد نائبًا عن المسيح فى الأرض . لقد كان كل شىء بسيطًا للغاية ومنطقيًا وفيه إطراء يشبع غرور وكبرياء الإمبراطورية الرومانية (٣٩).

ومن الجدير بالذكر أن دراسة هذه النظرية وفرضياتها يمكن أن يساعد الباحث فى التعرف على بعض الخصائص العامة للدولة البيزنطية على النحو التالى :

أولاً : احتوت هذه النظرية على عنصر دينى جعل البيزنطيين ينكرون قيم العمل والاجتهاد والتجريب والإبتكار كسبيل للتقدم والرقى . فهذه النظرية ترتكز على عناصر غيبية وتؤكد أن " بلوغ الكمال لا يتم إلا بالقضاء والقدر الإلهى " . ولفظ " كمال " أو " الكمال " يعنى حرفيًا نهاية عملية . وتعد هذه النظرية معادية لكل شىء تمثله الحضارة الغربية أو ناضلت من أجله منذ عصر النهضة . فالغرب يؤمن بأن التقدم والارتقاء لا يتحقق إلا بالعمل والاجتهاد والتجريب العملى أو الإختبار سعيًا إلى الإصلاح وإلى الأفضل . أما شعب الله المختار أو الشعب الرومانى المسيحى فى العصور الوسطى فكان على نقيض ذلك . فمنذ اندماج النظريتين الرومانية والمسيحية الخاصة بإمبراطورية دنيوية وسماوية اعتقد البيزنطيون أن العالم اكتسب نظامه وشكله النهائى وبلغ حد الكمال . لقد منع هذا الاعتقاد أى تصور للتقدم والارتقاء فى المستقبل ما لم يكن فى سبيل التطبيق العملى لكل ما كان صحيحًا من الناحية النظرية . وبلغ من إيمان البيزنطيين بهذه النظرية أن أى تفكير فى إصلاح حقيقى جرى تأويله بوصفه تمرداً أو بوصمه كفراً بالمقدسات . وأدى هذا الاعتقاد فى الكمال الرجعى إلى نتائج خطيرة فى نهاية الأمر . فعندما بدأ العالم الخارجى يتقدم إلى الأمام فى مجالات العلم والثقافة والمهارة فقدت الإمبراطورية البيزنطية ريادتها وتراجعت عن مكانتها وكانت فجيعتها المؤلمة .

ثانيًا : تضمنت هذه النظرية عنصراً سياسيًا أيضًا ، وكان إيمان الرومان المسيحيين بصحته لا يقل يقينًا عن إيمانهم بالعنصر الدينى . لقد نادت النظرية بسيادة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتفوقها على كل ممالك الأرض . وبما أن هذه السيادة لم تأت من فراغ بل أمر بها الرب ، فإن البيزنطيين آمنوا بتفوقهم وسموهم الفطرى على أية جماعة من الجنس البشرى

الرب ، فإن البيزنطيين آمنوا بتفوقهم وسموهم الفطرى على أية جماعة من الجنس البشرى لأنهم شعب الله المختار . وكانت أوهام التفوق والسمو البيزنطى مسئولة عن فكرة بيزنطة عن العالم من حولها وهى فكرة غلب عليها الكبر وغلفها الغرور (٤٠). فالإمبراطورية هى واحة المسيحية الأرثوذكسية وفيها بستان الحضارة والمدنية وما حولها عبارة عن بحر يموج بأقوام البرابرة وأمم الكفرة والهراطقة . وظل الاعتقاد فى سيادة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتفوقها على سائر الأمم راسخًا فى وجدان رعاياها وتجاوز الكثير من الأحداث التاريخية(٤١). فإذا أظهرت بعض الوقائع التاريخية التى خضعت للملاحظة والرصد ما يمكن أن يبطل هذا الادعاء أو على الأقل تشكك فيه ، فإنه يجرى تجاهل تلك الوقائع التاريخية وإسقاطها . أما عالمية الإمبراطورية تحت سيادة السيد المسيح من الناحية النظرية ، فإنها ساهمت فى إلغاء مفاهيم الإقليمية ومشاعر القومية المحلية . فحدود الإمبراطورية كانت متطابقة مع حدود المسيحية الأرثوذكسية وكانت تلك الحدود مطلقة غير مرسومة أو محددة من الناحية النظرية (٤٢). وكان اليونانى واللاتينى والسلافى (الصقلبى) والأرمينى والسورى والجرمانى متساوين جميعًا فى خضوعهم للإمبراطور المختار من قبل السيد المسيح .

عناصر الهوية البيزنطية :

لم تكن الإمبراطورية البيزنطية دولة قومية ، وإذا حاولنا تحديد عناصر الهوية البيزنطية فيجب استبعاد عنصر العرق . فمفهوم العرق Ethnos أو القوم كان غريبًا وبغيضًا بالنسبة للفكر السياسى البيزنطى . لقد كان العرق يعنى قبيلة أو جنس أو سلالة من البرابرة أو الهراطقة أو كلاهما من الذين عاشوا وراء حدود إمبراطورية السيد المسيح ، ورفضوا الاعتراف بحكم الإمبراطور الذى اختاره وباركه السيد المسيح . أما فى الإمبراطورية المسيحية فلم يكن هناك يونانى أو أرمينى أو سلافى (صقلبى) بل القطيع الواحد للراعى الصالح ومملكته السماوية .

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد القرن السابع الميلادى اختفى العنصر الرومانى المنحدر من سلالة الفاتحين القادمين من ضفاف نهر التيبر ، كما أن اليونان القدماء توقفوا منذ عهد بعيد عن تأليف عنصر عرقى . والحقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية تميزت بتعدد أجناسها وتباين أصول أبنائها ، وباختلاط جميع العناصر وتزاوجها فى سهولة ويسر . فسكان أقاليم آسيا الصغرى من ذوى الأعراق المتباينة امتزجوا بسهولة مع سكان الشام وفلسطين ومصر بفضل اللغة

اليونانية الهلنيستية المشتركة . كما كانت الحكومة البيزنطية تتبع دائمًا سياسة تهجير العناصر الأجنبية من خارج حدودها إلى داخل آسيا الصغرى وتوطينها فى المناطق التى هجرها سكانها تحت وطأة الغزو الخارجى ولتعويض النقص فى الأيدى العاملة التى تقوم بفلاحة الأرض (٤٣). فإذا قام المهاجر باعتناق المسيحية الأرثوذكسية واعترف بسيادة الإمبراطور ، فلن يهتم أحد بالبحث عن أصله أو من أين جاء والده . فهذا المهاجر أصبح رومانيًا بصورة مقبولة مثل أى سليل منحدر من أسرة بروتس Brutus أو كاسيوس Cassius . وكانت القسطنطينية نفسها وعلى الدوام مدينة كوزموبوليتانية تقطنها عناصر اجتمعت من مختلف أرجاء العالم وتتكلم عدة لغات (٤٤). وبطبيعة الحال اختلفت اللغات المتباينة التى كان يمكن سماعها فى شوارعها من عصر إلى عصر . ولقد ذكر أحد النحويين من سكان القسطنطينية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، ويدعى يوحنا تزتزس John Tzetzes ، أنه كان يتبادل التحية مع جيرانه المواطنين باللغة الروسية أو الألانية أو التركية أو اللاتينية أو العربية أو العبرية (٤٥). ولايعنى ذلك بالطبع أنه كان يجيد كل تلك اللغات ، بل يعنى ببساطة أنه كان يعرف بضع كلمات أو عبارات من كل لغة .

وإذا كانت بيزنطة لم تنزعج لتباين أصول مواطنيها وتعدد لغاتهم الأولى ، فإنها لم تكترث أيضًا لاختلاف لون بشرتهم . فمن المعروف أن الإمبراطور ثيوفيل Theophilus (٨٢٩ - ٨٤٢م) كا يميل إلى الأجانب وشجع هجرة مجموعات كبيرة متنوعة اللغات والأصول. وتروى المصادر أنه أنزل الأحباش الأثيرين لديه بالقرب من القسطنطينية ، وفرض على نساء المدينة الزواج منهم (٤٦). وبالإضافة إلى ذلك هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes ، والد الزوجة الثانية للإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ - ٩١٢م) ، كان زنجيًا ، وأن ابنته الإمبراطورة زوى Zoe كانت نتيجة لذلك نصف زنجية (٤٧).

ولكن بعد القرن السادس الميلادى أخذت الإمبراطورية تستمد ما تحتاج إليه من الموارد البشرية من بين العناصر السلافية (الصقلبية) التى كانت تقطن شمال الدانوب وجنوبه فى شمال شبه جزيرة البلقان ، ومن العناصر الأرمينية التى كانت تقيم وراء حدودها شرقى آسيا الصغرى (٤٨). لقد جرى تهجير أعداد ضخمة من السلاف (الصقالبة) وعمل معظمهم فى فلاحة الأرض ، لأن السلاف كانوا عناصر زراعية مجتهدة تحرص على تعمير الأراضى التى

تستقر فيها . أما الأرمن فمن المرجح أن أعدادهم كانت أقل ، بيد أنهم أمدوا الإمبراطورية بأبرع الجند وأكفأ الإداريين والساسة طوال الفترة الممتدة من القرن السابع وحتى القرن الحادى عشر الميلادى . وهكذا لم يكن العرق أو السلالة من عناصر الهوية البيزنطية على الإطلاق .

أما الروابط التى وحدت جماهير السكان ذوى الأصول المتباينة واللغات المتعددة فيمكن تحديدها وحصرها فى ثلاث روابط رئيسية : دينية ، إمبراطورية ، ثقافية . الرباط الأول هو العنصر الدينى ويتمثل فى اعتناق المسيحية على المذهب الأرثوذكسى أى مذهب كنيسة القسطنطينية . فعالمية العقيدة المسيحية وضرورة التناسق والمساواة بين المواطنين فرضت على رعايا هذه الإمبراطورية اعتناق دين واحد على مذهب واحد هو المذهب الصحيح . وكان هذا هو المثل الأعلى للإمبراطورية فى الفكر السياسى البيزنطى ، لأن وحدة الإمبراطورية تستمد وجودها من وحدة العقيدة والمذهب . وكانت كنيسة الحكمة المقدسة Hagia Sophia هى الرمز الواضح للعقيدة المسيحية الصحيحة .

ويعد رباط الولاء للحكم الإمبراطورى هو ثانى تلك الروابط . إنه رباط الإحساس بالانتماء والخضوع لسيادة الإمبراطور الذى اختاره الرب . وغدا الإمبراطور بحكم منصبه نائب المسيح على الأرض ، وأصبحت طاعته واجبًا مقدسًا[٤٩] . وكان كل من يدين بالتبعية لكنيسة القسطنطينية يدين بالتالى بالطاعة للإمبراطور لأنه رأس الدولة والكنيسة معًا [٥٠]. وكان التفكير فى أى نظام سياسى آخر محرمًا لأنه يعنى الاستسلام لوساوس الشيطان التى لا يترتب عليها سوى الفوضى أو الديمقراطية ، التى اعتبرها البيزنطيون أمراً بغيضًا لأنه يتناقض مع النظام الذى سنه الله لهذا الكون . أما ثالث تلك الروابط فهو الرباط الثقافى ونقصد به الإنتماء للحضارة الهلنيستية والثقافة اليونانية . وكان العنصر الرئيسى فى هذه الثقافة هو اكتساب اللغة اليونانية . فاليونانية كانت عنصراً أساسيًا ولا غنى عنها إذ كان المواطن يسعى لتحقيق الارتقاء الاجتماعى أو التقدم السياسى ، وهو موضوع سنعود إليه بعد قليل .

يتضح مما سبق أن عناصر الهوية البيزنطية لم تكن عرقية بل كانت دينية وإمبراطورية وثقافية . ومن حسن الطالع أن المجتمع البيزنطى لم يعرف العنصرية ، فالسلافى (الصقلبى) أو الأرمينى أو الجرمانى أو أى وافد مقيم على أرض الإمبراطورية ، إذا تعلم اليونانية واعتنق المسيحية الأرثوذكسية ، فإنه كان يجد أمامه معظم الأبواب مفتوحة إلى سلم الارتقاء الاجتماعى والتقدم السياسى إلى أعلى المناصب فى الدولة [٥١].

على أية حال ، إذا كان المجتمع الذى يتمتع بتلك الخصائص يجب ألا يفرز - من الناحية النظرية - أية صورة للتمايز الاجتماعى أو أية مشاعر بعلو المنزلة والتفوق باستثناء تلك التى ترتبط بوظائف الإدارة العليا فى الحكومة ، فإن المجتمع البيزنطى خالف النظرية بالتأكيد . لقد كان يوجد فى الإمبراطورية البيزنطية فى كل عصورها التاريخية طبقة ارستقراطية بالمولد والوراثة ، وطبقة أخرى أرستقراطية بالثقافة . وكانت الطبقة الأرستقراطية بالوراثة تتمثل فى العائلات الكبيرة فى الأقاليم ، التى كانت تمتلك مساحات ضخمة من الأرض الزراعية والرعوية . وربما كان بعض هذه العائلات النبيلة القديمة امتداداً لحكام الأقاليم المستقلين منذ العصر الرومانى ، كما أن بعضها إدعت بأن سلاسل أنسابها تنحدر من أسماء شخصيات لامعة فى روما الجمهورية . ولكن مع حلول القرن الثامن الميلادى لم يعد فى الإمكان إقامة الدليل على صحة هذا الادعاء الذى كان زائفًا فى كثير من الأحوال . ويمكن القول أن غالبية عائلات طبقة الأرستقراطية العسكرية التى سيطرت على أقاليم آسيا الصغرى فى العصر البيزنطى الأوسط كانت فى واقع الأمر من أصل أرمينى ، كما أن سلطاتهم المحلية لم يكن لها وجود قبل القرن السابع الميلادى . وعلى الرغم من قيام هذه الطبقة برعاية المناقب العسكرية ، فإنها كانت تتميز بالجشع والغطرسة كما عبرت عن نزعة لامركزية وانفصالية فى مجتمع كان يدعى أنه فريد ومتآلف (٥٢). أما الطبقة الأرستقراطية بالثقافة فكانت مختلفة تمامًا ، كما كانت تتمركز فى القسطنطينية نفسها وهى تستحق أن نتوقف أمامها . لقد تعهدت هذه الطبقة برعاية البعد الثقافى فى الهوية البيزنطية ونقصد بذلك الثقافة الهلنيستية. وكان العنصر الرئيسى فى هذه الثقافة هو اكتساب اللغة اليونانية . وليس المقصود هنا اللغة العامية التى يتكلمها الإنسان العادى ، بل اللغة اليونانية الفصحى التى جمعها أهل البلاغة من النصوص اليونانية الكلاسيكية . ومن الجدير بالذكر أن الإنتاج الأدبى والفنى للأغريق من عصر هوميروس إلى عصر أرسطو اعتبرته الأجيال اللاحقة إنتاجًا رفيع المستوى لايمكن تحقيقه مرة أخرى ، ونظرت إليه بوصفه تراثًا يجب دراسته وشرحه والتعليق عليه ثم محاكاته وتقليده ، ولم ينظروا إليه على أساس أنه ثروة يمكن زيادتها أو مضاعفتها باستثمار حكيم . فالشعر اليونانى القديم كان من الصعب أن يضاف إليه لأن ينابيع النبوغ الشعرى والإبداع كانت تعانى من الجفاف (٥٣). أما القدرة على التفكر والتفلسف ، فإنها استمرت واستطاع فلاسفة اليونان والرومان والأفلاطونية المحدثة وأباء الكنيسة الاحتفاظ بكثير من براعة المفكرين القدامى ولكن الإبداع فى هذا المجال كان محدوداً (٥٤). بالنسبة لكتابة التاريخ ، فإنها نمت

بشكل ملحوظ وأرست تقليداً عظيمًا فى الفترة التالية للعصر الكلاسيكى ، وكانت أعظم إرث أدبى انتقل من العصر الهلنيستى إلى بيزنطة (٥٥). أما أكثر عناصر التراث اليونانى فى سهولة اكتسابه وفى الإصرار على الالتزام به فكانت الدراسة العقيمة للألفاظ ، النحو والصرف ، بناء الجملة والإعراب ، فضلاً عن التعبير البلاغى المنمق . وكانت الطبقة المثقفة تسعى إلى الكتابة باللغة التى ساد الاعتقاد أنها اللغة اليونانية الكلاسيكية الرفيعة وعلى النحو الذى جرى تنظيم قواعدها فى ألف كتاب مدرسى وضرب الأمثلة عليها فى عشرة آلاف جملة وفقرة مقتبسة ومختارة من النصوص اليونانية القديمة (٥٦). كانت هذه هى عناصر الثقافة الهلنيستية فى العصر البيزنطى التى ميزت الإنسان المختار مهما كان أصله العرقى عن الإنسان المتبربر . وكان اكتساب هذه الثقافة هو المدخل السحرى إلى أرفع المناصب وأكثرها دخلاً فى دواوين الحكومة والقصر . معنى ذلك أن الاهتمام تركز فى مظهر الثقافة الكلاسيكية . ولم يكن هذا التعلق بمظهر الثقافة الكلاسيكية وتفضيله على جوهرها راجعًا ببساطة إلى تراجع الموهبة أو ذبول الحس الأدبى والإبداع ، بل كان راجعًا إلى أسباب دينية مؤثرة .

ففى دولة كانت أهم مسلماتها أنها إمبراطورية السيد المسيح فى الأرض ، والذى شن أتباعه الأوائل حربًا طويلة ضد الوثنية ، كان ارتباط المثقفين فيها بالأدب اليونانى القديم أو بالأدب الهلنيستى ينطوى على مخاطر وتناقضات . فالتناقض بين ما جاء فى نص الأنجيل المقدس من ناحية وبين آفاق المعرفة الوثنية لبلاد اليونان فى العصر القديم من ناحية أخرى كان تناقضًا خطيراً يصعب تجاوزه (٥٧).وكان هذا التناقض فى حقيقة الأمر كامنًا بشكل دائم ، ولكنه كان صريحًا فى مرات كثيرة . لقد حاول القديس باسيل St. Basil (٣٣٠ - ٣٧٩م) فى القرن الرابع الميلادى إيجاد حل نهائى لهذه المسألة ، فأصدر فتوى شهيرة حول الطريقة التى ينبغى أن يتعاطى بها شباب المسيحيين الأدب الكلاسيكى (٥٨). والمعروف أن القديس باسيل تخرج من الأكاديمية الآثينية وكان مثقفًا يونانيًا ضليعًا وخطيبًا مفوهًا . وفى هذه الوثيقة اعترف القديس باسيل بأن الدراسات اليونانية الكلاسيكية تشكل جزءاً ضروريًا للتعليم الأساسى والعالى . ولكنه أضاف محذراً بأن مبادىء السلوك وتعاليم الأخلاق والعبر التى يتضمنها الأدب الكلاسيكى والتى يمكن الاعتراف بصحتها هى تلك التى تتوافق مع مبادىء الأخلاق والسلوك التى نادى بها الدين الجديد والتى يمكن أن تقوى إيمان الإنسان المسيحى . وكان هذا يعنى فى الواقع العملى أن تعليم المواطن المسيحى يمكن بل يجب أن يتضمن قواعد النحو والصرف للغة اليونانية الكلاسيكية وصيغ التعبير وأساليبه ، فضلاً عن

التاريخ الرومانى ، والمقالات التى تتناول تعاليم الأخلاق مثل تلك المقالات التى كتبها بلوتارخ Plutarch . أما الجزء الأكثر وثنية من التراث الكلاسيكى مثل الدراما والفلسفة الوثنية ، فكان ينبغى الابتعاد عنه وتجنبه(٥٩).

ويبدو أن هذه الفتوى لاقت الاستحسان بشكل عام ، نظراً لأن اللغة - وهى لغة الإدارة الإمبراطورية - كانت أكثر عناصر الثقافة فى سهولة اكتسابها دون التعرض لشبهة الانحراف عن المسيحية . ولكن الحدود الفاصلة التى رسمها القديس باسيل جرى تجاوزها فى كثير من الأحيان . فالعلماء والباحثون فى كل العصور ، وخاصة فى القرن الحادى عشر ومابعده ، باشروا التنقيب على نحو متزايد فى خزانة الحكمة اليونانية وأثاروا بالتالى استنكار أهل التقوى فى المجتمع المسيحى الأرثوذكسى (٦٠). وكان التناقض فى الفكر البيزنطى بين تيارين أحدهما علمانى معتدل والآخر دينى محافظ هو أحد السمات البارزة فى النزاع الدائم بين الأحزاب فى المجتمع البيزنطى .

ويلاحظ أن الطبقة الأرستقراطية بالثقافة كانت منغلقة على نفسها ولم تتباهى بمولد أو نسب ولكنها تباهت بالثقافة اليونانية التى كانت بمثابة الرباط القوى الذى وحد بين أبنائها فى إطار زمالة تشترك فى المشاعر والمصالح . لقد كانوا جميعًا مواطنين رومان مسيحيين ، ولم يتصور أى واحد منهم أنه حين يكتب بالتأنق اللفظى اليونانى أو حين يقتبس من النصوص الكلاسيكية فى كل صفحة يكتبها ، فإنه يثبت بذلك أن أصله أو نسبه ينحدر من سكان بلاد اليونان فى العصر القديم . فقد استخدم المثقف البيزنطى كلمة " يونانى " كصفة ليدلل على ثقافته ، ولكنه حين استخدم صيغة الاسم " اليونانى " فإنه كان يعنى الوثنى (٦١).

وهكذا كانت اليونانية المتأخرة أو الحديثة التى غلب عليها التكلف هى لغة الإمبراطورية الرومانية المسيحية . ولايرجع سبب ذلك إلى القيمة والأهمية التى يمثلها الأدب الكلاسيكى، بل لأن اللغة اليونانية كانت أيضًا لغة الكتاب المقدس ، ولغة معظم آباء الكنيسة المسيحية . ولذلك فقد أصبحت اليونانية أفضل وسيلة تعبير - وبعد القرن السابع الميلادى وسيلة التعبير الوحيدة - لشرح وتفسير العظمة الرومانية والعقيدة المسيحية .

أزمة الثقافة اليونانية فى العصر البيزنطى :

قال الفيلسوف اليونانى ديموقريطس Democritus فى القرن الخامس قبل الميلاد : " أن الطبيعة والثقافة متشابهتان بصورة دقيقة . فالثقافة تعيد بناء الإنسان وتخلق منه طبيعة جديدة " (٦٢). فهل ينطبق هذا القول على الثقافة اليونانية فى العصر البيزنطى ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن الثقافة الهلنيستية أو الثقافة اليونانية فى العصر البيزنطى كانت هى الإطار الذى ربط بين العناصر المختلفة الأصول والأعراق التى شكلت سكان الإمبراطورية . ولما كانت هذه الثقافة تمثل أحد أهم عناصر الهوية البيزنطية ، فإنه يجب تحديد ما تتألف منه مع بيان مدى ارتباطها أو اتصالها بالتقليد اليونانى الكلاسيكى الذى أدعت أنها تحافظ عليه . ويمكن القول إن الثقافة اليونانية فى العصر البيزنطى تضمنت قدراً ضئيلاً من العناصر المشتركة مع ما يعرفه العالم الحديث باسم " الدراسات الكلاسيكية " أى دراسة فكر وأدب وفن حضارة متميزة ومحددة زمنيًا . لقد استخدم المعلمون البيزنطيون الأشعار الهوميرية (أشعار هوميروس) بالفعل فى المدارس ، حيث قاموا بشرح المفردات والغرائب النحوية الواردة فيها [٦٣]. ولكن الجزء الرئيسى من الثقافة اليونانية البيزنطية كان إملائيًا من البداية ، بمعنى أنه اهتم بالطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ اليونانية الكلاسيكية . وكان الاقتراب من هذه الدراسة فى العصور الوسطى يعد محاولة لدراسة لغة ميتة ، نظراً لأن معظم الطلاب حتى لو كانوا قد سمعوا اللغة اليونانية فى حجر أمهاتهم ، فإنهم سمعوا لغة يونانية كانت تختلف عن لغة أفلاطون بشكل كبير وبالقدر الذى تختلف فيه اللغة الإيطالية عن اللغة اللاتينية الكلاسيكية [٦٤]. وكان لدى كل طالب كتابى أبوللونيوس Apollonius وهروديان Herodian من العصر الهلنيستى لتعلم قواعد النحو والصرف ، ورسالتى هرموجنيس Hermogenes وأفثونيوس Aphthonius من العصر الهلنيستى فى البلاغة وفن الخطابة [٦٥]. وباستثناء مقاطع من أشعار هوميروس لم تخضع النصوص اليونانية الأصلية للدراسة إلا فى حالات نادرة . وبدلاً من ذلك كان الطلاب يحفظون عن ظهر قلب مائة من الكتيبات التى تشتمل على قوائم المفردات والعبارات المقتبسة ، الأقوال المأثورة والأمثال ، التراجم المختصرة لحياة المشاهير . وهكذا جرى اقتباس الزخرف الذى ميز الأسلوب الأدبى الذى كتبوا به . وكانت النتيجة الطبيعية أنهم كتبوا أسلوباً أدبيًا غلبت عليه الصنعة والتكلف ، الحذلقة والتقعر ، غاص بالجمل المعقدة ، حافل بالتعبيرات الملغزة ، يتميز بالغموض ، ويتسم بالتكرار إلى حد الإملال . وبهذا الأسلوب تم القضاء على إبداع الفكر وأصالة النقد والتعليق.

وكما كان الحال فى النظرية السياسية والدينية ، جرى إحراز الكمال فى أساليب التعبير والبلاغة فى ماض بعيد . وكان واجب طالب العلم مثل واجب المسيحى التقى ، وهو الالتزام

بالمرجعية المقررة والمحافظة عليها دون تغيير ، لأن الخروج عليها يعد انحرافًا إلى الأسوأ . لقد كانت كتابة لغة يونانية بسيطة وواضحة يعد دليلاً على الجهل والافتقار إلى التربية وإذا فعل أحد ذلك فإن الأمر يتطلب منه دفاعًا مسهبًا فى محاولة لتبرير الفعل وتبرئة الذات(٦٦). أما كتابة مزيج من أكثر العبارات ندرة ، والتراكيب المتكلفة ، وصيغ المناجاة الخشنة ، والإشارات الضمنية وغير المباشرة إلى خرافات وأساطير مبهمة ، فهو المطلب والغاية ويعد وحده معيار الإبداع الأدبى لأنه فيه التزام بالمرجعية الأدبية الكلاسيكية لكل من دموسثنيس Demos-thenes وإيسقراط Isocrates (٦٧).

أما كتابة التاريخ فقد نمت بشكل ملحوظ . وعلى الرغم من أن أشكال تلك الكتابة جرى اقتباسها من العصر القديم ، فإن المضمون كان مختلفًا . ويلاحظ أن أكبر جزء من تراث العصر كان مجرد ممارسة أدبية يختلف فيها مؤلف عن آخر فى درجة التفاهة والسطحية والافتقار إلى الذوق . وكانت سير القديسين تمثل خروجًا على المألوف . فسير القديسين ، التى كانت مجرد ترجمة لحياة وخبرات وتجارب الرجال الصالحين ، جرى تسجيلها بلغة عامية مفهومة عند السواد الأعظم من الناس . ولهذا تشكل سير القديسين دون غيرها من الكتابات استثناء من قاعدة التكلف والصنعة ، وكانت تجمع فى كثير من الأحوال بين الوعظ والتثقيف الأخلاقى من ناحية ، والقدرة على سرد الأخبار الحقيقية من ناحية أخرى (٦٨).

وبصفة عامة يمكن القول أن التراث الأدبى للدولة البيزنطية كان مثيراً للإحباط ، وكان النتيجة الحتمية لجمود ورجعية مجتمع ، اعتقد أبناؤه أن كل تجديد وابتكار يعد بدعة وكل بدعة ضلالة وشر وإثم وخيانة للموروث المقدس . أما المناخ الثقافى والدينى فى الغرب اللاتينى فكان يشبه المناخ الموجود فى الشرق البيزنطى فى بداية الأمر . فكان هناك نفس ضيق الأفق والالتزام بمحاكاة المثل الإمبراطورى الرومانى وما يصاحب ذلك من التعلق الشديد بأدباء العصر القديم . لقد نعمت اللغة اللاتينية الكلاسيكية فى الغرب بنفس الاحترام الذى نعمت به اليونانية الكلاسيكية فى الشرق البيزنطى . وحتى القرن الثانى عشر الميلادى كان الميزان الثقافى بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى يميل بوضوح لصالح الأول . فقوة ووحدة الإمبراطورية البيزنطية جعلتها قادرة على المحافظة على تراثها الروحى ولكنها كانت عاجزة عن تنميته . أما الغرب فلم يقف عاجزاً ، فمنذ عصر الحروب الصليبية أخذ الغرب الأوروبى يتقدم بخطى ثابتة حتى تفوق على بيزنطة ، وأصبح الشرق البيزنطى والغرب الأوروبى عالمين

مختلفين تمامًا . فحتى ذلك العصر كانت النزعة المحافظة للدولة البيزنطية وحرصها على التمسك بما هو قائم ومقاومة التجديد ورفض التغيير ، هو طوق النجاة الذى تعلقت به فى عالم تميز بالتقلب والتخلف والهمجية . أما بعد عصر الحروب الصليبية فإن التقدم الذى بدأ يتحقق فى الغرب الأوروبى ، بعد اتصاله بالشرق الإسلامى ، سار بخطى ثابتة وساهم فى بناء قواعد نهضة كانت معادية للجمود والرجعية (٦٩).

وكان الجمود بالنسبة للدولة البيزنطية يعنى التأخر والتخلف . ولايوجد مجال يمكن فيه إدراك هذه الحقيقة بوضوح أفضل من اللغة والأدب . فاللغة اليونانية فى القرن الثانى عشر الميلادى - ولن نتحدث عن القرنين الرابع عشر والخامس عشر - كانت كأداة اتصال أقل قيمة من اللغة اللاتينية العامية Vulgata فى الغرب ، التى حلت محلها اللغات الرومانسية التى كانت أصلاً لهجات تنحدر منها . وبينما بذلك الكاتب البيزنطى جهداً كبيراً فى الاحتفاظ بالتعبيرات اللغوية القديمة ، فإنه كان يرتكب خطئًا كبيراً لأن أسلوبه أصبح عاجزاً عن التعبير بوضوح عن قصده ومراده . لقد استمر يمارس النقد الأدبى مستخدمًا مصطلحات فنية انقطع استعمالها منذ عهد بعيد ولم تعد ملائمة للغة التى كتب بها (٧٠). لماذا فعل البيزنطى ذلك؟ كان تسلط هاجس الاستمرارية هو الذى شكل فى وجدان المثقف البيزنطى أكبر الأوهام عناداً وأكثرها ضرراً . فلم يعد فى مقدوره أن ينظر إلى التراث اليونانى الكلاسيكى نظرة جديدة ، ولم يعد بوسعه إدراك مغزاه الحقيقى وروعته (٧١). أما الغرب الأوروبى فقد أدرك قيمته وروعته . وكان الأثر الذى ترتب على إعادة اكتشاف الثقافة الكلاسيكية فى الغرب كبيراً وساهم بقوة فى بزوغ عصر النهضة الكبرى .

والمعروف أن الدولة البيزنطية تمسكت برجعيتها فعاشت عصرها الأخير دولة مضطربة يغلب عليها الجمود والرجعية فى عالم كانت أحواله تتغير بسرعة ، وفى مواجهة غرب أوروبى أخذ يتقدم بسرعة فى إطار تنوع المراكز الثقافية فيه وباستخدام اللغات العامية المحلية كوسيلة تعبير . وأمام انتقال التفوق الحضارى إلى الغرب الأوروبى ، اضطر عدد من المفكرين البيزنطيين ، من أمثال كيدونس Cydones وبساريون Bessarion وحتى المتعصب جناديوس Gennadius ، إلى الاعتراف بأن الحكمة أى المعرفة أصبحت الآن فى حوزة الفرنجة اللاتين ، الذين أصبحوا يعرفون عن الأدب اليونانى الكلاسيكى أكثر مما يعرف البيزنطيون أنفسهم . فإذا رغب البيزنطيون فى تلقى التعليم والثقافة فعليهم أن يرحلوا إلي إيطاليا للمطالبة باسترداد تراثهم الذى أصبح فى أيدى البرابرة (٧٢).

وتجدر الإشارة إلى أنه فى العصر البيزنطى الأخير الذى شهد اضمحلال الدولة البيزنطية وضياع هيبتها السياسية ، اتجهت بعض أنظار المثقفين نحو التراث اليونانى القديم بروح جديدة . وأخذت جماعة صغيرة من أنصار التحرر العقلى تتجه نحو دراسة النصوص اليونانية القديمة وتفضلها على أدبيات العصر البيزنطى (٧٣). ولم تعد هذه الجماعة تنظر إلى الإغريق القدماء كوثنيين فاسدين بل كأصحاب عبقرية ونبوغ . ويبدو أن هذا الاتجاه نحو إحياء عظمة الثقافة اليونانية الكلاسيكية وكسر القيود التى تحاصرها كان يستهدف تعويض منزلة ومكانة الدولة البيزنطية بعد الاضمحلال الذى أصابها فضلاً عن تبرير الادعاء بالسمو والتفوق الحضارى الذى تشبث به البيزنطيون . وتبلور هذا الاتجاه نحو إحياء الثقافة اليونانية الكلاسيكية فى كتابات المفكر والفيلسوف جورج جميستوس بلثو George Gemistus Ple-tho والتى خص الإمبراطور مانويل الثانى باليولوج Manuel II Palaeologus (١٣٩١ - ١٤٢١م) ببعضها . لقد أوضح هذا المفكر الحالم أنه فى مواجهة العواصف والتحديات التى تهدد الوجود البيزنطى أصبحت فكرة الإمبراطورية الرومانية العالمية الخالدة مجرد وهم يجب التخلى عنه ، كما أن العقيدة المسيحية الصحيحة التى كانت سياج هذه الإمبراطورية وحصن شعبها المختار أصبحت عاجزة عن إنقاذ ما تبقى من دولة الرومان . ولم يتبق لبيزنطة سوى موروثها الثقافى القديم وخاصة فكر أفلاطون . فهذا الموروث الثقافى هو الوديعة الوحيدة التى يمكن استثمارها لخلق مستقبل رومانسى جديد فى شبه جزيرة البلوبونيز على غرار المدينة الفاضلة (٧٤). لقد كانت نظرية جميستوس بلثو محاولة أخرى لإحياء أسطورة التحدر المباشر من سلالة الإغريق القدماء وادعاء ملكية تراثهم . وعلى الرغم من محاولة تسويق هذه النظرية فإنها لم تلق أى قبول من قطاعات المجتمع البيزنطى على الإطلاق .

ومع أن الدولة البيزنطية واجهت منذ النصف الثانى للقرن الثالث عشر الميلادى تحديات خطيرة فازدادت ضعفًا وأخذ سلطانها يضمحل بسرعة ، فإنها لم تتخل أو تتنازل عن المطالبة بالسيادة السياسية وادعاء التفوق الحضارى لأن هذه المطالب كانت مبادىء عامة قضى بها الله من البداية حين وضع نظام هذا الكون . والمعروف أن مشيئة الله لا تتبدل وفقًا لتغير الوقائع فى عالم الحس والفناء . فالغالبية العظمى من البيزنطيين كانت تؤمن أنه حين يشاء الله ذات يوم ستعود الإمبراطورية العالمية إلى سابق وحدتها وسيتحقق الخضوع الشامل لأركانها لنائبه الإمبراطور الجالس على العرش . فإذا كان تحقيق ذلك قد أخذ يتلاشى فى

الواقع العملى ، فإن هذا راجع إلى خطايا وآثام شعبه المختار . وكان الإيمان من ناحية وملابسات الواقع العملى من ناحية أخرى يتربعان على طرفين منفصلين لمأزق استعصى على الحل . لقد رأى أباطرة أسرة باليولوج بوضوح أنه بدون تقديم بعض التنازلات العقيدية إلى الغرب الكاثوليكى الذى بإمكانه تقديم يد العون بتكوين حلف من القوى المسيحية لنجدة القسطنطينية ، فإن دولتهم المضمحلة مآلها السقوط والهلاك على أيدى الأتراك العثمانيين . كان هذا هو المخرج العملى من المأزق الخطير . بيد أن الأكثرية الضخمة من البيزنطيين علمانيين وكنسيين وديريين على حد سواء نظرت إلى المسألة بطريقة مختلفة ، فأى تنازل فى أمور العقيدة المسيحية الأرثوذكسية يقدم لأهل الغرب الأوروبى اللاتين الهراطقة يعد ازدراءً للمقدسات وانحرافًا عن مبادىء المسيحية الأرثوذكسية ، ومن شأنه أن يثير استياء وغضب الرب ، وبالتالى فهو لن يؤجل بل سيعجل بسقوط دولتهم . فالرب لن يقف إلى جانب شعبه المختار إذا فرط فى عقيدته الصحيحة وتنازل للكنيسة المنشقة وقبل بالسيادة البابوية أو وافق على انبثاق الروح القدس من الابن أيضًا .

وعلى الرغم من أن أيام بيزنطة كانت قد أصبحت معدودة ، فإن الجدل استمر بين القلة المعتدلة من أنصار التحرر العقلى من ناحية وحزب الأغلبية المحافظة من أنصار الطريق القويم المؤمنين بالمشيئة الإلهية من ناحية أخرى . وكما كان مقدراً فاز المخلصون المؤمنون وجاء مشهد الفجيعة الأخير للبيزنطيين ولكنه الفتح المبين للمسلمين . وهكذا سقطت القسطنطينية فى يد الفاتح العثمانى وماتت الدولة ولكن الإيمان نفسه لم يمت ، فقد قدر له أن ينجو ليصبح من أقوى عناصر التراث البيزنطى الذى انتقل إلى العالم السلافى فى أوروبا الشرقية .

حواشى (١)

١ - Collingwood, Autobiography, p. 98 .

٢ - قاسم عبده قاسم : " مفهوم العصور الوسطى " ، الكتاب السنوى الثالث للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية (القاهرة ١٩٩٨م) ص٣٤٠ - ٣٥٠ .

٣ - فى أثناء أحداث الحرب الأهلية التى اندلعت فى العقد الأخير من القرن الثانى الميلادى فى الإمبراطورية الرومانية ، وقفت مدينة بيزنطة القديمة إلى جانب القائد بسكنيوس نيجر Pescennius Niger . وعقب انتصار سبتيميوس سفروس Septimius Severus وفوزه بالعرش الإمبراطورى سنة ١٩٣م قام بمحاصرة بيزنطة لموقفها العدائى ولجع فى اقتحامها عنوة . وتعرضت المدينة للسلب والنهب والدمار الشديد ، انظر: Vasiliev, Byzantine Empire, p. 58 ; Toynbee, Constantine, p.510, n.2 .

٤ - Vasiliev, Byzantine Empire, p. 59 . وللمزيد عن تشييد القسطنطينية ، انظر : Hutton, Constantinople , pp. 1-17 .

٥ - قارن : Jenkins, Imperial Centuries, p. 7 .

٦ - للمزيد عن مكانة روما فى فكر البيزنطيين ، انظر: Dölger, Gedankenwelt, pp.1-42 ; Dölger, Byzanz, pp. 83 - 120 .

٧ - Mango, New Rome, p. 1 .

٨ - أما السلاف (الصقالبة) فقد عرفوهم باسم اليونانيين Grcki أيضًا ، قارن : Mango, New Rome, p. 1 .

٩ - رفض الأستاذ بيورى J.B.Bury مصطلح " الإمبراطورية البيزنطية " لأنه مضلل . وأكد أن الدولة التى اتخذت من مدينة القسطنطينية عاصمة لها ، لايوجد أفضل من مصطلح " الإمبراطورية الرومانية " للتعبير عنها ، انظر مناقشته لهذه القضية فى : . Bury, Roman Empire, I, pp. V-IX . أما الأستاذ توينبى Toynbee فإنه يفضل استخدام مصطلح الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، انظر : Toynbee, Constantine, p. 510, n. 2. وانظر أيضًا الدراسة المهمة التى قدم بها الدكتور/ رأفت عبد الحميد للترجمة العربية لكتاب هسى Hussey : العالم البيزنطى (دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م) ص ١٦ - ١٨ .

١٠ - Mango, New Rome, p. 1 .

١١ - أجمل الدكتور جوزيف نسيم آراء المؤرخين الحديثين المختلفة حول هذه المسألة ، انظر : جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ - ١٤٥٣م) (مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٤م)، ص١٥ - ٢١ . .

١٢ - Bury, Roman Empire, I, pp. V-VI . وانظر أيضًا : هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة وتعليق وتقديم د. رأفت عبد الحميد ، ص ١٦ .

١٣ - انظر : Toynbee, History, IV, pp. 319-22 . وانظر أيضًا : هسى : العالم البيزنطى (مقدمة المترجم) ، ص ٢١ - ٢٢ .

١٤ - Jenkins, Imperial Centuries, p. 14 .

١٥ - انظر : Ostrogorsky, State, p. 29 .

١٦ - قارن : الفصل الثانى من هذا الكتاب .

١٧ - عن بداية الدراسات البيزنطية فى القرن السابع عشر الميلادى ، انظر :
Ostrogorsky, State, pp. 3-4; Vasiliev, Byzantine Empire, pp. 3-4.

١٨ - جرى بعد ذلك إعادة طباعة تلك المجموعة من المصادر التاريخية خارج فرنسا فصدرت بأكملها فيما عرف بمجموعة البندقية Venice Corpus ، كما أعيد نشر معظمها فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر مع إضافات عديدة فيما عرف بمجموعة بون Bonn Corpus انظر : Ostrogorsky, State, p. 3. .

١٩ - Ostrogorsky, State, p. 4 .

٢٠ - Sophocles, Greek Lexicon; Dimitrakos, Mega Lexikon.

٢١ - Ostrogorsky, State, p. 4; Vasiliev, Byzantine Empire, p.5.

٢٢ - Vasiliev, Byzantine Empire, p. 6 .

٢٣ - قاسم عبده قاسم : مفهوم العصور الوسطى ، ص ٣٤١ .

٢٤ - انظر : Voltaire, Pyrrhonisme de l'histoire, chap. 15 .

٢٥ - Montesquieu, Considerations, p. 437 .

٢٦ - صدر كتاب إدوارد جيبون " اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها " فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى وبالتحديد فى لندن بين عامى (١٧٧٦-١٧٨٨م). وأعيدت طباعته كاملاً أو مختصراً فى مجموعة من المجلدات أو فى مجلد واحد ، كما ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية ، وشغل النقاد والمؤرخين طوال القرن التاسع عشر الميلادى . وتعد الطبعة التى أشرف عليها الأستاذ ج.ب.بيورى J.B.Bury أفضل طبعة صدرت لهذا الكتاب . فقد امتازت بمقدمة مهمة وتعليقات قيمة أضافها الأستاذ بيورى أخذت فى الاعتبار ما استجد من نتائج البحث التاريخى فى هذا المجال فى القرن التاسع عشر . انظر : Gibbon , Decline and Fall. وفى عام ١٩٦٩م قام الأستاذ محمد على أبو درة بإعداد ترجمة عربية عن طبعة مختصرة فى ثلاثة مجلدات أصدرها الأستاذ د.م.لو D.M.Low فى الولايات المتحدة

الأمريكية سنة ١٩٦٠م لكتاب جيبون . وقام الأستاذ أحمد نجيب هاشم بمراجعة الترجمة العربية والتقديم لها ، وصدرت فى ثلاثة أجزاء عن دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .

٢٧ - المقصود بعصر الأنطونيين عصر الإمبراطورين الرومانيين أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٧ - ١٦١م) وخليفته ماركوس أوريليوس أنطونينوس Marcus Aurelius Antoninus (١٦١-١٨٠م) . ويرى جيبون أن مقدمات هذا العصر الذهبى بدأت بعد وفاة الإمبراطور دوميتيان Do-mitian (٨١-٩٦م) وانتهى بوفاة الإمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م . ولقد بلغت الإمبراطورية الرومانية فى تلك الفترة أقصى اتساع لها ، كما استقرت أحوالها فى الداخل بفضل حكم القوة المطلقة على هدى من الفضيلة والحكمة . وللمزيد عن العصر الذهبى للأنطونيين ، انظر : إدوارد جيبون : **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها** ، ترجمة محمد على أبو درة ، تقديم أحمد نجيب هاشم (القاهرة ١٩٦٩م) ، جـ١ ، ص ٥٧ - ١٤٣ .

٢٨ - أطلق شارل ليبو Charles Lebeau على كتابه اسم تاريخ الإمبراطورية المتأخرة Histoire du Bas-Empire . ويعد هذا العنوان رمزاً لنظرة الازدراء السائدة بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية . وعلى الرغم من قيام شارل ليبو بإصدار أحداً وعشرين جزءاً من هذا الكتاب الذى سجل فيه أحداث العصر البيزنطى بشىء من التفصيل ، فإن الكتاب لم يكتمل فى حياته . وبعد وفاته صدرت ستة أجزاء أخرى . وفى القرن التاسع عشر قام اثنان من المؤرخين الفرنسيين وهما دى سانت مارتين de Saint-Martin وبروسيه Brosset بإعداد طبعة جديدة منقحة لكتاب ليبو تضمنت إضافات مهمة من المصادر الأرمينية . انظر : Lebeau, **Bas-Empire** . وانظر أيضاً : Vasiliev, **Byzantine Empire**, pp. 11-12 .

٢٩ - انظر : Hegel, **Vorlesungen**, pp. 353-55.

٣٠ - أوضح إدوارد جيبون أن كتابه كان وصفاً لانتصار البرابرة الجرمان والدين المسيحى ، انظر : جيبون : **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها** ، جـ٣ ، ص ٤٥٣ ، وانظر أيضاً :
Ostrogorsky, **State**, p. 5

٣١ - وضع كراوز Krause فى سنة ١٨٦٩م أول كتاب فى تاريخ الحضارة البيزنطية ، انظر :
Krause, **Die Byzantiner** .

٣٢ - للمزيد عن تطور الدراسات البيزنطية فى الغرب الأوروبى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، انظر :
Ostrogorsky, **State**, pp. 5-21 .

٣٣ - قدم الأستاذ ، دلجر Dölger أفضل عرض موجز لنظرة البيزنطيين لدولتهم وللعالم من حولهم ، وهو ما اعتمدنا عليه فى هذه الدراسة ، انظر : Dölger, **Byzanz**, pp. 10-13 . وانظر أيضاً :
Ivánka, **Rhomäerreich**, pp. 25-49.

٣٤ - Dölger, **Byzanz**, p. 10 .

٣٥ - عبر الملاح والتاجر السكندرى كوزماس Cosmas (الذى تقاعد وأصبح راهبًا) عن هذه الفكرة فى القرن السادس الميلادى ، انظر : Cosmas Indicopleustes, p. 15 .

٣٦ - كان يوسبيوس القيسارى Eusebius of Caesarea أول من زاد قائمة الحواريين واحداً ، وهو الذى سجل قصة اهتداء قسطنطين إلى المسيحية فى مؤلفه حياة قسطنطين Vita Constantini على لسان الإمبراطور نفسه . وسار على نفس النهج مؤرخو الكنيسة بعد ذلك وعلى رأسهم سقراط Socrates وسوزومن Sozomen . انظر : وسام عبد العزيز فرج : **دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، جـ١ : الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ - ١٠٢٥م** (دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٢م) ص ١٦ .

٣٧ - Mango, **New Rome**, pp. 218 - 19; Ensslin, **Government**, pp. 8-9 .

٣٨ - Mango, **New Rome**, p. 186 .

٣٩ - وللمزيد عن رؤية البيزنطيين لأنفسهم ولدولتهم وللعالم من حولهم ، انظر :
Ostrogorsky, **Staatenhierarchie**, pp. 41 - 61; Ostrogorsky, **World Order**, pp. 1-14
وانظر أيضًا قائمة تفصيلية بالمصادر والمراجع التى تناولت هذا الموضوع فى :
Hunger (ed.), **Herrscherbild**, pp. 415-17

٤٠ - انظر : Dölger, **Byzanz**, pp. 10-11; Ivánka, **Rhomäerreich**, pp. 27-30.

٤١ - قارن : Ostrogorsky, **Staatenhierarchie**, pp. 41-61; Ostrogorsky, **World Order**, pp. 1-14 .

٤٢ - أشارت المصادر البيزنطية إلى حق الإمبراطورية فى التوسع بلا حدود ، لأن السيادة على العالم بأسره حق لها . ففى القرن العاشر الميلادى مثلاً ذكر المؤرخ البيزنطى ليو الشماس أنه لو لم يقتل الإمبراطور نقفور فوقاس فى نهاية عام ٩٦٩م لكان فى إمكانه أن يدفع بحدود الدولة شرقًا حتى الهند وغربًا حتى نهاية العالم المسكون ، انظر : Leo Diaconus, p. 81 ، وانظر أيضًا :
Ahrweiler, **Idéologie**, p. 46; Ahrweiler, **La Mer**, p. 119.

٤٣ - عن سياسة تهجير السكان من خارج الحدود إلى المناطق التى تفتقر إلى الأيدى العاملة داخل الإمبراطورية بصفة عامة ، انظر : Toynbee, **Constantine**, pp. 71-106; Charanis, **Slavic Element**, pp. 69-83; Charanis, **Ethnic Changes**, pp. 23-44; Charanis, **Transfer of Population**, pp. 140-54 .

٤٤ - للمزيد عن مدينة القسطنطينية ، انظر : وسام عبد العزيز فرج : " أضواء على مجتمع القسطنطينية : دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى " ، مجلة كلية الآداب جامعة المنصورة ، العدد الخامس (١٩٨٤م) ص٦٥ - ١٣٥ . والمعروف أن فئات متعددة

الجنسيات من التجار الأجانب ترددت بشكل منتظم على القسطنطينية ، وكانت لهم أماكن إقامة محددة كما جرى تنظيم معاملاتهم التجارية بدقة . للمزيد عن التجار الأجانب والجاليات الأجنبية المقيمة فى العاصمة البيزنطية انظر : Eparchikon Biblion (Nicole), pp. 25-57.

٤٥ - Moravcsik, Barbarische Sprachreste, p. 360 .

٤٦ - Theoph.Cont., pp. 100-103. ، وعن ميل الإمبراطور إلى الأجانب ، انظر أيضاً : Jenkins, Imperial Centuries, p. 148 .

٤٧ - قارن : Jenkins, Imperial Centuries, p. 200 .

٤٨ - Charanis, Slavic Element, pp. 69-83; Charanis, Ethnic Changes, pp. 23-44; Charanis, Transfer of Population., pp. 140-54.

٤٩ - انظر : Schreiner, Byzanz, pp. 57-58 .

٥٠ - Herman, Secular Church, pp. 104-5 .

٥١ - Dölger, Paraspora, p. 39 .

٥٢ - للمزيد عن طبقة الأرستقراطية العسكرية وضياعها الضخمة فى الأقاليم وما ترتب على ذلك من ازدياد قوتها ، انظر :
Vryonis, Time of Troubles, pp. 15-193; Morris, Tenth-Century Byzantium, pp. 3-27 .

٥٣ - Jenkins, Hellenistic Origins, p. 43 .

٥٤ - Dölger, Literature, pp. 243-46 .

٥٥ - Mango, New Rome, pp. 242-46; Dölger, Literature, pp. 227-37 .

٥٦ - للمزيد عن تعلم اللغة اليونانية ومراحله فى بيزنطة ، انظر : Mango, New Rome, pp. 125-28 .

٥٧ - قارن : Browning, Scholarship, pp. 2-5 .

٥٨ - Dölger, Literature, p. 213 .

٥٩ - Lemerle, Humanism, pp. 44-45 .

٦٠ - Browning, Scholarship, pp. 13-17; Jenkins, Hellenistic Origins, pp. 45-50; Browning, Repression, pp. 3-23 .

٦١ - Lechner, Hellenen, p. 78 .

٦٢ - نقلاً عن : ميشيل متياس : " فى الثقافة والتثقيف " ، الدكتور زكى نجيب محمود فيلسوفاً وأديباً ومعلماً ، كتاب تذكارى من إصدار جامعة الكويت (الكويت ، (١٩٨٧م) ص ٤٢٩ .

٦٣ - Browning, **Homer**, pp. 15-33 .

٦٤ - Dölger, **Paraspora**, p. 40 .

٦٥ - انظر : Jenkins, **Hellenistic Origins**, pp. 43,47-48; Lemerle, **Humanism**, pp. 226-27 .

٦٦ - ذكر الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyrogenitus في مقدمة مؤلفيه عن الإدارة الإمبراطورية ومراسم القصور أنه حرص على الكتابة بلغة شعبية وأسلوب بسيط حتى يجعل كلماته واضحة وروايته مفهومه للجميع ويعتذر عن عدم الكتابة بأسلوب بليغ ، انظر : DAI, I, Ch., 1, p. 48; **De Caerim**, I, p. 2 ، وانظر أيضًا : Mango, **New Rome**, p. 235

٦٧ - قارن : Jenkins, **Hellenistic Origins**, pp. 37-52 .

٦٨ - Mango, **New Rome**, pp. 246-50; Dölger, **Literature**, pp. 224-25 .

٦٩ - عقد بعض الباحثين مقارنة بين نهضة القرن الثاني عشر في الغرب الأوروبي وبين الحياة الثقافية في الدولة البيزنطية في نفس الوقت ، وناقشوا كيف كان افتراق الغرب الأوروبي عن الشرق البيزنطي حتميًا ، انظر : Haskins, **Renaissance**, pp. 275-278 and passim; Haskins, **Greek Element**, pp. 603-10; Browning, **Repression**, pp. 19-23 .

٧٠ - انظر : Browning, **Repression**, p. 5; Jenkins, **Hellenistic Origins**, pp. 48-50 .

٧١ - Panofsky, **Renaissance**, pp. 10-12 and 36-38 .

٧٢ - Sevcenko, **Decline of Byzantium**, pp. 175-77 .

٧٣ - قارن : Sevcenko, **Decline of Byzantium**, pp. 169-86 .

٧٤ - Ostrogorsky, **State**, p. 558 .

(٢)

الألقاب والمناصب الحكومية فى بيزنطة بين الاستمرارية والانقطاع

ربما يبدو تاريخ الإدارة الحكومية من الأمور المملة غير الممتعة ، ولكن المؤرخ لا يستطيع تجاهله لأنه جزء من تاريخ المجتمع الذى يتصدى لدراسته . والحقيقة أن دراسة الإدارة الحكومية فى أية دولة لا تقتصر على عملية رصد الأجهزة الحكومية وما تضمه من موظفين ، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى محاولة فهم هذه الهيئة البيروقراطية التى تضم أصحاب السلطة من الموظفين وتطورها فى إطار خلفية الظروف التاريخية والاجتماعية السائدة .

لقد تناولت الدراسات الحديثة جوانب متعددة من تاريخ الإدارة البيزنطية وحظيت الإدارة العسكرية بنصيب وافر منها [١]. وبينما اهتم بعض المؤرخين بتناول تاريخ الإدارة البيزنطية فى فترة زمنية محددة [٢]، اهتم البعض الآخر بوصف المناصب الحكومية وبيان دلالات الألقاب الرسمية والشرفية [٣]. وعلى الرغم من كل تلك الجهود والإضافات العظيمة ، فإن الحاجة ظلت قائمة إلى دراسة التطور الذى أصاب الحكومة المركزية للإمبراطورية البيزنطية بشكل يتجاوز مرحلة الوصف إلى محاولة التفسير. وهنا تكمن مشروعية التناول الذى تطرحه هذه الدراسة. وفى البداية يجب أن نؤكد أننا لا نسعى هنا إلى كتابة تاريخ عام للإدارة البيزنطية، بل نحاول ترتيب المعالم الواضحة فى بناء الحكومة المركزية للدولة البيزنطية وتفسير تطوره من واقع الظروف التى سادت المجتمع البيزنطى. وسنحاول فى هذه الدراسة مقابلة ما لدينا من أدلة خاصة بالإدارة الحكومية مع ما يتوافر من معلومات فى المصادر التاريخية .

يلاحظ على العصر الأخير للإمبراطورية الرومانية (الذى يتداخل مع العصر البيزنطى المبكر) أنه يتميز بوفرة المادة التى تتناول الإدارة الحكومية . فهناك مجموعة قوانين ثيودوسيوس Codex Theodosianus التى صدرت فى سنة ٤٣٨م باسم الإمبراطورين ثيودوسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠م) وفالنتنيان الثالث Valentinian III (٤٢٥-٤٥٥م) ، والمدونات القانونية التى أصدرها الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م) وخاصة مجموعة Codex Justinianus ومجموعة القوانين الجديدة Novel-lae ، فضلاً عن السجل الخاص بالمناصب المدنية والعسكرية فى الإمبراطورية المعروف باسم Notitia Dignitatum والذى يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى . ويمكن أن نضيف إلى ذلك رسائل كاسيدور Cassiodorus التى كتبها بصفته الرسمية كمسئول عن الإدارة فى رافنا Ravenna فى حكومة ثيودريك Theodric ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا فى الربع الأول من القرن السادس الميلادى . ومع أن كاسيدور كان مهتمًا بالمؤسسات الإمبراطورية بصورتها المعدلة لتناسب ظروف مملكة القوط الشرقيين ، فإن المناصب الرسمية وصلاحياتها الوظيفية لم تتغير إلا قليلاً لدرجة أن المعلومات التى أوردها على درجة كبيرة من الأهمية ليس فقط بالنسبة للإدارة فى رافنا بل أيضًا بالنسبة للإدارة الحكومية فى القسطنطينية [٤]. وبالإضافة إلى هذه الوثائق الرسمية لدينا مصدر آخر عن هيئة حكام الإمبراطورية الرومانية De Magistratibus صنفه يوحنا الليدى Loannes Lydus حوالى منتصف القرن السادس الميلادى . ورغم أن مادة هذا المصدر تبدو غير مترابطة فإنها تزودنا بمعلومات قيمة ، خاصة وأن المؤلف كان أحد كبار موظفى الحكومة فى عهود ثلاثة أباطرة على التوالى : أناستاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١ - ٥١٨م) ، وجستين الأول Justin I (٥١٨ - ٥٢٧م) وجستنيان الأول [٥]. هذه المصادر ، فضلاً عما نصادفه من معلومات فى المصادر التاريخية الأخرى ، جعلت من الممكن تكوين صورة عامة للإدارة المدنية والعسكرية فى الإمبراطورية على النحو الذى نظمه الإمبراطوران دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) وقسطنطين الأول (٣٠٦ - ٣٣٧م) والتعديلات التى استجدت حتى أواخر عهد الإمبراطور جستنيان الأول . ولكن منذ أواخر القرن السادس الميلادى تبدأ فترة امتدت حوالى ثلاثة قرون تتميز بالافتقار إلى الوثائق التى تتناول السلك الإدارى بشكل مباشر ، كما أن الكتابات التاريخية التى وصلتنا من القرنين السابع والثامن الميلاديين قليلة . وربما كان الشىء المفيد الذى وصلنا من تلك الفترة عبارة عن مجموعة من أختام الرصاص المنقوشة

لبعض الموظفين الحكوميين (٦). على أية حال ، منذ حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى تظهر سلسلة جديدة من المصادر ، إنها قوائم الرتب التى تضم ألقاب المناصب الحكومية والألقاب الشرفية . لقد وصلتنا معظم هذه القوائم دون ذكر أسماء من قاموا بتصنيفها ولهذا عرفت بأسماء الباحثين الذين اكتشفوها وقاموا بنشرها . وأول هذه القوائم الخاصة بالعصر البيزنطى الأوسط هى القائمة المعروفة باسم Taktikon Uspenskij ، وهى مجرد قائمة لأهم ألقاب المناصب وقد جرى تدوينها حسب المكانة والأسبقية . ويرجع تاريخ هذه القائمة إلى سنة ٨٤٣/٨٤٢م وقد نشرها الأستاذ أسبنسكى سنة ١٨٩٨م(٧). تأتى بعد ذلك القائمة المهمة المعروفة باسم كلترولوجيون Kleterologion أى قائمة المدعوين إلى ولائم القصر الإمبراطورى وقد أعدها موظف مسئول بالقصر يدعى فيلوثيوس Philotheos سنة ٨٩٩م ونشرها الأستاذان لايخ Leich ورايسك Reiske كملحق لكتاب المراسم البيزنطية De Caerimo-niis، ثم أعاد الأستاذ بيورى Bury نشرها بشكل مستقل مع ترجمة وتعليق سنة ١٩١١م فى كتابه عن النظام الإدارى فى القرن التاسع الميلادى (٨). أما القائمة الثالثة فترجع إلى الفترة ما بين سنة ٩٣٤م وسنة ٩٤٤م ، وقد نشرها الأستاذ بنشفيك Benesevic سنة ١٩٢٦م(٩). وتعد قائمة الإسكوريال Escorial-Taktikon آخر القوائم المكتشفة حديثًا ، وهى ترجع إلى الفترة ما بين سنة ٩٧١م وسنة ٩٧٩م ، ونشرها الأستاذ أويكونوميدس Oikonomides مع القوائم الثلاث سابقة الذكر فى مجلد واحد سنة ١٩٧٢م(١٠). ويمكن أن نضيف إلى هذه القوائم كتابات الإمبراطور قسطنطين السابع (٩١٣-٩٥٩م) وخاصة كتاب المراسم البيزنطية De Caerimoniis وبعض فصول كتابه الآخر الذى يحمل عنوان الإدارة البيزنطية De Ad-ministrando Imperio . أما أهم قوائم العصر البيزنطى الأخير فهى قائمة المدعو كودين Pseudo-Codinus والتى ترجع إلى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وقد نشرها بكر Bekker فى البداية سنة ١٨٣٩م ، ثم أعاد الأستاذ فربو Verpeaux نشرها مع ترجمة فرنسية سنة ١٩٦٦م.

ويتضح من قراءة هذه المصادر أن جهاز الإدارة الحكومية فى الدولة البيزنطية كان من الأشياء التى تبعث على الإعجاب لتنظيمه الهرمى الدقيق ووفرة الكفاءات فيه ، وهى وفرة تكشف بوضوح عن إدراك للحاجات السياسية والاجتماعية . ويتضح التفوق البيزنطى فى هذا المجال إذا عقدنا مقارنة بين الهيئة البيروقراطية التى تضم أصحاب السلطة من الموظفين فى القسطنطينية من ناحية ، والإدارات الحكومية عند الممالك الجرمانية فى الغرب فى بداية

العصور الوسطى أو حتى تلك الإدارات الحكومية التى عرفتها الملكيات القومية المبكرة فى الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى من ناحية أخرى .

وإذا تناولنا واحدة من القوائم السابقة مثل قائمة المدعوين إلى ولائم القصر التى أعدها فيلوثيوس فى عهد الإمبراطور ليو السادس المعروف بليو العاقل (٨٨٦-٩١٢م) وطالعنا على سبيل المثال الوظائف التابعة لإدارة والى القسطنطينية [١١]، سنجد : الوالى Eparchos الذى ينتمى إلى أعلى فئات موظفى الإمبراطورية كما يعد الرجل الثانى بعد الإمبراطور فى العاصمة [١٢]. يأتى بعده مساعده ونائبه Symponos ، وفى نفس الدرجة والمكانة نجد اللغثيث الذى يحمل لقب Logothetes tou Praitoriou . ويتضح من اللقب أن صاحبه كان يتولى الشئون المالية لولاية القسطنطينية . وبالإضافة إلى ذلك هناك القضاة Kritai ton hergeonon ، وهم قضاة الأحياء الأربعة عشر التى تضمها مدينة القسطنطينية وضواحيها ، ويقومون بنظر القضايا فى المرحلة الابتدائية قبل أن يصبح فى الإمكان عرضها على الوالى نفسه [١٣]. يأتى بعد ذلك فى القائمة ألقاب اثنين من المفتشين Episkeptetai الذين لا نعرف عنهم أى شىء ، وربما كانا اثنين من كبار موظفى إدارة العاصمة ويتبعان مساعد الوالى واللغثيث المسئول عن الشئون المالية . ويلى ذلك ألقاب جباة الضرائب ، والموثقين العموميين وغيرهم من المستخدمين ، وممثلى إدارة المدينة لدى النقابات التجارية والحرفية ، والموظفين المسئولين عن الرقابة على السلع ، ورؤساء أحياء المدنية ، وقيادات شرطة المدينة وشرطة الميناء .

إن الانطباع الذى نخرج به ، أننا أمام نظام بيروقراطى متشعب بعكس الدقة والفعالية والكفاية المثيرة للإعجاب ، وتتكرر هذه الصورة فى أقسام الإدارة البيزنطية الأخرى .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : ماذا تعنى هذه القوائم التى تضم المسميات الوظيفية والألقاب الرسمية والشرفية ؟ ولماذا حرص أصحاب تلك القوائم على تسجيلها ؟ وهل يتفق ما جاء فيها مع الواقع الإدارى ؟ .

لقد شغل فيلوثيوس Philotheos ، الذى صنف قائمة المدعوين إلى ولائم القصر ، وظيفة أتريكلينس Atriklines أى المسئول عن النظام فى ولائم واحتفالات القصر الإمبراطورى ، وكان يحمل لقب بروتوسباثاريوس . وتولى بحكم منصبه توجيه دعوات الإمبراطور لحضور المآدب والمناسبات الرسمية فى القصر فضلاً عن تنظيمها [١٤]. ويتضح من هذه القائمة ومن

القوائم الأخرى أنها لم تكن مصنفة لخدمة الإدارة الحكومية وبيان تناسق أجهزتها ، بل أن اختصاصها اقتصر على بيان نظام التشريفات والمراسم المعتادة فى القصر أو ما يعرف بقواعد البروتوكول . ولكنها تعد مهمة بشكل خاص فى إلقاء الضوء على ترتيب أسبقية شاغلى الوظائف الرسمية وأصحاب الألقاب فى ولائم القصر واحتفالاته (١٥).

وتجدر الإشارة إلى أن الاهتمام بوضع نظام دقيق لأسبقية شاغلى المناصب وحملة الألقاب كان تقليداً قديمًا نصت عليه المراسيم التى أصدرها الإمبراطور فالنتنيان الأول Valentinian I (٣٦٤ - ٣٧٥م) فى القسم الغربى من الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٧٢م(١٦). وجاء الإمبراطور فالنتنيان الثانى (٣٧٥ - ٣٩٢م) ليؤكد هذا الاتجاه عندما نص - فى مرسومه الصادر سنة ٣٨٤م - على أن أية مخالفة لنظام الأسبقية هذا ، يعد انتهاكًا ومخالفة لسلطة وعظمة الإمبراطور ويعادل فى خطورته انتهاك حرمة المقدسات (١٧). وهكذا اكتسب نظام الأسبقية أهميته وأصبح تقليداً سائداً فى قسمى الإمبراطورية .

وتبدو العلاقة واضحة بين الاهتمام بنظام التسلسل الهرمى للهيئة البيروقراطية من ناحية ، والعناية بتنظيم الاحتفالات الرسمية فى القصر الإمبراطورى من ناحية أخرى . معنى ذلك أن الحكومة المركزية فى الدولة البيزنطية كانت تعمل فى خدمة المظهر الإمبراطورى بالالتزام بطقوس المراسم وقواعد البروتوكول ، بالإضافة إلى التزامها بوظيفتها الإدارية . لقد نظرت بيزنطة إلى طقوس المراسم ورسوم البرتوكول باهتمام بالغ ، وتضمنت قوانين ثيودوسيوس وقوانين جستنيان عدداً من المراسيم الإمبراطورية الدالة على ذلك (١٨)، ثم قام الإمبراطور قسطنطين السابع بصياغة الإطار الأيديولوجى لتلك المراسم فى كتابه الشهير عن المراسم البيزنطية (مراسم القصور) De Caerimoniis . لقد استخدم قسطنطين السابع كلمة taxis فى التعبير عن النظام القائم على ترتيب وتسلسل الدرجة والمكانة ، واعتقد أنه نظام جدير بالثناء لأنه أكسب الإمبراطورية الإعجاب والتقدير من قبل البرابرة والدويلات التابعة لبيزنطة فى الخارج (١٩). وأصبح كل من لا يلتزم بهذا النظام يسىء إلى بهاء الإمبراطورية وعظمة مكانتها بين الأمم ، فمن يتجاهل هذا النظام يسىء إلي الشعب demos والحكومة politeia أى يسىء إلى الدولة . ففى نظر قسطنطين السابع كان هذا النظام الذى عبرت عنه رسوم القصر واحتفالاته الرسمية قد جعل الإمبراطورية Basileia أكثر عظمة ومهابة (٢٠)، لأنه نظام يحدد بدقة منزلة أصحاب المناصب الرسمية وحملة الألقاب فى الحكومة ويعد على هذا النحو مظهراً لانسجام واكتمال حركة المجتمع كما أرادها الرب (٢١).

ويمكن القول أن دولة مثل الإمبراطورية البيزنطية - التى كانت غير مستقرة دستوريًا ومعرضة للخطر من الخارج بشكل غير عادى - كان عليها أن تتميز على غيرها من الدول وتتفوق فى خاصية مقدسة ، وقد تمثلت هذه الخاصية فى ذلك التنظيم الدقيق والمتسلسل للمناصب والألقاب . لقد كان فيلوثيوس والمدعو كودين وكل أصحاب القوائم الآخرين ، يقفون مذعنين فى خدمة هذا النظام البيروقراطى الصارم الذى يحدد مكانة كل منصب وموقع صاحبه بالنسبة للعرش .

لقد نظروا إلى كل الأجهزة الحكومية بهذا المنظار وحده ، ولم يهتموا ببيان إلى أى مدى مارس أحد الموظفين المتعددين السياسة الخارجية ، أو كيف كانت الإدارة التى يتولى مسئوليتها تؤدى عملها ، بل اهتموا فقط ببيان أى مكان استحق هذا الموظف أن يجلس على مائدة الإمبراطور وأى الشارات كان يحملها مع الإشارة أحيانًا لبعض المهام الرسمية الإضافية التى تدخل فى نطاق اختصاصه فى القصر الإمبراطورى . وفى كل واحدة من تلك القوائم توجد صورة مثالية بلغت حد الكمال لنظام التشريفات والمراسم المعروفة بالبروتوكول . ومما يثير الانتباه أن تلك القوائم تواصل تسجيل ألقاب وظائف لم يعد لبعضها أهمية منذ وقت طويل .

إن أبعاد المشكلة التى تواجه الباحث تبدو واضحة ، فلا يستطيع أحد أن يجزم بأن أصحاب قوائم المناصب سابقة الذكر قد نسجوها من خيالهم ، فألقاب وشارات المناصب الحكومية صحيحة وكانت موجودة بالفعل . وعلى هذا ، تقدم المادة الواردة فى تلك القوائم نقطة انطلاق على جانب كبير من الأهمية وأساس يمكن أن نبدأ منه . ولكن يجب أن نعترف أن الطريق من هذا الأساس وحتى الوصول إلى تاريخ واضح للإدارة الحكومية فى بيزنطة يجب أن يجتاز عملية تحقيق وإثبات مرهقة للبيانات الواردة فى قوائم المناصب والألقاب وذلك بمقابلتها بما ورد فى المصادر التاريخية المتاحة الأخرى . وقبل الشروع فى ذلك يجب أن نبرز الاعتبارات التالية :

أولاً : لقد غلب على هذه الحكومة صفة الأوتوقراطية ، فكان لشخص الإمبراطور تعبيره الرسمى . ففى البداية تم تعظيمه حتى درجة العبادة كما حدث فى عهد دقلديانوس ، ولكن بعد الاعتراف بالمسيحية أصبح الرجل الذى اختارته المشيئة الإلهية ليحكم بإرادة الرب . وبهذا التصور أصبح الإمبراطور فوق سائر البشر ، فهو مصدر السلطة التشريعية

وعلى رأس السلطة التنفيذية . وكان جميع موظفى الحكومة والقصر فى خدمته ، وولاءهم له وحده ، فهو الذى يعينهم فى مناصبهم ، ويستمدون منه سلطاتهم ونفوذهم كما يتحملون أمامه مسئولية أدائهم لواجباتهم (٢٢).

ثانيًا : كان جهاز الحكومة المركزية للإمبراطورية بيروقراطيًا فى تنظيمه ، إذ يتم تصريف الجزء الأكبر من شئون الدولة عن طريق سلسلة من الإدارات الحكومية التى يتولى الإشراف على كل منها موظف رفيع الشأن يتخذ من القصر الإمبراطورى مركزاً له ، وعلى صلة مباشرة بالإمبراطور . ويعمل تحت إمرة هذا الموظف الكبير فى كل إدارة عدد غير قليل من الموظفين ومرؤوسيهم فى تسلسل دقيق ، كما كان له ممثلين فى المناطق الإدارية المختلفة للإمبراطورية (٢٣). وهنا يجب أن نلاحظ أنه إذا كانت ملامح هذا التنظيم البيروقراطى للحكومة المركزية قد تحددت فى القرن الرابع الميلادى بعد إصلاحات دقلديانوس وقسطنطين الأول ، فإن المناصب الرئيسية وألقابها واختصاصاتها الإدارية قد شهدت تطوراً مستمراً ولم تبق على صورتها الأولى . ومن مظاهر هذا التطور اختفاء بعض المسميات الوظيفية تمامًا وانتقال اختصاصاتها إلى مسميات وظيفية جديدة .

ثالثًا : من الضرورى فى هذه المرحلة أن نحاول التمييز بدقة بين شاغلى المناصب الحكومية الحقيقية وهم حملة الألقاب الرسمية وبين حملة الألقاب الشرفية الصرفة الذين لا يشغلون مناصب إدارية رسمية . والمعروف أن التطور الذى أصاب البلاط الإمبراطورى أدى إلى تبلور نظام دقيق للتشريفات والمراسم وتطلب هذا وضع ترتيب دقيق لأسبقية كبار رجال الدولة ومراكزهم فى احتفالات القصر الرسمية . وعلى هذا الأساس تم تصنيف المناصب الرسمية المختلفة فى الحكومة والقصر إلى رتب ودرجات بمنح شاغليها ألقابًا رسمية تحدد درجة كل منهم بدقة . فأصبح لكل موظف صلاحيات وظيفية محددة يميزها لقب رسمى يمنحه الإمبراطور فى وثيقة التعيين Codicil ، كما أصبح لكل لقب رسمى شارات مميزة يحملها الموظف الحائز اللقب . وكان اللقب الرسمى - فى حقيقة الأمر - لا يحدد مركز الموظف بالنسبة للعرش بل يحدد ترتيب الدرجة التى يشغلها فى القصر . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك ألقاب شرفية لا ترتبط بوظائف إدارية محددة يمنحها الإمبراطور لمن يشاء فى شكل وثيقة رسمية أيضًا ، ويصاحب ذلك بالطبع منح حائز اللقب الشرفى الشارات المميزة للقب . وكان تسلسل الألقاب دقيقًا للغاية وعليه يتوقف ترتيب

أصحابها ومراكزهم وأدوارهم فى مراسم واحتفالات القصر [٢٤]. وكما أصاب التطور اختصاصات الوظائف الرسمية فى الحكومة المركزية ، فإنه امتد أيضًا إلى الألقاب . ومن مظاهر ذلك تحول بعض الألقاب الرسمية إلى مجرد ألقاب شرفية بلا اختصاصات وظيفية، واختفاء بعضها الآخر تمامًا .

رابعًا : يجب علينا أن ندرك أن عملية تحقيق وإثبات ما ورد فى قوائم المناصب والألقاب بالاستعانة بما ورد فى المصادر التاريخية الأخرى ، تواجه صعوبات غير متوقعة بالنسبة للمصطلحات . من ذلك على سبيل المثال اختلاف المؤرخين البيزنطيين فى استعمال المصطلحات الفنية للمسميات الوظيفية وهو اختلاف ناتج عن التباين فى مستواهم الثقافى وأسلوبهم الأدبى . حقيقة أن السياق يمكن أن يؤدى بنا إلى إدراك المعنى فى كثير من الأحوال ولكن ليس دائمًا . ويجب أن نحذر من خطورة المجازفة بمطابقة المهام الوظيفية عند تشابه المعانى الأساسية لمسميات الوظائف أو ألقابها ، لأن التباين بين المعنى الحرفى للكلمة والاختصاص الفعلى للوظيفة قد يزداد إلى حد بعيد فى حالة أكثر منه فى حالة أخرى . فمثلاً اللغثيث المعروف بلغثيث الإستراتيوتيكون Logothetes tou stratiotikou أى لغثيث الخزانة العسكرية كان لايزال فى زمن فيلوثيوس لغثيث حقيقى أى موظف للشئون المالية من الفئة العليا ، بينما نجد لغثيث آخر مثل لغثيث الدروم Logothetes tou dromou أى لغثيث إدارة البريد الحكومى ، المعاصر له قد تجاوز إمساك الدفاتر والسجلات المالية التى كانت من اختصاصه فى الماضى وابتعد عنها وأخذ يتولى اختصاصات جديدة [٢٥].

لاشك أن عملية تحقيق ومراجعة ما ورد فى القوائم من ألقاب المسميات الوظيفية تتطلب فهمًا دقيقًا لجهاز الإدارة الحكومية فى بيزنطة . ويرتبط ذلك بالإجابة على سؤال مهم : إلى أى مدى كانت الإدارة الحكومية البيزنطية امتداداً واستمراراً للإدارة الحكومية فى العصر الرومانى ؟ لا يستطيع الباحث أن ينكر استمرارية الهيكل العام للحكومة المركزية من عصر الإمبراطورية الرومانية الأخير إلى العصر البيزنطى المبكر . بيد أن أهم مناصب الحكومة المركزية فى العصر البيزنطى المبكر لم تكن امتداداً لهيئة الحكام الرومانية فى العصر الجمهورى ، بل انبثقت من جماعة رفاق الإمبراطور وأعوانه amici et comites Augusti فى العصر الإمبراطورى .

فمن المعروف مثلاً ، أن أهم ألقاب المناصب الحكومية فى العصر البيزنطى المبكر لقب الوالى البرايتورى Praefectus Praetorio ، وكان صاحبه ينتمى إلى فئة أعوان الإمبراطور. والحقيقة أن المعنى الحرف للقب Praefectus Praetorio هو قائد الحرس أو قائد المعسكر الإمبراطورى ، ولكن هذا المعنى لا يعبر عن صلاحياته الفعلية . ففى عهد دقلديانوس كانت مسئوليات شاغل هذه الوظيفة ضخمة بالنسبة لإدارة الإمبراطورية ، فقد كان على رأس القيادة العسكرية ويتولى فى نفس الوقت الإشراف على الحكومة المركزية ، كما كانت له صلاحيات قضائية أخرى . وهكذا كان شاغل هذا المنصب يحتل المكانة التالية لمكانة الإمبراطور (٢٦). وعندما قام الإمبراطور قسطنطين الأول بتعيين أبنائه قياصرة ووزعهم على مقاطعات الإمبراطورية ، فإنه اضطر أن يعهد بالإدارة الفعلية فى تلك المقاطعات إلى عدد من أعوانه ومنح كل واحد منهم لقب Praefectus Praetorio حيث استقر مع أحد أبنائه لإدارة مقاطعته (٢٧). وهكذا تأكد اصلاح دقلديانوس الخاص بتقسيم الإمبراطورية إلى أربع مقاطعات رئيسية هى غالة وإيطاليا والليريا والشرق . وترتب على ذلك انفصال الوالى البرايتورى Praefectus Praetorio عن شخص الإمبراطور وابتعاده عن مركز الحكومة فى العاصمة وارتباطه بمسئوليات إدارية اقتصرت على الإدارة المدنية فى واحدة من المقاطعات الأربع . وكان قسطنطين حريصًا على تجريد هذا المنصب من السلطة العسكرية حتى لا يحاول حاكم أية مقاطعة استغلالها لاغتصاب العرش ، وهكذا بدأت الصلاحيات الواسعة لهذا المنصب تتقلص تدريجيًا (٢٨).

ولقد ترتب على هذا التعديل الذى أدخله الإمبراطور قسطنطين الأول على الاختصاصات المركزية الواسعة للوالى البرايتورى Praefectus Praetorio ظهور مجموعتين من المناصب الرسمية ، مجموعة عسكرية وأخرى مدنية ، تتبعان الإمبراطور مباشرة . وحدث هذا التطور عندما جرى تخصيص مهام وظيفية محددة لعدد من أعوان ورفاق الإمبراطور Comites حمل كل واحد منهم لقب قومس Comes فضلاً عن لقب رسمى يدل على صلاحياته الوظيفية(٢٩). فتوزعت القيادة العسكرية على أربعة من القادة العسكريين magistri militum (٣٠)، كما توزعت المناصب المدنية فى الحكومة المركزية على أربعة من كبار الموظفين هم : ناظر المالية والخزانة العامة Comes sacrarum largitionum ، وناظر الخزانة الخاصة Comes rerum

Comes et privatarum ، والكويستور المسئول عن التشريع فى البلاط الإمبراطورى quaestor sacri palatii ، وأخيراً رئيس دواوين الحكومة المركزية Comes et magister of-ficiorum .

وتجدر الإشارة إلى أن وظيفتى ناظر الخزانة العامة وناظر الخزانة الخاصة كانتا ضمن وظائف الإدارة المالية لقيصر Fiscus Caesaris (٣١). أما وظيفة الكويستور المسئول عن التشريع والذى كان يختص بصياغة أوامر الإمبراطور ، فلا نعرف يقيناً هل تعد تطوراً لوظيفة الكويستور الإمبراطورى quaestor Augusti ، الذى كان يقرأ ويفسر مقترحات الإمبراطور فى مجلس السناتو ، أم أنها انبثقت عن إدارة التحقيقات القضائية التى كانت تابعة للوالى البرايتورى Praefectus Praetorio ، فهذه المسألة لاتزال خلافية (٣٢). ولكن من المؤكد أنها لم تكن استمراراً لوظيفة الكويستور المعروفة فى روما الجمهورية .

بالنسبة لوظيفة رئيس دواوين الحكومة المركزية ، فالمرجح أنها بدأت متواضعة فى عهد دقلديانوس عندما حدد اختصاصاتها بالإشراف على الموظفين والحرس فى القصر . وكان صاحبها يعد مرؤوساً للوالى البرايتورى Praefectus Praetorio ، ثم تطورت هذه الوظيفة فى عهد قسطنطين عندما استقل صاحبها بالإشراف على إدارة ديوان الموظفين Sacra scrinia وإدارة الحرس . وفى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى أضيفت إلى اختصاصاته المركزية الإشراف على مصانع الأسلحة ، وإدارة الشرطة السرية Schola agentum in rebus ، وإدارة البريد الحكومى Cursus publicus(٣٣) .

وإلى جانب هذه الفئة المهمة من كبار موظفى الحكومة المركزية ، كانت هناك عدة وظائف رفيعة فى القصر ، ارتبط أصحابها بشخص الإمبراطور بحكم طبيعة عملهم مثل منصب كبير الحجاب Praepositus sacri Cubiculi . والمعروف أن هذه الوظيفة بهذا اللقب ظهرت فى عهد الإمبراطور قسطنطين الأول ، ولكن اختصاصاتها كانت موجودة قبل عهد دقلديانوس وكان يتولاها حاجب يحمل لقب كوبيكولو Cubiculo . وابتداء من عهد قسطنطين ارتفع شأن كبير الحجاب حتى أصبح من أرفع المناصب فى القصر رغم أن شاغله كان من الخصيان . وفى البداية كانت اختصاصات هذه الوظيفة إدارة أقسام الخدمة المختلفة والإشراف على العدد الكبير من الحجاب العاملين فى القصر فضلاً عن خدمة الإمبراطور شخصياً (٣٤) . لقد تمتع شاغل هذه الوظيفة بنفوذ كبير وصلاحيات واسعة ليس بسبب أهمية المسئوليات التى تولاها

ولكن بسبب ملازمته للإمبراطور وتملقه ومداهنته . وكان كبار موظفى الحكومة يخشونه لقربه من أذن الإمبراطور وتأثيره الشخصى عليه ، وإن كانوا يكنون الكراهية له لأنه نافسهم وتدخل فى شئونهم (٣٥).

وهكذا بدت ملامح الحكومة المركزية فى العصر البيزنطى المبكر فى تلك الهيئة من معاونى الإمبراطور الذين تقلدوا المناصب الرئيسية . وكان يتبع كل واحد منهم هيئة من الموظفين والمساعدين الذين قاموا بتصريف اختصاصات الإدارة التى يتبعونها . وإذا كان التطور الذى تبلورت فيه اختصاصات المناصب الرئيسية فى هذه الحكومة المركزية قد بدأ قبل عهد قسطنطين الأول ، فإنه اكتمل فى عهده وعهود أبنائه من بعده . وجدير بالذكر أن هذه الفئة من كبار موظفى الحكومة المركزية كانت مرتبطة وملازمة للإمبراطور شخصيًا بشكل كبير ، وكانت على هذا النحو تمثل العرش والقصر بشكل أكبر من تمثيلها للدولة ، رغم أن الدولة بقيت كمفهوم واستمرت تلعب دورها بعد انتقال عاصمتها من روما القديمة إلى روما الجديدة على ضفاف البسفور .

أما سلطة هذه الحكومة المركزية فقد تدعمت بفضل التطور الذى طرأ على تكوين ودور مجلس السناتو فى بيزنطة . ففى بداية عهده قام الإمبراطور قسطنطيوس الثانى -Constan tius II (٣٣٧ - ٣٦١م) بإنشاء مجلس سناتو جديد فى القسطنطينية لينافس مثيله فى روما التى كانت تحت حكم أخيه الأصغر قنسطانز الأول Constans I (٣٣٧ - ٣٥٠م)(٣٦). بيد أن المجلس الجديد لم يعد له نفس الدور القديم ، فلم يعد مجلسًا تشريعيًا رقيبًا على السلطة التنفيذية كما كان الحال فى روما الجمهورية ، بل أصبح يتكون بأمر واختيار الإمبراطور ويجتمع بناء على طلبه كمجلس استشارى ويضم فى عضويته أصحاب النفوذ من موظفى الحكومة وحملة الألقاب الشرفية (٣٧).

إذا تتبعنا التطور الذى طرأ على آليات الحكومة المركزية للإمبراطورية من العصر المبكر إلى نهاية العصر البيزنطى الأخير ، فإننا سنلاحظ وجود ظاهرتين جديرتين بالرصد والتفسير . وتتمثل الظاهرة الأولى فى حقيقة أن ألقاب المسميات الوظيفية لرؤساء إدارات الحكومة المركزية كانت تختفى تدريجيًا وبشكل متكرر عبر القرون ويحل محلها ألقاب مسميات وظائف أدنى منزلة من نفس الإدارات الحكومية أو من إدارات أخرى . أما الظاهرة الثانية فتتمثل فى حقيقة أن رؤساء الإدارات الحكومية وأهم معاونيهم يظهرون فى المصادر البيزنطية

عبر فترات متباينة وبشكل متكرر ، وهم يؤدون أعمالاً لا تمت بصلة مباشرة لاختصاصات الإدارات المعينين فيها والتى حملوا الألقاب الدالة عليها . وقبل الإقدام على أية محاولة للتفسير لابد من رصد بعض الأمثلة من هاتين الظاهرتين على امتداد تاريخ الدولة البيزنطية .

بالنسبة للظاهرة الأولى ، يمكن القول أن معظم ألقاب رؤساء إدارات الحكومة المركزية التى سبقت الإشارة إليها فى العصر البيزنطى المبكر لم يعد لها وجود بعد القرن الثامن الميلادى . لقد تلاشت مسمياتها الوظيفية واختفت ألقابها إما بصورة تامة أو أضيفت إلى جملة الألقاب الشرفية . فمثلاً لم يتبق من لقب magister officiorum – وهو لقب رئيس دواوين الحكومة المركزية – سوى كلمة ماجستير magister (٣٨). وأصبحت هذه الكلمة فى قائمة المدعوين إلى ولائم القصر التى صنفها فيلوثيوس فى نهاية القرن التاسع الميلادى مجرد لقب من الألقاب الشرفية (٣٩). أما فى القرن الرابع عشر الميلادى فلم يعد لها وجود إذ لم ترد فى قائمة المدعو كودين Pseudo-Codinus (٤٠). وفى مقابل هذا التطور أرتقى لغثيث الدروم Logothetes tou dromou ، وهو لقب الموظف المسئول عن إدارة البريد الحكومى ، وتولى صاحبه منذ القرن الثامن الميلادى معظم الاختصاصات المتعددة لرئيس دواوين الحكومة المركزية وخاصة ديوان العلاقات الخارجية والشئون الدبلوماسية المسئول عن مراسلات الدولة الخارجية ومراسم استقبال السفراء الأجانب . وكان لغثيث الدروم قبل ارتقاءه مرؤوسًا لرئيس دواوين الحكومة (٤١). وإذا كان لغثيث الدروم قد تمتع باختصاصات مركزية عديدة ونفوذ كبير فى العصر البيزنطى الأوسط ، فإنه سرعان ما فقد اختصاصاته وأصبح منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى مجرد لقب شرفى بلا مضمون . وفى نفس الوقت ارتفع شأن لقب Logothetes ton sekreton وهو لقب جديد استحدثه الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين Alexius I Comnenus (١٠٨١ - ١١١٨م) لمنصب رفيع الشأن تولى صاحبه لفترة زمنية معينة صلاحية الإشراف على الحكومة المركزية والتنسيق بين إداراتها المختلفة ومراقبة أدائها . ومنذ نهاية القرن الثانى عشر الميلادى أصبح لقب هذا المنصب المهم هو اللغثيث العظيم megas Logothetes (٤٢).

إذا انتقلنا إلى مجال الشئون المالية سنلاحظ أن العصر البيزنطى الأوسط شهد اختفاء ألقاب مناصب بارزة ذات صلاحيات متعددة وظهور ألقاب جديدة لمسميات وظيفية ذات اختصاصات محددة . ففى القرن السابع الميلادى اختفى لقب ناظر المالية والخزانة العامة

Comes sacrarum largitionum وتوزعت اختـصـاصـاته على وظائف جديدة . فظهر لقب اللغثيث المسئول عن الإيرادات العامة Logothetes tou genikou واقتصرت مسئولياته على مسح الأراضى الزراعية وتقدير ضرائبها السنوية وتنظيم جبايتها فى الأقاليم فضلاً عن جباية الرسوم الجمركية (٤٣). وأصبح الإنفاق العسكرى للجيش البيزنطى منذ القرن السابع الميلادى أيضًا تابعًا لإدارة مركزية مستقلة على رأسها موظف من الفئة العليا يحمل لقب لغثيث الاستراتيوتيكون Logothetes tou Stratiotikou أى لغثيث الخزانة العسكرية . وكان هذا اللغثيث يتولى دفع رواتب الجند وتسجيل الحسابات العسكرية ، كما كان يتبعه عدد من الموظفين الذين قاموا بدور حلقة الوصل بين إدارته المركزية فى العاصمة وقادة الثيمات فى الأقاليم (٤٤). أما اختصاصات الخزانة العامة Vestiarium sacrum مثل تمويل الإنفاق وإدارة دور سك العملة بأنواعها ، فقد أصبحت تتبع إدارة مستقلة على رأسها موظف من الفئة العليا يحمل لقب epi tou vestiariou (٤٥).

وبينما اختفى لقب ناظر الخزانة الخاصة Comes rerum privatarum فى القرن السابع الميلادى ، ارتفع شأن ألقاب وظائف تابعة لإدارته مثل لقب اللغثيث المشرف على مراعى الخيول المملوكة للتاج Logothetes ton agelon (٤٦). كما برز لقب اللغثيث المسئول عن إيرادات ممتلكات الدولة الخاصة Logothetes tou eidikou وتولى صاحبه إدارة الأراضى الزراعية والمصانع والمحلات التجارية التى احتكرتها أو امتلكتها الحكومة (٤٧). كما ظهر ابتداء من القرن السابع أيضًا لقب ساكلاريوس Sakellarios وهو لقب أمين خزانة الأموال الخاصة بالإمبراطور . وكانت هذه الخزانة Sakellion تستمد معظم مواردها من صافى دخل الضياع الزراعية والرعوية المملوكة للتاج والتى كانت تمثل وعاء الأموال الاحتياطية للدولة(٤٨). ومن المرجح أن ارتفاع شأن الموظف المسئول عنها يرجع إلى أنه كان يقوم فى كثير من الأحيان وخاصة فى حالات الطوارىء بتغطية العجز فى خزائن الإدارات المالية الأخرى من خزانة الأموال الخاصة بالإمبراطور . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى ازدادت أهمية لقب ساكلاريوس وارتقى صاحبه ليؤدى دور المراقب العام المشرف على كافة الإدارات المالية الأخرى . على أية حال ، شهد العصر البيزنطى الأخير تطوراً جديداً فى مجال الشئون المالية . لقد فقد كل من اللغثيث المسئول عن الإيرادات العامة tou genikou ، واللغثيث المسئول عن إيرادات ممتلكات الدولة الخاصة tou eidikou اختصاصاتهما عقب انهيار الإمبراطورية البيزنطية وسقوط القسطنطينية فى يد اللاتين سنة ١٢٠٤م وأضيف لقبيهما إلى جملة الألقاب الشرفية(٤٩). وفى منتصف القرن الرابع عشر لم يعد هناك من يتذكر لقب اللغثيث المسئول

عن الإدارات المالية العامة (٥٠)، فقد انتقلت صلاحيات التى كانت تشمل تقدير الضرائب والرسوم وتنظيم جبايتها كما انتقلت اختصاصات لغثيث الإيرادات الخاصة إلى الموظف المسئول عن الشئون الخاصة بأسرة الإمبراطور epï ton oikeiakon . وكانت هذه الوظيفة قد ظهرت أول مرة فى القرن الحادى عشر وتولى صاحبها إدارة ممتلكات الأسرة الإمبراطورية .

أما منصب المراقب المشرف على الإدارات المالية للحكومة فقد تخلى عنه لقبه السابق ساكلاريوس Sakellarios واتخذ منذ القرن الثانى عشر الميلادى لقب megas logariastes أى كبير مراقبى الحسابات (٥١).

ومن بين الألقاب الرسمية التى تعرضت لتعديل جذرى فى منزلة صاحبها ومجالات اختصاصه فى العصر البيزنطى الأوسط ، لقب الكويستور المسئول عن التشريع فى البلاط الإمبراطورى Comes et quaestor sacri palatii (٥٢). فالمعروف أن هذا الكويستور لم تكن لديه هيئة موظفين خاصة به بل كان يعتمد فى تصريف شئون إدارته على موظفى السكرتارية (Aseckretai) Sekretarioi التابعين للإدارات المختلفة فى القصر . ولقد ازدادت أهمية موظفى السكرتارية فى القصر لازدياد اعتماد الإمبراطور عليهم ، لدرجة أن رئيسهم الذى حمل لقب السكرتير الأول Protasekretis ارتفع شأنه وازدادت صلاحياته فى القرن السابع الميلادى ، مما أضعف من مركز الكويستور المسئول عن التشريع فى القصر : فتغيرت اختصاصاته وهبطت منزلته وتحول إلى مجرد قاضى فى القسطنطينية ولم يتبق من لقبه الأول سوى كلمة كويستور(٥٣). وإذا كان مركز السكرتير الأول قد ازداد أهمية وتعددت صلاحياته منذ القرن السابع ، فإن القرن التاسع الميلادى شهد ارتفاع شأن إحدى الوظائف التابعة لإدارته وهى وظيفة السكرتير المسئول عن المحبرة الإمبراطورية epi tou kanikleiou(٥٤)، لدرجة أن التنافس على النفوذ فى دواوين الحكومة وقع بين شاغلى هاتين الوظيفتين . ومنذ عصر الأسرة الكومنينية خرج لقب السكرتير الأول من المنافسة وفقد صلاحياته الإدارية الأولى وتحول صاحبه إلى مجرد قاضى فى العاصمة . أما وظيفة حامل المحبرة الإمبراطورية فقد استمرت فى العصر البيزنطى الأخير ولكن بلا نفوذ ، لأن القيادة الحقيقية للحكومة البيزنطية أصبحت منذ القرن الثانى عشر فى يد اللغثيث المسئول عن الإشراف والتنسيق والمراقبة (لغثيث سكرتون) الذى حمل بعد ذلك لقب اللغثيث العظيم (٥٥).

أما لقب كبير الحجاب Praepositus sacri cubiculi الذى تمتع صاحبه بمكانة رفيعة ونفوذ خطير فى القصر فى العصر المبكر ، فقد تحول فى أواخر القرن السابع الميلادى إلى مجرد لقب من الألقاب الشرفية(٥٦) . وفى نفس الوقت ارتفع شأن حاجب آخر كان مرؤوسًا له ومسئولاً عن غرفة نوم الإمبراطور ويحمل لقب البراكويمومنوس Parakoimomenos . وانتقلت اختصاصات كبير الحجاب إلى تابعه البراكويمومنوس الذى ازداد نفوذه بشكل واضح فى العصر البيزنطى الأوسط(٥٧) ، وفى العصر البيزنطى الأخير فقد هذا اللقب اختصاصاته وأهميته ثم اختفى ضمن الألقاب الشرفية . ولاشك أن تعيين حجاب يؤدون اختصاصات الحاجب بمعناها البسيط المحدد قد استمر ، ولكن أضيفت كلمة tou koitonos إلى لقب الحاجب ليصبح الحاجب المسئول عن غرفة نوم الإمبراطور .

وجدير بالذكر ، أنه ابتداء من عهد الأسرة الكومنينية ظهر الاتجاه إلى إسناد المناصب القيادية فى الحكومة المركزية إلى أفراد من أسرة الإمبراطور بصورة أكبر مما كان مألوفًا من قبل. وكان من المألوف حتى ذلك الوقت ظهور بعض أخوة الإمبراطور أو أحد أعمامه أو أخواله وهم يحملون أحيانًا ألقاب قياصرة أو أباطرة مشاركين دون أن يمارس معظمهم أية صلاحيات وظيفية فعلية . ولم يكن هذا التطور يعنى أن النظام السائد والخاص بارتباط المناصب بالألقاب الرسمية التى تحدد مكانة أصحابها فى القصر قد أصبح لاغيًا ، بل يعنى أن المناصب القيادية وألقابها الرسمية أصبحت منذ عهد أسرة كومنين تُقطع للأمراء والأقارب الذين يمتون بصلة النسب للإمبراطور . واستمر هذا الاتجاه طوال العصر البيزنطى الأخير ، كما استمرت أيضًا ظاهرة عدم استقرار الألقاب الرسمية للمناصب القيادية فى الحكومة . ويمكن القول أنه فى عصر أسرة باليولوج بصفة عامة ، وابتداءً من عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثانى باليولوج Andronicus II Palaeologus (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) بصفة خاصة ، تبلورت فكرة أن الإمبراطورية ما هى إلا إقطاع مخصص للإمبراطور وأمراء أسرته (٥٨). وبدأت تظهر العديد من خصائص النظام الإقطاعى التى كشفت عنها تداعيات الضعف والاضمحلال وخاصة الاتجاه نحو امتلاك حقوق الدولة فى الأقاليم ، بشكل أكبر مما ظهر فى نظام حيازة الأرض المشروط المسمى بنظام البرونويا Pronoia الذى عرفته بيزنطة لأول مرة فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى (٥٩). وهنا يجب ألا ننسى أن التجربة البيزنطية للنظام الإقطاعى لم تصل أبداً إلى الدرجة التى بلغتها فى الغرب الأوروبى .

وعندما لا يوجد العدد الكافى من الأقارب المباشرين لشغل الوظائف القيادية فى الحكومة، تظهر جماعة أتباع الإمبراطور Oikeioi لسد هذا النقص [٦٠]. لقد عرفت بيزنطة هؤلاء الأتباع المنتسبين لأسرة الإمبراطور منذ وقت طويل وهم يؤدون وظائف تابعة ذات ألقاب أدنى مرتبة ، بيد أن هذه الفئة من الأتباع ازدادت أهميتها فى العصر البيزنطى الأخير وأصبحت واقعًا ملموسًا فى دوائر الحكومة العليا مع التفضيل والأولوية . وكانت العلاقة التى تربط هؤلاء الأتباع بالإمبراطور ، علاقة ولاء وإخلاص وطيدة تتجاوز كل مظاهر الروابط العادية التى تربط بين التابع أو المرؤوس وبين سيده . وأصبح هؤلاء الأتباع يمثلون موردًا بشريًا احتياطيًا يستطيع الإمبراطور أن يعول عليه عند اختيار من يشغل المناصب القيادية فى الحكومة [٦١]. وكان ولاء هؤلاء الأتباع ، فى الدوائر العليا للحكومة ، تجاه الإمبراطور أكبر مما كان تجاه الدولة واستمر على هذا النحو حتى نهاية الإمبراطورية . وهنا يجب أن نلاحظ أن مظاهر علاقة التبعية الشخصية ورمزها القائم على قسم الولاء للإمبراطور horkos Basili-kos [٦٢]، كانت تعكس الضعف الذى أصاب الدولة فى المركز والمحيط . كما كانت تمثل حالة انقطاع باطنى لفعالية سلطة الحكومة وما تتخذه من قرارات . وترتب على ذلك تنامى مشاعر القلق والافتقار إلى الأمان لدى الرعية . وكانت أسباب القلق ترجع إلى التساؤل عما إذا كانت القرارات والمراسيم التى تصدرها حكومة أحد الأباطرة سوف تلقى الاحترام من قبل حكومات الأباطرة التاليين . لقد دفع القلق ، الأشخاص الذين نالوا امتيازات أو براءات إمبراطورية – وورثتهم من بعدهم – إلى الحرص على تأكيد حقوقهم المتوارثة بالحصول على وثائق وصكوك ممهورة بأختام جديدة فى كل مرة تعاقب فيها على العرش إمبراطور جديد أو تولت السلطة حكومة أخرى .

أما المناصب العسكرية وألقابها ، فيلاحظ أنها كانت بصفة عامة أكثر ثباتًا من ألقاب الوظائف المدنية ولذلك فإنها استمرت عبر تاريخ الدولة البيزنطية وبالشكل الذى يعكس الواقع العسكرى للدولة . وكان من المعتاد أن يحظى استكمال النقص فى هيئة الضباط بعناية كبيرة من جانب الحكومة . وعلى الرغم من ذلك شهد العصر البيزنطى الأخير ظهور بعض الألقاب العسكرية الجديدة ، مثل لقب megas adnoumiastes . والمرجح أنه لاتوجد علاقة بين هذا اللقب وكلمة عملة : nummus (اللاتينية) أو نوميسما nomisma (اليونانية). والغالب أن اللقب مشتق من المناداة بالاسم ad nomen (اللاتينية) ، أى أنه مشتق من

تفقد الجند والمناداة على الأسماء لمعرفة أسماء الغائبين عند اصطفاف الجند للتفتيش أو الاستعراض . ومن المحتمل احتفاظ حامل هذا اللقب بقائمة أسماء الجند . لقد ظهر هذا اللقب فجأة حوالى سنة ١٢٩٠م وارتقى صاحبه من شاغل لوظيفة ثانوية ضئيلة الشأن من عصر الأسرة الكومنينية ، بيد أن المصادر التى ذكرت هذا اللقب لم توضح أن صاحبه كانت له اختصاصات وظيفية محددة [٦٣]. ومن الألقاب العسكرية الجديدة أيضًا لقب megas tzaousion ، وكان صاحبه يتولى اختصاص ضابط النوبة أو ضابط الصف . ويرى البعض أن هذا اللقب مشتق من الكلمة التركية تشاوش (شاويش) tschauch ، الأمر الذى يعكس التأثير التركى المتنامى فى القرن الأخير من تاريخ الدولة البيزنطية [٦٤].

أما الظاهرة الثانية فإنها تتمثل فى حقيقة أن رؤساء الإدارات الحكومية وأهم معاونيهم يظهرون فى وثائق التاريخ فى كثير من الأحيان وهم يؤدون أعمالاً لا تمت بصلة مباشرة لاختصاصات الإدارات التى باشروها وحملوا الألقاب الدالة عليها . وأول ما يلفت النظر هنا قيام بعض كبار الموظفين المدنيين بأداء مهام القيادة العسكرية ، ومن أمثلة ذلك ما يلى :

الخصى نارسيس Narses ، الذى شغل وظيفة كبير الحجاب Praepositus sacri cubicu-li فى عهد الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) ، تولى قيادة الجيش الإمبراطورى فى المرحلة الأخيرة من الحرب ضد القوط الشرقيين فى إيطاليا . واستطاع نارسيس تحقيق نصر كبير على توتيلا Totila زعيم القوط الشرقيين فى معركة بوستا جاللوروم Busta Gallor-um سنة ٥٥٢م[٦٥]. وفى سنة ٧١٥م نطالع فى المصادر أن أحد شمامسة كنيسة الحكمة المقدسة (هجيا صوفيا) ويدعى يوحنا ، والذى شغل أيضًا وظيفة اللغثيث المسئول عن الإيرادات العامة Logothetes tou genikou ، يكلفه الإمبراطور أناستاسيوس الثانى Anastasius II (٧١٣ - ٧١٥م) بقيادة الأسطول البيزنطى فى حملة بحرية ضد العرب المسلمين [٦٦]. وفى أواخر سنة ٨٤٣م كلفت الإمبراطورة ثيودورا Theodora ، الوصية على الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢ - ٨٦٧م) ، ثيوكتيستوس Theoctistus بقيادة حملة بحرية كبيرة ضد المسلمين فى جزيرة كريت . وكان ثيوكتيستوس يحمل لقب لغثيث الدروم Logothetes tou dromou ويتولى معظم الاختصاصات المتعددة لرئيس دواوين الحكومة المركزية وخاصة ديوان العلاقات الخارجية وإدارة البريد الحكومى [٦٧]. وفى سنة ١٢٥٧م تولى المؤرخ المعروف جورج أكروبوليتس George Acropolites قيادة الجيش البيزنطى فى معركة ضد حكام إبيروس Epirus . وكان جورج إكروبوليتس هذا يحمل لقب

اللغثيث العظيم megas Logothetes وتولى الإشراف على دواوين الحكومة المركزية فى عهدى الإمبراطورين ثيودور الثانى لاسكاريس Theodore II Lascaris (١٢٥٤ - ١٢٥٨م) وميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaeologus (١٢٥٩ - ١٢٨٢م)(٦٨). وفى بداية القرن الرابع عشر الميلادى ، وقبل اندلاع الحرب الأهلية بين أسرة باليولوج الحاكمة وأسرة كانتاكوتزنوس Cantacuzenus ، كان الكسيوس أبوكاوكوس Alex-ius Apocaucus يشغل وظيفة مدير مصانع الملح الإمبراطورية . وخلال فترة الحرب الأهلية ارتفع شأنه وتولى منصب القائد العسكرى للأقاليم الغربية واتخذ لقب megas doux (٦٩).

كما قام عدد من القادة العسكريين بأعمال لا تمت بصلة لاختصاصاتهم العسكرية ومن أمثلة ذلك ما يلى :

فى نهاية سنة ٨٨٦م كلف الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ - ٩١٢م) القائد أندرياس Andreas ، وكان يشغل وظيفة قائد الحرس الإمبراطورى ، وآخرون بإقامة دعوى قضائية ضد البطريرك فوتيوس Photius ، وترتب عليها عزل فوتيوس من بطريركية القسطنطينية للمرة الثانية (٧٠). وفى سنة ١٣٢٨م نجح الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوج Andronicus III Palaeologus (١٣٢٨ - ١٣٤١م) فى اعتلاء العرش البيزنطى والانفراد بالسلطة . وعلى الفور ارتفع شأن رفيقه فى الحرب الأهلية القائد يوحنا كانتاكوتزنوس John Cantacuzenus - الذى كان يشغل وظيفة القائد الأعلى للجيش البيزنطى ويحمل لقب megas domesticus - حيث باشر الإشراف على كافة دواوين الحكومة المركزية وتوجيه سياسة الدولة (٧١). وفى سنة ١٤٣٠م كلف الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوج John VIII Palaeologus (١٤٢٥ - ١٤٤٨م) القائد العسكرى ماركوس ياجاريس Markos Jagaris بالسفر إلى روما للتفاوض مع البابا مارتن الخامس Martin V (١٤١٧ - ١٤٣١م) فى موضوع الوحدة بين كنيستى القسطنطينية وروما (٧٢).

وبالإضافة إلى ما سبق قام عدد آخر من كبار الموظفين فى القصر الإمبراطورى بأعمال لا علاقة لها باختصاصات وظائفهم ومن أمثلة ذلك ما يلى :

قام الإمبراطور جستنيان الثانى Justinian II (٦٨٥ - ٦٩٥ / ٧٠٥ - ٧١١م) بتكليف ترويلوس Troilos ، وكان مسئولاً عن حجرة ملابس الإمبراطور وحمل لقب Proto-vestiarios ، باستكمال منشآت مرفأ القسطنطينية (٧٣). كما كلفت الإمبراطورة زوى Zoe

فى سنة ٩١٤م الحاجب المسئول عن حجرة الملابس الإمبراطورية والذى حمل أيضًا لقب Proto-vestiarios ، بالإشراف على إدارة الشرطة السرية ، رغم أن تلك الإدارة كانت تتبع لغثيث الدروم (٧٤). وفى سنة ٩٦٨م وصل ليتبراند أسقف كريمونا Liutprand of Cremona إلى القسطنطينية ، مبعوثًا من قبل الإمبراطور الألمانى أوتو الأول Otto I (٩٣٦ - ٩٧٣م) للتفاوض حول عقد زواج سياسى بين ابن الإمبراطور أوتو الأول وأميرة بيزنطة . فكلف الإمبراطور البيزنطى نقفور فوقاس Nicephorus Phocas (٩٦٣ - ٩٦٩م) ، الحاجب المسئول عن غرفة نومه - وهو الخصى باسيل الذى كان يحمل لقب باراكويمومنوس Parakoi-momenos - بإجراء تلك المفاوضات التى انتهت بالفشل (٧٥). وفى عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع البافلاجونى (١٠٣٤ - ١٠٤١م) أصبح الخصى يوحنا - الذى كان يشرف على مؤسسة الرعاية الاجتماعية الحكومية ويحمل لقب Orphanotrophus - مسئولاً عن كافة الإدارات المالية للحكومة (٧٦).

على أية حال ، بعد رصد ظاهرة الاختفاء التدريجى لألقاب المسميات الوظيفية لرؤساء إدارات الحكومة المركزية ليحل محلها ألقاب وظائف أدنى منزلة ، وظاهرة قيام بعض كبار موظفى الحكومة والقصر بتأدية أعمال لا تمت بصلة مباشرة لاختصاصات الإدارات المعينين فيها والتى حملوا الألقاب الدالة عليها ، تأتى محاولة التفسير . وفى البداية يجب أن نعترف بأن تطور جهاز الإدارة الحكومية بهيئته البيروقراطية فى بيزنطة هو انعكاس لواقع المجتمع وتقاليده ، كما أنه يمثل تلبية لحاجاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويمكن تفسير هاتين الظاهرتين فى ضوء العاملين التاليين :

أولاً : العامل الداخلى ، وتمثله مجموعة من الخصائص الراسخة فى بناء الجهاز الحكومى والمجتمع البيزنطى وهو على النحو التالى :

أ - غياب التحديد الدقيق لاختصاصات الإدارات الحكومية المختلفة وحدود مسئولياتها تجاه بعضها البعض . فالمصادر تشير إلى نزاع دائم بين موظفى إدارات الشئون المالية والخزانة المركزية وبين موظف الشئون المالية التابع للوالى البرايتورى فى الأقاليم فى العصر البيزنطى المبكر (٧٧). وفى العصر البيزنطى الأوسط كان قضاة الأقاليم الذين يعرفون بقضاة الثيمات أو البنود العسكرية - الإدارية يمارسون أعمالاً بعيدة عن مجال اختصاصهم ويتدخلون فى مجالات الشئون المالية (٧٨). كما كان التنافس شديداً بين موظفى دواوين الحكومة المركزية فى العاصمة .

ب - افتقار الحكومة البيزنطية إلى نظام أو وظيفة تكفل التنسيق فى أداء الإدارات الحكومية المختلفة . فالحكومة لم يكن بها وزير أول (أو رئيس وزراء) يشرف عليها له صلاحيات وظيفية مركزية . ومن الناحية النظرية كان شخص الإمبراطور هو الذى يتحمل مهمة تنسيق أداء إدارات الحكومة . فالنظرية الإمبراطورية أعطت الإمبراطور - الذى يعد مصدر القانون nomos empsuchos - حرية حركة كبيرة لتحقيق الانسجام والتنسيق الضرورى بين إدارات الحكومة . ولما كانت هذه المسئولية جسيمة وفى بعض الأحيان فوق طاقة الإمبراطور الذى كان يباشر واجبات متعددة أو إذا كان الإمبراطور يفتقر إلى الموهبة الإدارية ، فإن الحاجة إلى من يقوم بمهمة التنسيق كانت لازمة . ولكن ما العمل ؟ هل يقوم الإمبراطور باستحداث وظيفة يقوم صاحبها بما يقوم به رئيس الوزراء من اختصاصات التنسيق والتوجيه والمتابعة ؟ لقد كان استحداث وظيفة على هذا النحو يتناقض مع النظرية الإمبراطورية ويخالف الثقة بالنفس والغرور الإمبراطورى . كما أن هناك محاذير عديدة فى الاعتماد على الأباطرة المشاركين . استطاع أباطرة بيزنطة إيجاد حل لذلك ، وهو حل يتجنب إقامة نظام ثابت أو منصب ثابت لهذا الغرض . وبدلاً من استحداث وظيفة مثل وظيفة رئيس الوزراء أو الوزير الأول ، قام الأباطرة بتكليف أى شخص بأداء هذا العمل . فإذا كان هذا الشخص مدير إدارة ، فإن تكليفه بمهمة التنسيق المركزى والمتابعة لا يتم استناداً إلى الإدارة التى يرأسها أو الوظيفة التى يشغلها ، بل يفوضه الإمبراطور القيام بهذا التنسيق بالإضافة إلي عمله فى إدارته الأصلية . معنى ذلك أن من يكلف بمهمة التنسيق والمتابعة لا ينال درجة أو رتبة لها ذكر ، بل يباشر تلك الاختصاصات الإضافية بلقبه الأصلى . فإذا كان شاغلاً لوظيفة ويحمل لقبها من قبل ، فإنه يبقى بالتالى فى درجتها ويستمر حاملاً للقبها رغم أن صلاحياته الجديدة تجعله فى وضع يعلو جميع المناصب لأنه يتولى وحده أمام الإمبراطور مسئولية الإشراف على اختصاصات بقية الإدارات الحكومية . ولهذا لم ترد وظيفة الوزير الأول أو رئيس الوزراء فى السجل الخاص بالمناصب المدنية والعسكرية المعروف باسم Notitia Dignitatum ، كما لم يدرج لها لقب فى قوائم الرتب والألقاب لأنها ليست درجة بل تكليف وتفويض (٧٩).

ويلاحظ أن الألفاظ التى استخدمتها الحوليات التاريخية البيزنطية فى وصف من يفوضهم الإمبراطور بمهمة التنسيق والمتابعة التى تعادل مهام الوزير الأول قد تباينت . ففى العصر الباكر استخدمت المصادر كلمة " باردوناستيون " Paradunasteuon ، واستمر استخدامها

في مصادر العصر البيزنطي الأوسط . أما في العصر البيزنطي الأخير ، فقد ظهرت كلمة "ميزاتسون " Mesazon بنفس الدلالة (٨٠). ويحلو للبعض مقارنة كلمة ميزاتسون (اليونانية) بكلمة الصدر الأعظم التركية (٨١). وكان للإمبراطور حرية التصرف في تحديد مهام من يكلفه بأداء هذا العمل ، فقد يقتصر تكليف التنسيق والمتابعة على إدارة أخرى أو أكثر ، وقد يمتد إلى الإشراف على كل إدارات الحكومة المركزية . ولاشك أن هذا التفويض المتغير يفسر لنا الظاهرة الثانية التي سبقت الإشارة إليها ، والتي يظهر فيها رؤساء إدارات حكومية وهم يؤدون أعمالاً رسمية لاتمت بصلة لاختصاص الإدارات التي يتولون مسئولياتها ويحملون ألقابها .

جـ - الحراك الاجتماعي الذي ميز المجتمع البيزنطي انعكس بدوره على جهاز الإدارة الحكومية . لقد حكم الإمبراطورية البيزنطية في رحلة عمرها التي طالت أحد عشر قرنًا ثمانية وثمانون إمبراطوراً انتسبوا إلى ثلاثين أسرة تقريبًا . والحقيقة أن عدداً كبيراً من هذه الأسر وصلت إلى الحكم وبالتالي إلى قمة الهرم الاجتماعي عن طريق الصعود المفاجيء من القاعدة إلى القمة لأنها كانت من أصول اجتماعية معدمة . لقد احتاج مؤسسوا تلك الأسر إلي جماعات الأتباع لمعاونتهم في الاستيلاء على السلطة واغتصاب العرش وتحقيق الارتقاء الاجتماعي . وبعد الفوز بالتاج كان الإمبراطور لا يقوم بالتخلص من أتباعه بل يحرص على مكافأتهم والاستفادة منهم (٨٢). وكان هؤلاء الأتباع يطلبون الحصول على وظائف عليا وألقاب . وكانت تلك الرغبة تثير قضية الكفاءة وتدفع الإمبراطور إلى المفاضلة بين أهل الخبرة وأهل الولاء . ويمكن القول أن التغيير الإداري الشامل كان أمراً وارداً في كثير من الأحيان وذلك بالتخلص من رؤساء الإدارات الحكومية وأصحاب المناصب القيادية ، وفي مقابل ذلك يقوم الإمبراطور الجديد بالاعتماد على مرؤوسيهم واكتساب ولائهم للنظام الجديد . وهكذا يختفي عدد من ألقاب الوظائف الرئيسية في الحكومة . وفي حالة عدم حدوث تغيير إداري شامل كان الأباطرة يقومون بتعيين تابع أو أكثر في بعض الوظائف الرئيسية في دواوين الحكومة والقصر بمجرد أن تصبح شاغرة ودون أن تتوفر لدى المعين المؤهلات اللازمة لشغل الوظيفة . ولكن يجب أن نلاحظ أن الأعمال الأخرى التي كلفه بها الإمبراطور كانت تتفق مع قدراته ومواهبه . ولهذا نرى موظفًا للشئون المالية اسميًا يقود حملة بحرية ، ونجد قائداً عسكريًا يسافر إلى روما للتفاوض في موضوع الوحدة بين كنيستي روما والقسطنطينية .

ثانيًا : العامل الخارجي ، ويتمثل فى الآثار والتداعيات التى ترتبت على الخسائر الإقليمية التى منيت بها الإمبراطورية البيزنطية . فمنذ أواخر القرن السادس وطوال القرنين السابع والثامن الميلاديين ، منيت الإمبراطورية بخسائر إقليمية جسيمة . إذ اجتاح الآفار والسلاف (الصقالبة) شبه جزيرة البلقان ، واستقرت العناصر السلافية بأعداد كبيرة فيها ، كما قام اللومبارديون بغزو شمال إيطاليا . ونجح العرب المسلمون فى فتح أغنى ولايات الإمبراطورية وهى الشام ومصر وشمال إفريقية فضلاً عن جزر البحر المتوسط (٨٣). وبينما نجح البلغار فى إقامة دولة مستقلة لهم فى شمال شرق البلقان ، استقر الكروات والصرب فى شمال غرب البلقان . وكان انسلاخ تلك الأقاليم عن كيان الإمبراطورية له نتائج خطيرة بالنسبة للإيرادات المالية للدولة ، التى كانت مستمدة فى معظمها من الضرائب الزراعية . ولهذا أصبح جمع الأموال وتحصيل الضرائب وترشيد الإنفاق وفرض الرقابة المالية من بين الواجبات المقدسة التى تقع على عاتق الحكومة . وتطلب الأمر تعديل اختصاصات الإدارات المالية وألقاب رؤسائها . وعندما تتم تغطية العجز فى خزائن الإدارات المالية - فى حالات الطوارىء- من خزانة الأموال الخاصة بالإمبراطور ، فإن الموظف الذى يتولى تلك الخزانة والذى حمل لقب ساكلاريوس Sakellarios لابد أن يرتفع شأنه ليؤدى دور المراقب العام المشرف على كافة الإدارات المالية الأخرى كما حدث منذ أواخر القرن الثامن الميلادى (٨٤).

وفى مواجهة التحدى العسكرى للعرب المسلمين وحملاتهم السنوية على آسيا الصغرى، تمثلت استجابة الدولة البيزنطية فى إعادة بناء دفاعات أقاليمها وتعديل نظامها الإدارى فى الأقاليم . وتبلور ذلك فى ظهور نظام الثيمات أو البنود العسكرية - الإدارية . وأصبح الإنفاق العسكرى منذ أواخر القرن السابع الميلادى له إدارة مالية مستقلة على رأسها موظف من الفئة العليا يحمل لقب لغثيث الإستراتيوتيكون Logothetes tou stratiotikou أى لغثيث الخزانة العسكرية (٨٥).

وعلى الرغم من النهضة التى شهدتها الدولة البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، فإنها كانت قصيرة العمر . وشهد النصف الثانى من القرن الحادى عشر اجتياح الأتراك السلاجقة والتركمان لآسيا الصغرى واستقرارهم فى هضبة الأناضول ، وغزو النورمان والبشناق Patzi-naks وإغارات الكومان والغز على أقاليم غرب وشمال البلقان . وبسبب ازدياد حجم الخسائر الإقليمية ، والاختفاء التدريجى لطبقة صغار المزارعين الأحرار أمام نمو وجشع طبقة كبار ملاك

الأرض الزراعية ، عانت الدولة من عجز شديد فى إيراداتها العامة وعجزت عن الوفاء ببعض التزاماتها . وفى مواجهة عجزها عن توفير السيولة النقدية الكافية لدفع الرواتب بانتظام ، تأكد الاضمحلال بتنازل الحكومة عن بعض حقوقها السيادية لمن يعملون فى خدمتها ، مما أدى إلى ظهور نظام حيازة الأرض المشروط المعروف بنظام البرونويا Pronoia ابتداء من النصف الثانى للقرن الحادى عشر الميلادى (٨٦). لقد اضطرت الحكومة إلى تقديم مساحات من الأراضى الزراعية بمن عليها من مزارعين خاضعين للضرائب كحيازة مؤقتة لبعض كبار القادة العسكريين وعدد من كبار الموظفين المدنيين كبديل عن دفع رواتب لهم . وأصبح على هؤلاء المنتفعين بنظام البرونويا تحصيل ما كان جابى الضرائب يجمعه من المزارعين المقيمين فى تلك الأراضى ، لأنفسهم بدلاً من تحصيله للدولة . وفى البداية لم ترتبط بهذه الأراضى - الممنوحة كحيازة مشروطة ممنوع التصرف فيها - أية حقوق ملكية ، بيد أن اغتصاب مثل تلك الحقوق بالتقادم أصبح أمراً طبيعيًا مما ساهم فى استمرار ضعف الحكومة (٨٧).

وكانت الحملة الصليبية الرابعة - التى نجحت فى الاستيلاء على العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٤م - كارثة بكل المقاييس . وعلى الرغم من أن البيزنطيين أقاموا حكومة لهم فى المنفى فى مدينة نيقية ، ونجحوا فى استرداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م ، فإن الدولة لم تنجح فى تجاوز تداعيات تلك المحنة . وفى مواجهة الأتراك العثمانيين وقفت بيزنطة عاجزة .

لقد تميز القرن الأخير من عمر بيزنطة بالاضمحلال والضعف واليأس حتى أصبحت دولة صغيرة وضعها خطير وأيامها معدودة . وكان من الطبيعى أن ينكمش جهازها الإدارى بنفس قدر تضاءل حجمها الإقليمى ، الذى لم يتجاوز فى النهاية سوى بضعة كيلو مترات مربعة حول القسطنطينية(٨٨). وكما تضاءلت مساحة بيزنطة تقلصت مواردها . وعندما تتم تغطية التزامات الدولة المالية عن طريق رهن حلى ومجوهرات التاج والتحف المطعمة بالذهب وأدوات المائدة الإمبراطورية فى بعض عواصم الغرب الأوروبى (٨٩)، فإن الموظف المسئول عن الشئون الخاصة بأسرة الإمبراطور والذى حمل لقب epi ton oikeiakon لابد أن يرتفع شأنه أكثر من أى رئيس إدارة مالية أخرى . وإذا طالعنا قائمة المدعو كودين - والتى ترجع إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى - فإننا ندرك حجم الانكماش الذى أصاب الإدارة الحكومية والذى تمثل فى اختفاء عدد من الألقاب الرسمية لمناصب إدارية مهمة . لقد سجل كودين حوالى واحد وثمانين لقبًا مدنيًا وكنسيًا ضمن قائمته ، وكانت فى معظمها ألقابًا شرفية بلا اختصاصات

وظيفية ، بل أن من بينها حوالى سبعة وعشرين لقبًا لا يعرف ماذا تعنى . أما ما تبقى من ألقاب الوظائف المدنية فقد أصبح قليلاً للغاية ، بيد أننا نطالع ألقابًا غريبة مثل لقب -ierak arios بمعنى مربى صقور الصيد الخاصة بالإمبراطور ، ولقب " مدير الصيد العظيم " وغيرها من الألقاب التى ترتبط بحياة القصر أكثر مما ترتبط بمسئوليات الحكومة (٩٠). إن الانطباع الذى يخرج به الباحث أن جهاز الحكومة بهيكله العام السابق وإداراته المألوفة لم تعد له قائمة، وأننا أمام ديكور متكلف لبلاط يحاول القائمون عليه التمسك بطقوس المراسم بادعاء رموز عظمة ماضٍ ولى وانقضى .

حواشى (٢)

١ - انظر دراسات كل من :

Ahrweiler, **La Frontiére**, pp. 209 - 230 ; Kaegi, **Two Studies**, pp. 87 - 113; Haldon, **Praetorians**, pp. 82-634 .

وانظر أيضًا رسالة طارق منصور محمد : **الجيش فى الإمبراطورية البيزنطية ، من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادى** (رسالة غير منشورة ، كلية الآداب - بنها ١٩٩٣) .

٢ - هناك مثلاً دراسات كل من : " بيورى " عن النظام الإدارى للإمبراطورية فى القرن التاسع الميلادى ، و"ترد جولد " عن الإدارة المالية فى الدولة البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع من الميلاد ، و " هولفيج " عن النظام الإدارى للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الأسرة الكومنينية ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 7-129; Hohlweg, **Beiträge**, pp. 1-159; Treadgold, **Finances**, pp. 1-143 .

٣ - بالنسبة للألقاب الرسمية والشرفية لدينا عدة دراسات من أهمها :

Guilland, **Recherches**, 2 vols. ; Guilland, **Titres**, pp. 1-307; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 21-363 .

٤ - Bury, **Admin. System**, p. 7 .

٥ - للمزيد عن حياة يوحنا الليدى والمناصب التى شغلها طوال الفترة الممتدة من سنة ٥١١م إلى سنة ٥٥١م، انظر : **Lydus**, pp. IX-XXVI; Tsirpanlis, **John Lydos**, pp. 479-87.

٦ - Bury, **Admin. System**, p. 8 .

٧ - انظر : **Taktikon Uspenskij**, pp. 109-29, and in : Oikonomidès, **Préséance**, pp. 47-63 .

٨ - Philotheos, **Kleterologion**, in : **De Caerim.**, II, pp. 702-98; Bury, **Admin. System**, pp. 131-79; and in : Oikonomidès, **Préséance**, pp. 81-235.

٩ - Benešević, **Ranglisten**, pp. 114-31; and in : Oikonomidès, **Préséance**, pp. 244-53 .

١٠ - انظر قائمة الإسكوريال فى : Oikonomidès, **Préséance**, pp. 255-77.

١١ - Bury, **Admin.System**, pp. 69 - 73; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 112, 319 - 21 .

١٢ - للمزيد عن منصب والى القسطنطينية Eparchos (= Praefectus Urbi) وأهميته واختصاصاته ، انظر :

Epanagoge, C. IV. 8-11; **De Caerim**, I, pp. 263-64; II, pp. 715-17; Jones, **LRE**, I, pp. 132, 375 and 509; Bréhier, **Institutions**, pp. 187-92; Guilland, **Recherches**, I, p. 5 .

وانظر أيضًا : وسام عبد العزيز فرج : «الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط» : حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت ، الحولية التاسعة ، الرسالة ٥٣ (١٩٨٧/١٩٨٨) ، ص ١٩ .

١٣ – Bury, **Admin. System**, p. 71; Oikonomidès, **Préséance**, p. 320 .

١٤ – للمزيد عن منصب أتريكلينس Atriklines ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 11-12, 126; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 27-29 .

١٥ – تضمن عنوان قائمة كلترولوجيون Kleterologion العبارة التالية :

" بيان دقيق لنظام المآدب الإمبراطورية طبقًا لترتيب تسمية وأهمية كل لقب ، أعدها فيلوثوس Philotheos استنادًا على ما ورد فى قوائم الأسبقية السابقة ..... " انظر :

Philotheos, **Kletorologion**, in : **De Caerim**, II, p. 702; Bury, **Admin. System**, p. 131; Oikonomidès, **Préséance**, p. 81 .

وقارن أيضًا ما جاء فى عنوان القائمة المعروفة باسم Taktikon Beneševic ، فى :

Beneševic, **Ranglisten**, p. 114; Oikonomidès, **Préséance**, p.243.

١٦ – انظر نصوص هذه المراسيم التى صدرت فى سنة ٣٧٢م فى :

Codex Theodosianus, VI.7, 1; VI. 9, 1; VI. 11, 1; VI. 14, 1; VI . 22 , 4 .

١٧ – انظر : **Codex Theodosianus**, VI. 5,2; VI. 35, 13; **Codex Justinianus**, Code XII. 8, 1. :

١٨ – انظر حاشية رقم (١٧) . وانظر أيضًا : . Oikonomidès, **Préséance**, p. 21

١٩ – **De Caerim.**, I, p. 3 .

٢٠ – **De Caerim.**, I, p. 4.

٢١ – **De Caerim.**, I, pp. 5, 516-17 .

وللمزيد عن نظام أسبقية شاغلى المناصب وحملة الألقاب فى العصر البيزنطى ، انظر :

Bréhier, **Institutions**, pp. 102 ff. ; Guilland, **Recherches**, I, pp. 23-31 .

٢٢ – Ensslin, **Government**, pp. 9-10; Boak, **Master of Offices**, p. 18; Ensslin, **Gottesgnadentum**, pp. 154-66 .

٢٣ – قارن : Dunlap, **Grand Chamberlain**, p. 179; Boak, **Master of Offices**, pp. 19-21 .

٢٤ – للمزيد عن الألقاب الرسمية المرتبطة بصلاحيات وظيفية والألقاب الشرفية ، انظر :

Guilland, **Collation**, pp. 24-69; Guilland, **Titres Nobiliaires**, pp. 137-43; Guilland, **Haute Époque**, pp. 255-66 .

٢٥ – انظر : Bury, **Admin. System**, pp. 90-93; Dölger, **Finanzverwaltung**, pp. 21-23, 60-65; Guilland, **Logothètes**, pp. 25-70; Miller, **Logothete of the Drome**, pp. 438-470.

٢٦ - Jones, LRE, I, p. 371 .

وللمزيد عن هذا المنصب وتطوره واختصاصاته انظر :

Lydus, pp. 91-119; Ensslin, **Praefectus Praetorio**, cols. 2391-2502 .

٢٧ - Boak, **Master of Offices**, p. 29; Seeck, **Untergang**, pp. 64-67, 83.

٢٨ - Boak, **Master of Offices**, pp. 29-30 .

٢٩ - Seeck, **Comites**, col. 632 .

٣٠ - توزعت القيادة العسكرية على المناصب الأربعة التالية :

- قائد فيالق الفرسان — Comes et magister equitum
- قائد فيالق المشاة — Comes et magister peditum
- قائد فرسان الحرس الإمبراطورى — Comes domesticorum equitum
- قائد مشاة الحرس الإمبراطورى — Comes domesticorum peditum

انظر : Boak, **Master of Offices**, p. 29 .

٣١ - يلاحظ أن الموظف المسئول عن المالية والخزانة العامة comes sacrarum largitionum كان يطلق عليه rationalis summae rei قبل عام ٣٥٠م . للمزيد عن اختصاصات ناظر المالية والخزانة العامة ، انظر : Jones, LRE, I, pp. 369-70, 427-37; Karayannopulos, **Finanzwesen**, pp. 54-60, 80-85.

أما ناظر الخزانة الخاصة comes rerum privatarum فكان مسئولاً عن العقارات والضياع الزراعية والرعوية المملوكة للتاج . للمزيد عن الاختصاصات الأخرى لناظر الخزانة الخاصة ، انظر :

Jones, LRE, I, pp. 370, 411-27; Karayannopulos, **Finanzwesen**, pp. 70-79 .

٣٢ - كانت وظيفة الكويستور المسئول عن التشريع فى البلاط الإمبراطورى comes et quaestor sacri palatii مهمة ومؤثرة فى حكومة الإمبراطور ، وكان شاغلها أشبه بالمستشار القانونى للإمبراطور . والمرجح أنها ظهرت لأول مرة فى القرن الرابع الميلادى فى عهد الإمبراطور قسطنطين . للمزيد عن هذه الوظيفة واختصاصاتها ، انظر :

Jones, **LRE**, I, pp. 368; Dunlap, **Grand Chamberlain**, p. 179; Bury, **Admin. System**, pp. 73-76; Wesener, **Quaestor Sacri Palatii**, cols. 820-27; Guilland, **Questeur**, 78-104.

٣٣ - انظر : Lydus, pp. 119-23; Jones, LRE, I, pp. 368-69; Boak, **Master of Offices**, pp. 24-126; Seeck, **Untergang**, pp. 70-103 .

٣٤ – للمزيد عن هذه الوظيفة وصلاحياتها ، انظر :

Dunlap, **Grand Chamberlain**, pp. 178-299; Bury, **Admin. System**, pp. 123-24; Jones, **LRE**, I, p. 127; II, pp. 567-70; Stein, **Bas- Empire**, I/1, p. 111; I/2, p. 470; II, p. 358, 425, 473, 599 .

ويعتقد البعض أن شاغل هذه الوظيفة كان فى القرن الثالث الميلادى مرؤوسًا لناظر القصر Castrensis sacri palatii قبل أن يستقل عنه فى القرن الرابع ، انظر :

Costa, **Castrensis Sacri Palatii**, pp. 358-87 .

٣٥ – ارتفع شأن هذه الوظيفة سنة ٤٢٢م ، وأصبح شاغلها متساويًا فى المرتبة مع شاغلى وظائف الدرجة الأولى مثل الوالى البرايتورى ووالى العاصمة وكبار القادة العسكريين ، انظر :

Jones, **LRE**, II, p. 569.

٣٦ – Jones, **LRE**, II, p. 527 .

٣٧ – انظر : Jones, **LRE**, II, pp. 523-62; Diehl, **Sénat**, pp. 201-213; Beck, **Senat und Volk**, pp. 3-75.

٣٨ – للمزيد عن لقب ماجستير magister (Μαγιστρος) وتطوره ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 29-33; Boak, **Master of Offices**, pp. 49-58, 118-26; Bréhier, **Institutions**, pp. 94-95, 120; Oikonomidès, **Préséance**, p. 294 .

٣٩ – Bury, **Admin. System**, pp. 32-33, 146; Boak, **Master of Offices**, pp. 118-19; Oikonomidès, **Préséance** , pp. 137, 294.

٤٠ – Ps. **Codinus**, p. 7 .

٤١ – للمزيد عن هذه الوظيفة ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 91-93; Dölger, **Finanzverwaltung**, pp. 22-23; Bréhier, **Institutions**, pp. 300-3, 328; Miller, **Logothete of the Drome**, pp. 438-70; Guilland, **Logothètes**, pp. 31-70; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 311-12 .

٤٢ – Diehl, **Logothéte ton Sekreton**, pp. 217-27; Ostrogorsky, **State**, pp. 368-69.

٤٣ – Bury, **Admin. System**, pp. 86-90; Dölger, **Finanzverwaltung**, pp. 19-21, 47-50; Guilland, **Logothètes**, pp. 11-24; Stein, **Untersuchungen**, pp. 33-34; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 313-14 .

٤٤ – للمزيد عن وظيفة لغثيث الأستراتيوتيكون ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 90-91; Dölger, **Finanzverwaltung**, pp. 21-22, 60; Ahrweiler, **Recherches**, pp. 10-12, 43; Guilland, **Logothètes**, pp. 25-31; Oikonomidès, **Préséance**, p. 314 .

٤٥ - Bury, **Admin. System**, pp. 95-97; Dölger, **Finanzverwaltung**, pp. 27-31; Ebersolt, **Vestiarium**, pp. 83-84; Bréhier, **Institutions**, p. 267; Oikonomidès, **Préséance**, p. 316 .

٤٦ - للمزيد عن هذا اللقب ، انظر :

Bury, **Admin. System**, p. 111; Dölger, **Finanzverwaltung**, p.24; Guilland, **Logothètes**, pp. 71-75; Oikonomidès, **Préséance**, p. 338 .

٤٧ - للمزيد عن هذا اللقب ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 98-100; Dölger, **Finanzverwaltung**, pp. 35-39, 161; Bréhier, **Institutions**, pp. 267-68; Guilland, **Logothètes**, pp. 85-100; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 316-17 .

٤٨ - للمزيد عن هذا اللقب ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 84-86; Dölger, **Finanzverwaltung**, pp. 16-19; Oikonomidès, **Préséance**, p 312 .

٤٩ - Dölger, **Finanzverwaltung**, p. 20 .

بينما يرى بعض المؤرخين أن لقب اللغثيث المسئول عن الإيرادات العامة استمر لقبًا رسميًا باختصاصات وظيفية بعد سنة ١٢٠٤م ولكن لفترة قصيرة من القرن الثالث عشر ، انظر :

Stein, **Untersuchungen**, p. 33; Verpeaux, **Cursus Honorum**, pp. 195-210; Ostrogorsky, **State**, p. 532, n.2.

٥٠ - قارن : **Ps. Codinus**, p. 34 .

٥١ - Ostrogorsky, **State**, p. 250 .

٥٢ - Bury, **Admin. System**, pp. 73-76 .

٥٣ - للمزيد عن لقب السكرتير الأول ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 97-98; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 310-11, 321; Dölger, **Diplomatik**, pp. 62-63 .

٥٤ - Dölger, **Diplomatik**, p. 50-53; Bury, **Admin. System**, p. 117; Oikonomidès, **Préséance**, p. 311 .

٥٥ - انظر حاشية رقم (٤٢) .

٥٦ - Guilland, **Recherches**, I, pp. 333-80; Oikonomidès, **Préséance**, p. 300 .

وانظر أيضًا الحاشيتين رقم (٣٤) ، ورقم (٣٥) .

٥٧ – للمزيد عن لقب براكوئومنوس ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 124-25; Dunlap, **Grand Chamberlain**, pp. 242-43; Guilland, **Recherches**, I, pp. 202-215, 269; Oikonomidès, **Préséance**, p. 305 .

٥٨ – ينسب المؤرخ البيزنطى نقفور جريجوراس هذا التطور إلى تأثير الإمبراطورة يولاند – أيرين مونتفرات Yolande- Irene of Montferrat الزوجة الثانية للإمبراطور أندرونيكوس الثانى باليولوج ، انظر :

Gregoras, I, pp. 233-34 .

٥٩ – للمزيد عن نظام حيازة الأرض المشروط المعروف بنظام البرونويا Pronoia ، انظر :

Hohlweg, **Pronoia in Byzanz**, pp. 288-308; Ostrogorsky, **Féodalité Byzantine**, pp. 20-75; Ostrogorsky, **Pronoia unter den Komnenen**, pp. 41-54; Ahrweiler, **Donations Conditionells**, pp. 103-114 .

٦٠ – انظر : Verpeaux, **Les Oikeoi**, pp. 89-99 .

٦١ – للمزيد عن ظاهرة التبعية الشخصية وجماعات الأتباع فى المجتمع البيزنطى ، انظر : وسام عبد العزيز فرج : " الأتباع والسادة : دراسة فى ظاهرة التبعية الشخصية فى العصر البيزنطى الأوسط " ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ (١٩٨٥) ، ص ٨٩ – ١٣٦ .

٦٢ – عن قسم الولاء للإمبراطور horkos Basilikos ، انظر :

Svoronos, **Serment de Fidélité**, pp.106-42 .

٦٣ – Beck, **Zentralverwaltung**, p. 17 .

٦٤ – Beck, **Zentralverwaltung**, p. 18 .

٦٥ – Procopius, **Bello Gothico**, VIII, pp. 16-20 .

٦٦ – **Theophanes**, I, 385; Haldon, **Praetorians**, p. 200 .

٦٧ – انظر :

Theoph. Cont., pp. 114-15; Ahrweiler, **Crète**, pp. 220-21; Ostrogorsky, **State**, p. 221 .

٦٨ – **Acropolites**, I, pp. 134-35 .

٦٩ – انظر : **Cantacuzenus**, I, p. 118; **Gregoras**, I, p. 301 .

٧٠ – انظر : **Theoph. Cont.**, pp. 354-56; **Leo Grammaticus**, p. 263 .

٧١ – **Cantacuzenus**, I, p. 339 .

٧٢ – انظر : **Sphrantzes**, p. 48 .

٧٣ - Patria, II, p. 230 .

٧٤ - Georg. Mon. Cont., p. 880 .

٧٥ - Liutprand, De Legatione, XV-XVIII, pp. 183-185 .

٧٦ - Attaleiates, pp. 12-13; Kedrenos, II, p. 510 . وانظر أيضًا : Scylitzes, pp. 395-96 .

٧٧ - Stein, Studien, p. 144; Jones, LRE, II, p. 602 .

٧٨ - Weiss, Beamte, pp. 48-50 .

٧٩ - Beck, Ministerpräsident, pp. 309-338 .

٨٠ - Beck, Ministerpräsident, pp. 312 - 15; Loenertz, Chancelier, pp. 275-300 .

٨١ - انظر : Verpeaux, Contribution, pp. 270-296 .

٨٢ - انظر حاشية رقم (٦١) .

٨٣ - للمزيد عن الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى وما طرأ عليها من تغيرات ، انظر : عائشة سعيد شحاتة أبو الجدايل : **الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) : دراسة فى التطورات والتغيرات** (الرياض ، ١٤١٥هـ) ، ص ١٦٩ - ٤٤٣ .

٨٤ - انظر : Dölger, Finanzverwaltung, pp. 16-19 .

٨٥ - انظر حاشية رقم (٤٤) .

٨٦ - عن نظام حيازة الأرض المشروط المعروف بنظام البرونويا Pronoia ، انظر حاشية رقم (٥٩) .

٨٧ - قارن : Lemerle, Terre Militaire, pp. 265-81; Ostrogorsky, Immunité à Byzance, pp. 165-254 .

٨٨ - للمزيد عن انكماش الجهاز الإدارى والألقاب الرسمية والشرفية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، انظر : Guilland, Recherches, I,pp. 594-607 .

٨٩ - Ostrogorsky, State, p. 526 .

٩٠ - Ps. Codinus, pp. 20-45 .

(٣)

الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس

(٨٨٦ - ٩١٢م)

الأبعاد الدينية والدلالة السياسية

تمهيد :

واجهت النهضة التى بدأها الإمبراطور باسيل الأول المقدونى (٨٦٧ - ٨٨٦م) اختباراً صعبًا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع الميلادى . فلم يكن عهد خلفه الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م) عهد استقرار فى الداخل أو انتصارات بارزة فى الخارج . لقد كانت حياته الخاصة مليئة بالهموم ، كما شهد عهده عدداً من الكوارث العسكرية فى البر والبحر خلال حروبه ضد البلغار والمسلمين . وزاد من تعقيد الموقف الخلاف العنيف بين الإمبراطور وكنيسة القسطنطينية بسبب إصراره على إنجاب وريث ذكر يتولى العرش من بعده، واضطراره للزواج للمرة الرابعة منتهكًا بذلك الأعراف والقوانين الكنسية والمدنية على حد سواء. لقد أدى النزاع بين القصر والكنيسة إلي القضاء على سلام قصير العمر داخل الكنيسة البيزنطية كما فتح الباب من جديد أمام تدخل كنيسة روما .

من الأفضل أن نعود إلى باسيل المقدونى . المعروف أنه قتل سيده الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٣ - ٨٦٧م) ، ونجح فى اعتلاء العرش فى ٢٣ من سبتمبر سنة ٨٦٧م ، وامتد حكمه حتى ٢٩ من أغسطس سنة ٨٨٦م مؤسسًا بذلك الأسرة المقدونية ، التى امتد حكمها

حتى سنة ١٠٥٦م والتى عاشت الإمبراطورية فى ظلها عصرها الذهبى . أنجب باسيل المقدونى أربعة أبناء : قسطنطين من زوجته الأولى قبل التحاقه بخدمة سيده الإمبراطور ميخائيل الثالث ، وثلاثة أبناء : ليو وإسكندر وستفن بعد زواجه من إيدوكيا إنجرينا Eudocia Ingerina ، محظية الإمبراطور السابق ميخائيل الثالث . ومن أجل ضمان تعاقب الأبناء من بعده واستمرار حكم أسرته ، قام الإمبراطور باسيل بتتويج ثلاثة من أبنائه أباطرة مشاركين ، ففى ٦ من يناير سنة ٨٦٩م توج ابنه الأكبر والمفضل قسطنطين ، وبعد ذلك بعام توج ابنه الثانى ليو ، وفى سنة ٨٧٩م تم تتويج ابنه الثالث إسكندر [١]. أما ستفن أصغر الأبناء فقد اختار له مساراً آخر بالانخراط فى سلك رجال الدين وقدر له أن يشغل بعد ذلك منصب بطريرك كنيسة القسطنطينية كما سيتضح فيما بعد . على أية حال ، لم يقدر للابن الأكبر قسطنطين أن يتولى العرش إذ توفى فى حياة أبيه مفسحًا المجال أمام ليو الذى اعتلى العرش فى ٣٠ من أغسطس سنة ٨٨٦م ، وهو فى العشرين من عمره تقريبًا ، باسم ليو السادس وعرف بالعاقل أو الفيلسوف [٢].

عندما توفى الإمبراطور باسيل المقدونى ، كان الانقسام فى الكنيسة البيزنطية ، بين المتشددين من أنصار البطريرك السابق إجناتيوس Ignatios والمعتدلين من أنصار البطريرك فوتيوس Photios ، لا يزال قائمًا . ورغم قيام الإمبراطور ليو السادس فى بداية عهده بعزل فوتيوس ، فإن تعيين أخيه الأصغر ستفن بطريركًا لكنيسة القسطنطينية فى ديسمبر سنة ٨٨٦م لم يؤد إلى استرضاء الحزب المتشدد الذى رفض قبول البطريرك الجديد ، الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، لأن فوتيوس هو الذى رسمه شماساً [٣]. ورغم اختلاف المؤرخين فى أسباب عزل البطريرك القوى فوتيوس للمرة الثانية فمن المرجح أن ليو السادس عزله ليفسح الطريق أمام تعيين أخيه الأصغر ستفن على رأس الكنيسة البيزنطية لتكتمل بذلك سيطرة الإمبراطور على شئون الكنيسة والدولة معًا [٤]. ولكن البطريرك ستفن لم يعمر طويلاً ، إذ توفى فى مايو سنة ٨٩٣م ، وفى أغسطس من نفس العام اعتلى أنطون الثانى كاولياس Anthony II Kauleas عرش بطريركية القسطنطينية . ويبدو أن البطريرك الجديد كان مقبولاً من الأطراف المتنازعة داخل الكنيسة ، فبفضل مساعيه الحميدة فضلاً عن مساعى الإمبراطور تمت المصالحة أخيراً بين المتشددين والمعتدلين فى الكنيسة البيزنطية ، وباركتها

البابوية حوالى سنة ٩٠٠م[٥]. وهكذا عندما اعتلى البطريرك نيقولا مستيكوس Nicholas Mysticos عرش بطريركية القسطنطينية سنة ٩٠١م ، عقب وفاة كاوليـاس ، كـان السلام يسود ربوع الكنيسة البيزنطية .

عاش نيقولا مستيكوس الجزء الأكبر من حياته خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، أى خلال فترة الانقسام والخلاف فى الكنيسة البيزنطية . فقد ولد فى سنة ٨٥٢م ، وتروى المصادر أنه كـان من أصل إيطالى ، كمـا كـان يمت بصلة قرابة للبطريرك الشهير فوتيوس[٦]. ويبدو أن ارتباطه به كان كبيراً فهو يشير فى إحدى رسائله إلى أن فوتيوس كان أبًا روحيًا له [٧]. ومن المرجح أن فوتيوس بعد اعتلائه عرش بطريركية القسطنطينية للمرة الثانية سنة ٨٧٧م ، عقب وفاة اجناتيوس ، قد أصبح أيضًا أبًا روحيًا لأبناء الإمبراطور باسيل الأول (وخاصة لابنه الأوسط ليو) [٨]. ومن خلال أبوة فوتيوس الروحية لكل من نيقولا وليو ارتبط الاثنان بأخوة روحية أشارت إليها المصادر [٩]. كما كان فوتيوس معلمًا لهما . فقد عهد باسيل الأول لفوتيوس منذ سنة ٨٧٥م تقريبًا بتعليم أولاده ، ولما كان نيقولا تلميذاً لفوتيوس ، فقد تعرف على الأسرة الإمبراطورية وأقام علاقة طيبة بالابن الثانى ليو . ومن خلال تدريس فوتيوس لهما أصبحا أيضًا زميلى دراسة رغم فارق السن بينهما [١٠]. وأثبتت الأحداث أن هذه الصلة المبكرة بين نيقولا وليو (الذى ارتقى العرش بعد ذلك باسم الإمبراطور ليو السادس) كانت السبب فى صعود نجم نيقولا فيما بعد .

لا تذكر المصادر شيئًا عن الوظائف الى شغلها نيقولا خلال بطريركية فوتيوس الثانية (٨٧٧ - ٨٨٦م) . على أية حال ، أثار العزل المفاجىء للبطريرك فوتيوس فى سبتمبر ٨٨٦م، وما أعقبه من حركة تطهير واضطهاد بين أنصاره وأصدقائه وأقاربه فزع نيقولا ، فلجأ إلى دير القديس تريفون St. Tryphon فى خلقدونية حيث اتخذ حياة الرهبنة [١١]. ولكن فترة اعتزاله الاختيارية فى الدير لم تستمر طويلاً ، فقد استدعاه الإمبراطور ليو السادس فى صيف ٨٨٨م وقام بتعيينه سكرتيراً خاصًا له وأسبغ عليه اللقب الرسمى الدال على تلك الوظيفة ، مستيكوس Mysticos ، وهو لقب لازم اسمه حتى نهاية حياته [١٢]. وكان التعاون والثقة المتبادلة بين الإمبراطور وسكرتيره الخاص مفيدة بالنسبة للأخير . فعندما توفى البطريرك أنطون الثانى كاولياس فى ١٢ من فبراير سنة ٩٠١م ، حرص الإمبراطور على أن يتولى نيقولا مستيكوس عرش بطريركية القسطنطينية فى أول مارس من نفس العام[١٣].

لاشك فى أن نيقولا كان يتمتع بعدة مواهب أهلته بجدارة لشغل هذا المنصب الرفيع على رأس الكنيسة البيزنطية . لقد نال بفضل انتمائه لدائرة فوتيوس الثقافية أفضل تعليم معروف فى ذلك الوقت ، فكان رجلاً مثقفًا وخطيبًا مفوهًا ، كما تكشف مراسلاته الواسعة عن سعة علمه ومهارته فى الفنون والآداب وخاصة البلاغة . لقد أجمع معظم معاصريه على امتداح حكمته وفضائل أخلاقه وتمسكه الشديد بتعاليم الكنيسة [١٤].

لعب نيقولا مستيكوس دوراً رئيسيًا فى النزاع بين الكنيسة والقصر حول قضية الزواج الرابع Tetragamy للإمبراطور ليو العاقل . وقبل أن نتناول هذه القضية بالبحث ودوره فيها ، فمن الأفضل أن نبدأ ببيان مفهوم الزواج وموقف كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما من مشروعية تكراره .

الزواج فى بيزنطة وموقف الكنيسة من مشروعية تكراره :

كان الزواج فى القانون الرومانى عبارة عن تعاقد بين رجل وامرأة أساسه الاتفاق فإذا وقع الاتفاق انعقد الزواج ، سواء تبع ذلك الاحتفالات المعتادة أم لا [١٥]. وكانت قراءة بنود العقد تتم يوم الزواج ، ويتم التوقيع عليه من قبل طرفيه ثم الشهود [١٦]. كذلك كان وقوع الاختلاف يعد أساس إلغاء التعاقد وحدوث الطلاق . وكان فسخ عقد الزواج شأنًا خاصًا وفى إمكان أى طرف من طرفيه أن يفعل ذلك متى شاء دون إبداء السبب [١٧]. وبطبيعة الحال ، كانت وفاة أحد الزوجين تعنى أن عقد الزواج أصبح لاغيًا . وهكذا كان الطلاق والزواج مرة أخرى أو أكثر من الظواهر الشائعة فى العصر الرومانى [١٨].

ثم جاءت المسيحية بصورة مثالية للزواج . إذ اعتبرته ارتباطًا ومشاركة روحية لا انفصام لها . فلا يملك الإنسان ، من الناحية النظرية ، أن يفسخ تلك العلاقة لأن إرادة الله كانت متوافقة مع إرادة الرجل والمرأة عند انعقاد طقس الزواج .. ولقد شبه القديس بولس ارتباط الزوج بزوجه بذلك الارتباط القائم بين السيد المسيح - عليه السلام - والكنيسة . وعلى هذا فالزواج ارتباط مقدس لأنه تقرر بمشيئة الله ومباركته ، كما أنه ارتباط دائم لا انفصام له لأنه مقدس [١٩]. ولما كان الغرض الأساسى للزواج فى مفهوم الكنيسة البيزنطية تحقيق التكامل الروحى والمعنوى لطرفيه ، فلا انفصام لهذا الارتباط حتى لو قضى الموت على أحد طرفيه ، لأنهما كيان واحد فى الأرض وفى السماء . أما كنيسة روما فقد اختلف مفهومها لأبدية العلاقة الزوجية ، إذ كانت ترى أن رباط الزواج المقدس دائم لا انفصام له طالما استمر طرفاه

على قيد الحياة فقط [٢٠]. وعلى أساس هذا التصور المثالى للزواج قامت الكنيسة بإصدار عدد من القوانين الكنسية فى سعيها لتوضيح وتنظيم الزواج [٢١].

أما الدولة البيزنطية - التى ورثت القانون الرومانى فضلاً عن العديد من النظم والتقاليد الرومانية - فقد نظرت إلى الزواج كعقد ، ولم يقم أباطرة العصر البيزنطى الباكر بإلغاء الطلاق. فالإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٦ - ٣٣٧م) أباح الطلاق فى حالات معينة مثل الخيانة الزوجية وارتكاب جريمة القتل [٢٢]. كذلك أباحت تشريعات الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ - ٥٦٥م) الطلاق فى حالات الخيانة الزوجية وجرائم القتل والوقوع فى الأسر وازدراء المقدسات واختيار حياة الرهبنة ... إلخ [٢٣]. وكان جستنيان أول من اعترف بالعجز كسبب كاف للطلاق لأن عدم الأهلية يمنع اكتمال الزواج [٢٤]. ولا شك فى أن الكنيسة البيزنطية كان لها تأثير كبير فى تقييد تشريعات الطلاق سابقة الذكر ، إذ نجحت مثلاً فى تحريم الطلاق بالاتفاق المشترك كما ورد فى تشريعات جستنيان [٢٥]. وعلى أية حال ، بسبب طبيعة العلاقة الخاصة بين الدولة والكنيسة فى بيزنطة ، ولأن الكنيسة جزء من الدولة وتخضع لتوجهاتها ، كانت القوانين التى تتناول السلوك العام والقوانين ذات الطابع الدينى التى تصدرها الحكومة البيزنطية ملزمة للكنيسة [٢٦]. ورغم أن الكنيسة البيزنطية التزمت بتشريعات الدولة التى أباحت الطلاق فى حالات معينة ، فإن هذا الالتزام كان مناقضًا لمبادئها ، وظل الارتباط الأبدى للزوجين هو الزواج المثالى فى نظرها [٢٧].

نظرت الكنيسة البيزنطية إلى الحالات التى أباحت فيها القوانين المدنية الطلاق كحالات تطلبت التسامح والرحمة بسبب الضعف الإنسانى على اعتبار أن الغرض من تلك القوانين هو تجنب شرور لاحقة . لقد اعتبرتها استثناءات لا تلغى القوانين الكنيسة [٢٨]. ويخطىء من يظن أن الكنيسة البيزنطية كانت تمنع الطلاق . فالطلاق كان من شئون القانون المدنى ولم يكن للكنيسة أى ارتباط مباشر به إلا عندما تثار مسألة الزواج مرة أخرى [٢٩]. وكان مناسبًا أن تهتم الكنيسة بتكرار الزواج بشكل أكبر من اهتمامها بالطلاق ، لأنه عند تكرار الزواج تثار مسألة قدسية الزواج الأول وعدم انقطاعه .

ظل الزواج الأول فى نظر الكنيسة البيزنطية هو الرباط المقدس والعلاقة المثالية وكان كل زواج بعده مكروهًا بغض النظر عن الأسباب التى أدت إلى انفصام عرى الزواج الأول . وجدير بالذكر أنه لايوجد فى الكتاب المقدس أى حكم للسيد المسيح - عليه السلام - بالنسبة للزواج

للمرة الثانية ، ومن هنا جاء الاعتقاد بأنه لم يكن محرمًا(٣٠). ولكن القديس بولس أوضح المسألة عندما أجاز للأرامل فى حالات الضرورة الزواج مرة ثانية ، وأصبح حكمه القاعدة التى تستند عليها الكنيسة (٣١). ورغم أن الكنيسة لم تحبذ أى زواج بعد الأول إلا أنها نظرت إلى الزواج الثانى نظرة تسامح وعفو وكبديل أفضل من ارتكاب الخطيئة .

ولما كان الزواج للمرة الثانية يعد تعبيراً عن الافتقار إلى ضبط النفس ، فقد فرضت الكنيسة البيزنطية الحرمان على كل من يتزوج مرة ثانية (٣٢). . وكانت العقوبة تعنى حرمان من ينالها من طقوس الكنيسة وخاصة من القداس الدينى . وكان الحرمان فى هذه الحالة يستهدف تهذيب النفس والتكفير عن ذنب العجز عن كبح جماح الشهوات بقضاء بعض الوقت فى صلاة وصوم قبل العودة إلى رحمة الكنيسة . وإذا كان القديس باسيل St . Basil قد اعتبر الزواج الثانى عزاء عن ارتكاب الخطيئة ، فقد حدد فترة الحرمان بسنة واحدة . وأصبح حكمه بعد ذلك تقليداً متبعًا فى الكنيسة البيزنطية (٣٣). وعلى خلاف الزواج الأول تميز طقس الزواج الثانى بترديد عبارات التوبة وطلب العفو والرحمة (٣٤).

وبطبيعة الحال كان موقف الكنيسة البيزنطية من الزواج الثالث أكثر صرامة . وسواء كان الطلاق أو كانت الوفاة هى التى أنهت الزواج الثانى فقد نظرت الكنيسة إلى الزواج الثالث باحتقار . فالقديس باسيل St. Basil اعتبره مشينًا ومخالفًا للقوانين الكنسية ولكنه لم يصدر حكمًا بتحريمه لأنه أفضل من ارتكاب الخطيئة ، وحدد فترة الحرمان لكل من يتزوج للمرة الثالثة بخمس سنوات (٣٥). وكان طقس الزواج الثالث فى البداية مبتوراً لا يتمتع صاحبه بالتتويج أو المباركة المعتادة . ولكن بصدور القانون رقم (٨٩) للإمبراطور ليو السادس والذى ينص على أن شرعية الزواج أصبحت تستلزم مباركة الكنيسة تغير الموقف . وأصبحت الكنيسة مطالبة بمباركة الزواج الثانى والزواج الثالث لإكسابهما الشرعية . فاضطرت إلى ابتكار طقس مستقل وقصير لهما تتم فيه المباركة والتتويج (٣٦). وهكذا سمحت الكنيسة البيزنطية بالزواج الثانى بل وتسامحت فى الزواج الثالث فى إطار مفهومها للتسامح والرحمة. ويجب النظر إلى هذا التسامح على أنه الاستثناء وليس القاعدة . وكان كل زواج بعد الزواج الثالث محرمًا ولا يمكن لعقوبة الحرمان ، مهما كانت مدتها أن تجعل مثل هذا الزواج معترفًا به .

يبدو أن الزواج الرابع لم يرد على الكنيسة فى البداية . فحتى بداية القرن العاشر الميلادى لم يوجد قانون كنسى واضح متفق عليه ينص على تحريمه (٣٧). فلم تكن هناك حاجة لمثل هذا القانون لأن أحداً لم يقم حتى ذلك الوقت بارتكاب تلك المخالفة . وعلى عكس ذلك نجد أن القوانين المدنية التى أصدرتها الدولة قد أشارت إلى الزواج الرابع ونصت على تحريمه . وكان جستنيان هو الإمبراطور الوحيد الذى اعترف فى أحد قوانينه الأولى بالزواج الرابع (٣٨). ولكن عندما تطرق إلى مسألة تكرار مرات الزواج فى قوانينه التالية لم يذكر - ربما بتأثير من الكنيسة - سوى الزواج الثانى والثالث دون الإشارة إلى الزواج الرابع (٣٩). بالنسبة لمجموعة الإكلوجا Ecloga التى أصدرها الإمبراطور ليو الثالث الإيسورى Leo III (٧١٧-٧٤١م) فى سنة ٧٢٦م ، فإنها تتضمن نصوصًا خاصة بالزواج الثانى فقط ، وأغفلت الإشارة إلى الزواج الثالث (٤٠). أما الإمبراطورة إيرين Irene (٧٩٧ - ٨٠٢م) فقد أكدت هذا الاتجاه بإقرار تشريعات الإكلوجا Ecloga واعتبار كل زواج بعد الزواج الثانى أمراً غير أخلاقى ، وأعلنت فى قانونها رقم (٢٨) الصادر حوالى سنة ٨٠٠م تحريم الزواج الثالث وكل زواج تال على أساس أنها أمور غريبة على المسيحية (٤١). وتتميز تشريعات مؤسس الأسرة المقدونية بأنها كانت متفقة مع موقف الكنيسة من الزواج وتسامحها المحدود فى حالة تكراره . فقد اعترف الإمبراطور باسيل الأول فى تشريعاته بالزواج الثالث واعتبره قانونيًا بشرط تنفيذ فترة الحرمان المقررة فى القانون الكنسى ، ولكنه رفض الاعتراف بالزواج الرابع وأنكر شرعية أطفاله (٤٢). كذلك أيد الإمبراطور ليو السادس هذا الاتجاه بقوة فى قانونه المعروف رقم (٩٠) . ففى بدايته يذكر ليو السادس كيف خلق الله الإنسان وميزه على الحيوان بنعمة العقل، ثم يمتدح عالم الحيوان ، لأن كثيراً من فصائل الحيوانات ترفض الارتباط بشريك ثان بعد وفاة الشريك الأول . ويمضى قائلاً إن طبيعة البشر جعلت القانون يسمح بزواج ثان ويتسامح فى زواج ثالث ، إلا أن معظم من أقدموا على زواج ثالث تجاهلوا فترة الحرمان المقررة . ونتيجة لذلك يقرر الإمبراطور فى نهاية قانونه ، أن كل من يعقد زواجًا ثالثًا يجب أن يخضع لحكم قوانين الكنيسة . ويلاحظ أن ليو السادس تناول فى هذا القانون الزواج الثالث بازدراء ، أما الزواج الرابع فقد أنكره تمامًا (٤٣).

يتضح مما سبق أن القوانين المدنية للدولة البيزنطية كانت حتى بداية عهد الإمبراطور ليو السادس تؤيد وتؤكد قوانين الكنيسة الخاصة بالزواج والتسامح المحدود فى حالة تكراره .

فعدد مرات الزواج المسموح بها بسبب الطلاق أو الوفاة محدد بثلاث ، أما الزواج الرابع فكان محرمًا تمامًا . ومن المفارقات الغريبة أن الإمبراطور ليو السادس نفسه كان أول من خالف قانونه سابق الذكر كما سيتضح بعد قليل .

والآن من الأفضل أن نتعرف على وجهة نظر كنيسة روما من مسألة تكرار الزواج لكى نتفهم بوضوح موقف البابوية من القضية موضوع هذه الدراسة . اختلف الغرب الأوروبى عن الشرق البيزنطى فى تصوره للغرض الأساسى من الزواج وديمومة ارتباط الزوجية . فالغرض الرئيسى من الزواج فى الغرب الأوروبى هو تناسل الجنس البشرى (٤٤). ومنذ البداية تأثرت الكنيسة الغربية بالقانون الرومانى فى نظرته للزواج كتعاقد . وأدرج القانون الكنسى فى الغرب الزواج ضمن العقود التى تتم بموافقة طرفيها على الارتباط (٤٥). وعلى هذا أصبح الزواج المسيحى فى الغرب الأوروبى تعاقداً وطقساً مقدسًا يكون فيه القس شاهداً على اتفاق طرفيه (٤٦). والزواج كتعاقد يتطلب الانعقاد والتصديق ويتم هذا باكتماله المادى . وما أن يكتمل الزواج يصبح ارتباطًا لا انفصام له إلا فى حالة الوفاة . فوفاة أحد طرفيه تعنى انهيار الارتباط تمامًا ، ويصبح من حق الأرمل أو الأرملة الزواج مرة أخرى (٤٧). وفى ضوء هذا المفهوم يصبح تكرار الزواج بسبب الوفاة بلا حدود . وهكذا يتضح اختلاف وجهتى نظر كنيستى القسطنطينية وروما بالنسبة لعدد مرات الزواج المسموح بها .

الزيجات الأربع للإمبراطور ليو السادس :

بعد وفاة ابنه الأكبر قسطنطين سنة ٨٧٩م ، حرص الإمبراطور باسيل الأول على إعداد ابنه الثانى ليو لخلافته ، وتزويجه لضمان استمرار حكم الأسرة المقدونية من بعده . ووقع الاختيار على فتاة تدعى ثيوفانو Theophano كانت تمت بصلة قرابة للإمبراطورة الأم إيدوكيا الجرينا Eudocia Ingerina ، لتكون زوجة لليو (٤٨). ويبدو أن الاختيار لم يرض ليو ، الذى كان على علاقة بفتاة أخرى تدعى زوى Zoe ابنة ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes مستشار أبيه ، ولكنه اضطر إلى الزواج خوفًا من أبيه (٤٩). وتم الزواج فى احتفال كبير فى شتاء سنة ٨٨١ / ٨٨٢م على الأرجح (٥٠). ويبدو أن علاقة ليو بزوى Zoe استمرت بعد زواجه وعلمت بها زوجته فأسرعت تخبر أباه . ويصف ليو بنفسه كيف كان رد فعل أبيه قاسيًا ، فقد رفض أن يسمع دفاعه عن نفسه وانهال عليه بالضرب المبرح حتى سالت دماؤه .

ولم يكتف باسيل الأول بذلك بل قام بتزويج زوى رغم إرادتها لأحد رجاله على أمل حسم هذه المشكلة نهائيًا [٥١].

استقرت حياة ليو وزوجته ثيوفانو وانتظمت طوال السنوات المتبقية من عمر باسيل الأول . وأثمر هذا الزواج الأول لليو مولد طفلته الأولى إيدوكيا Eudocia حول سنة ٨٨٢م [٥٢]. وكانت وفاة الإمبراطور باسيل الأول سنة ٨٨٦م إيذانًا بتحرر ليو ، الذى أطلق العنان لرغباته فور أن اعتلى العرش . فأصبحت زوى محط الاهتمام الأول للإمبراطور بينما انزوت ثيوفانو فى جنبات القصر بلا نصير . ويروى صاحب سيرة ثيوفانو كيف أن الإمبراطورة الفاضلة كرست حياتها لحب الله وخلاص الروح وعمل الخير [٥٣]. بينما يذكر صاحب سيرة إيثيميوس Eu-thymius أن حزن الإمبراطورة الشابة تضاعف بوفاة طفلتها الوحيدة إيدوكيا فى شتاء سنة ٨٩٢م ، وأنها استدعت إيثيميوس Euthymius وأخبرته برغبتها فى منح الإمبراطور ليو السادس الطلاق والالتحاق بأحد الأديرة [٥٤]. وبالفعل التحقت الإمبراطورة بدير العذراء فى ضاحية بلاخرن Blachernae شمال العاصمة حيث عاشت فى عزلة حتى وفاتها فى نوفمبر سنة ٨٩٦م[٥٥]. وبعد وفاتها ببضع سنوات قررت الكنيسة البيزنطية اعتبارها قديسة لعفتها وتقواها وبسبب المعجزات المنسوبة إليها [٥٦].

وبوفاتها أصبح فى إمكان الإمبراطور أن يتزوج مرة ثانية . وكانت العقبة الوحيدة أمام زواجه من عشيقته زوى زاوتزس Zoe Zautzes ، زوجها ثيودور جوزنياتس Theodore Gouzouniatis إلا أنه توفى بعد ثيوفانو بفترة قصيرة . ولقد أثار توقيت وفاته المفاجىء فى أعقاب وفاة الإمبراطورة الشابة الكثير من الشكوك وتهامس الناس بأن زوى كانت مسئولة عن وفاتهما [٥٧]. ويروى صاحب سيرة إيثيميوس Euthymius كيف استدعى الإمبراطور الراهب إيثيميوس وأخبره بعزمه على الزواج من زوى ، إلا أن الراهب التقى اعترض على هذا المشروع بسبب الشرور المنسوبة لزوى ، ونصح الإمبراطور باختيار زوجة أخرى . ولكن الإمبراطور أصر على موقفه وأمر بنفى إيثيميوس إلى دير القديس ديومدس St. Diomedes حيث عاش هناك عامين ، أى طوال عهد الإمبراطورة زوى [٥٨].

لا تشير المصادر بوضوح إلى تاريخ الزواج الثانى للإمبراطور ليو السادس من زوى زاوتزس، ومن المحتمل أن يكون هذا الزواج قد انعقد فى أوائل سنة ٨٩٨م[٥٩]. وباعتلائها العرش بلغ والدها ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes قمة نفوذه فى الحكومة والقصر

وأنعم عليه الإمبراطور بلقب والد الإمبراطور Basileopator [٦٠]. ولكن هذا المجد لم يدم طويلاً فقد توفى ستيليانوس فى صيف سنة ٨٩٩م ، كما توفيت ابنته زوى بعده بستة أشهر فى شتاء سنة ٨٩٩ / ٩٠٠م أثر مرض عضال وكان حزن الإمبراطور عليها كبيراً [٦١].ويبدو أن ليو السادس كان قد أنجب ، قبل زواجه رسميًا من زوى ، طفلته الثانية أنّا Anna . وبعد وفاة زوى تم تتويج الأميرة إمبراطورة Augusta لتشغل ، بشكل مؤقت ، مقعد الإمبراطورة إلى جانب ليو السادس حسب قواعد البرتوكول المتبعة فى مآدب واحتفالات القصر الإمبراطورى ، ولحين زواج الإمبراطور للمرة الثالثة . ولما كانت أنّا Anna مخطوبة للملك الكارولنجى لويس الثالث Lewis III ملك بروفانس Provence ، فقد سافرت إلى الغرب لتتزوجه فى سنة ٩٠١م ، ولكنها توفيت بعد ذلك حوالى سنة ٩٠٣م [٦٢].

لم يمض وقت طويل قبل أن يتورط ليو السادس فى زواج جديد ، كى ينجب ولداً ويحافظ على استمرار حكم الأسرة المقدونية . إن معلوماتنا عن الزواج الثالث قليلة للغاية ، فالحوليات البيزنطية تروى أن الإمبراطور تزوج للمرة الثالثة من فتاة جميلة تدعى إيدوكيا بايانا Eudo-cia Baiana من ثيم الأوبسيق Opsikion فى آسيا الصغرى بعد عيد الفصح سنة ٩٠٠م[٦٣]. وأوضح البطريرك نيقولا مستيكوس فى رسالته إلى البابا أناستاسيوس الثالث Anastasius ، بعد ذلك بسنوات ، أن قوانين الكنيسة البيزنطية لا تحرم الزواج الثالث بشكل قاطع بل تتسامح فيه لظروف . ويرر تسامح الكنيسة ، فى حالة ليو السادس ، على أساس حاجة المراسم وقواعد البروتوكول الرسمية المتبعة فى مآدب واحتفالات القصر إلى إمبراطورة ، بعد أن تقرر سفر الأميرة أنّا Anna إلى الغرب الأوروبى لتتزوج من ملك بروفانس [٦٤]. وبهذا الزواج استنفد الإمبراطور عدد مرات الزواج التى تتسامح فيها استنفد قوانين الكنيسة والدولة وعلى رأسها القانون رقم (٩٠) الذى أصدره بنفسه ونص على ضرورة الالتزام بفترة الحرمان المنصوص عليها فى القانون الكنسى [٦٥].

وجدير بالذكر أن الإمبراطور ليو السادس لم يكن أول إمبراطور يتورط فى أكثر من زواج فى الدولة البيزنطية ، فقد سبق للإمبراطور هرقل Heraclios (٦١٠ - ٦٤١م) أن تزوج مرتين ، وكذلك فعل الإمبراطور قسطنطين السادس Constantine VI (٧٨٠ - ٧٩٧م) وأثار انقسامًا فى الكنيسة البيزنطية [٦٦]. كما سبق للإمبراطور قسطنطين الخامس Con-stantine V (٧٤١ - ٧٧٥م) أن عقد زواجًا ثالثًا سنة ٧٦٩م بزواجه من إيدوكيا مليسينا

Eudocia Melissina (٦٧). وبالإضافة إلى ذلك أرسى هذا الإمبراطور سابقة هامة عندما جعل الكنيسة تبارك زواجه رسميًا (٦٨). ولا تبين المصادر ما إذا كان ليو السادس قد أحيا هذه السابقة أم لا .

ولازم سوء الحظ الإمبراطور ليو السادس فلم يعمر زواجه الثالث طويلاً بل كان أقصر عمراً من زواجه الثانى إذ توفيت الزوجة الثالثة بعد عام واحد أثناء ولادة طفلها الوحيد يوم عيد الفصح الموافق ١٢ من أبريل سنة ٩٠١م ، واكتملت أحزان الإمبراطور بوفاة الطفل الوليد أيضًا (٦٩). وبوفاتهما تعقد الموقف ، وبدأ الإمبراطور ينشغل من جديد بمستقبل الأسرة المقدونية التى توقف استمرار حكمها عليه وحده لأن أخاه اسكندر Alexander لم ينجب أطفالاً ، وأصبحت مسألة إنجاب ولى العهد شغله الشاغل . وكان من الطبيعى أن يسرع ليو السادس بإقامة علاقة جديدة . ووقعت عيناه هذه المرة على فتاة جميلة تدعى زوى أيضًا وتلقب كاربونوبسينا Carbonopsina كانت تنتمى إلى الطبقة العليا فى مجتمع القسطنطينية وتميزت بالطموح والدهاء (٧٠). كذلك كانت زوى الثانية تمت بصلة قرابة لعدة شخصيات مرموقة ومعروفة فى التاريخ البيزنطى ، مثل المؤرخ ثيوفانس Theophanes(٧١)، والأدميرال هيمريوس Himerios قائد الأسطول البيزنطى (٧٢)، وليو خويروسفاكتس Leo Choirosphactes الدبلوماسى القدير فى ذلك الوقت (٧٣).

ويلاحظ أن أول إشارة وردت فى المصادر لزوى الثانية ، كان فى معرض تناولها محاولة الاغتيال التى تعرض لها الإمبراطور ليو السادس فى ١١ من مايو سنة ٩٠٣م فى كنيسة القديس موكيوس St. Mocios (٧٤). وعلى هذا يمكن إرجاع بداية علاقة الإمبراطور بها قبل مايو سنة ٩٠٣م ، ومن المحتمل أن تكون قد بدأت فى سنة ٩٠٢م . وفى صيف سنة ٩٠٤م ، كانت زوى الثانية مقيمة بالفعل فى القصر الإمبراطورى بشكل دائم كمحظية للإمبراطور(٧٥). وكان ليو السادس بهذا يخالف قانونه رقم (٩١) الذى حرم فيه اتخاذ محظيات لما فى ذلك من مخالفة للعقيدة وطبيعة العلاقات بين البشر (٧٦).

وتحقق أخيراً حلم ليو السادس عندما وضعت زوى الثانية فى الفترة ما بين مايو - وسبتمبر سنة ٩٠٥م فى الغرفة الأرجوانية بالقصر طفلاً ذكراً ، أصبح بعد ذلك الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyrogenitos (٧٧). ولكن إذا

كان الحلم قد تحقق فإن بوادر أزمة عنيفة أخذت تتبلور . لقد أراد الإمبراطور منح طفله وولى عهده الشرعية الضرورية ، إلا أن سعيه فى هذا السبيل أدى إلى احتدام الخلاف بينه وبين بطريرك القسطنطينية فضلاً عن عودة الانقسام إلى الكنيسة البيزنطية مرة أخرى .

لاشك أن تعميد الأمير الصغير كان يمثل خطوة رئيسية فى سبيل إضفاء الشرعية عليه . فطقس العماد يعنى الميلاد المسيحى للطفل كما يرمز إلى الانتساب إلى عضوية الكنيسة ، وفيه يكتسب الطفل اسمه الأول . ويبدو أن البطريرك نيقولا مستيكوس كان راغبًا فى تعميد الطفل ، ربما لأنه كرجل دين لم يكن فى وسعه أن يحرم طفلاً من طقس العماد بسبب خطيئة أبويه . ولكن العناصر المتشددة من رجال الكنيسة اعترضت على تعميده على أساس أنه تنازل يتضمن الموافقة على العلاقة المحرمة بين ليو السادس وزوى الثانية . وكان التيار المتشدد فى الكنيسة البيزنطية يضم فى معظمه تلك العناصر التى كانت مؤيدة لاتجاهات البطريرك السابق إجناتيوس Ignatios قبل عودة السلام إلى الكنيسة البيزنطية ، كما انضم إليه بعض أنصار البطريرك السابق فوتيوس Photios . وكان من أقطاب هذا التيار المعارض أرثاس Arethas رئيس أساقفة قيصرية Caesarea (٧٨).

حرص البطريرك نيقولا مستيكوس فى البداية على تجنب انقسام جديد فى الكنيسة البيزنطية أو صدام لاداعى له مع القصر وأخذ يسعى من أجل التوصل إلى حل وسط . فتم تكليف أرثاس Arethas فى أواخر سنة ٩٠٥م بالسفر إلى اليونان لتفقد شئون كنائسها والنظر فى مشاكلها ، وهى مهمة امتدت لعدة شهور فى سنة ٩٠٦م(٧٩). وأثناء غيابه وافق معظم رجال الدين على تعميد الأمير الصغير شريطة أن يتعهد الإمبراطور بصرف النظر تمامًا عن التفكير فى الزواج للمرة الرابعة ، وأن ينفصل عن زوى الثانية (٨٠). وفى البداية قبل الإمبراطور هذه التسوية وتعهد الالتزام بها . وبرحيل زوى ، أقيمت مراسم طقس العماد فى احتفال ضخم فى كنيسة الحكمة المقدسة St. Sophia فى ٦ من يناير سنة ٩٠٦م ، وقام البطريرك نيقولا مستيكوس بتعميد الأمير الصغير بنفسه وأطلق عليه اسم قسطنطين . ووقفت ثلاث شخصيات معروفة لتؤدى دور الأب الروحى للطفل قسطنطين حسب التقاليد المتبعة : الإمبراطور المشارك اسكندر عم قسطنطين ، والراهب إيثيميوس Euthymius أب الاعتراف للإمبراطور ليو السادس ، وساموناس Samonas أحد كبار موظفى القصر وأوسعهم نفوذًا فى ذلك الوقت (٨١).

لم يلتزم ليو السادس بالتسوية وحنث بوعده ، ففى ٩ من يناير سنة ٩٠٦م - أى بعد مرور ثلاثة أيام على تعميد قسطنطين - أمر الإمبراطور بعودة زوى إلى القصر لتقيم معه (٨٢). وكان ليو السادس يعلم بالطبع أن الزواج من زوى فيه تأكيد لشرعية ابنه وولى عهده وضمان لمستقبله ، ولكن السبل المتاحة أمامه كانت محدودة . فالقانون رقم (٨٩) الذى أصدره بنفسه كان ينص على أن شرعية الزواج أصبحت تستلزم مباركة الكنيسة (٨٣). لقد صدر هذا القانون مثل بقية قوانينه المتعلقة بمسائل الزواج فى السنوات التى سبقت زواجه الثانى سنة ٨٩٨م . وبصدوره اكتسبت الكنيسة مسئولية كبرى فى تأكيد شرعية الزواج . على أية حال ، اتخذ ليو السادس الخطوة الجريئة فى النهاية ، واستطاع أن يجد قسًا مغموراً يدعى توماس Thomas وافق على عقد زواج رابع للإمبراطور على زوى كاربونوبسينا Zoe Carbonopsi-na ثم قام ليو بنفسه بتتويجها إمبراطورة (٨٤). وبزواجه للمرة الرابعة - وهو ما لم يحدث من قبل - يكون ليو السادس قد تحدى الكنيسة وخالف العرف والقانون وحاول أن يمنح الشرعية لعلاقة غير شرعية من أجل تأكيد شرعية ابن غير شرعى . واضطر البطريرك نيقولا مستيكوس أن يصدر ضده قرار الحرمان من رحمة الكنيسة (٨٥).

الأزمة داخل الكنيسة البيزنطية وحقيقة موقف نيقولا مستيكوس :

إذا تابعنا الأحداث كما رواها البطريرك نيقولا مستيكوس فقط ، فإن قضية الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ستبدو بسيطة وواضحة : لقد عارض البطريرك الزواج الرابع للإمبراطور من البداية وبشكل متصل ، وفى النهاية تم نفيه وعزله من منصبه (٨٦). كان هذا التصور سائداً قبل نشر سيرة إيثيميوس Vita Euthymii وكتابات أرثاس Arethas ، فهذان المصدران يقدمان صورة مختلفة لموقف نيقولا من القضية ودوره فيها ومن الأفضل أن نتوقف عندهما قليلاً .

بالنسبة لأرثاس Arethas ، رئيس أساقفة قيصرية وأحد أعداء نيقولا مستيكوس ، فمعلوماتنا عنه قليلة ومصدرها ما كتبه بنفسه من خطب ورسائل فضلاً عما ورد فى سيرة إيثيميوس . وتعتبر كتاباته رواية معاصر وشاهد عيان للقضية موضوع هذه الدراسة (٨٧). وإذا صدقنا الاتهامات التى وجهها أرثاس فى رسائله ضد نيقولا مستيكوس ، فإن الأخير كان متردداً بل ومتناقضًا فى موقفه من الزواج الرابع للإمبراطور . ولكن يجب أن نتذكر أن أرثاس تميز بسوء الظن وبقلب يضمر الحقد والبغضاء . لقد كان من نفس عمر نيقولا وتتلمذ

مثله على يد البطريرك فوتيوس ، وجمعتهما فى مناصرة فوتيوس والانتماء للتيار المعتدل فى الكنيسة البيزنطية صداقة قوية استمرت حتى سنة ٩٠١م [٨٨]. وفى نفس العام أصبح أرثاس المتحدث الرسمى للقصر الإمبراطورى ، وفى أواخر سنة ٩٠٢م أصبح رئيسًا لأساقفة قيصرية (فى ثيم قبدوقيا Cappadocia) ، وبحكم مركزه هذا وعضويته فى المجمع الدائم لبطريركية القسطنطينية كان يقضى معظم الوقت فى العاصمة البيزنطية [٨٩]. وفى حفل تنصيب نيقولا مستيكوس بطريركًا فى أول مارس سنة ٩٠١م امتدح أرثاس فى خطبة رسمية موجهة للإمبراطور ليو السادس ، الفضائل والخصال الحميدة التى يتميز بها صديقه نيقولا[٩٠]. ولكن هذه الصداقة لم تعمر طويلاً ، إذ أخذت الوحشة بين الرجلين تنمو تدريجيًا ، وبعد بضعة سنوات أصبح أرثاس من ألد أعداء نيقولا مستيكوس . ويبدو أن أسباب هذا التحول ترجع جذورها إلى سنة ٩٠٠م ، عندما قام عدد من رجال الدين المتشددين (من أنصار البطريرك اجناتيوس Ignatios) بتوجيه تهمة الخروج على المسيحية لأرثاس . وبالفعل تم تقديمه إلى محكمة كنسية انعقدت فى كنيسة الحكمة المقدسة ، وجاء الحكم فى النهاية بتبرئته من التهمة المنسوبة إليه . وعندما اعتلى نيقولا مستيكوس عرش البطريركية ، توقع أرثاس من صديقه أن ينتقم له من أولئك الذين حاولوا الإضرار به والإساءة لسمعته ، ولكن البطريرك الجديد لم يفعل شيئًا من هذا القبيل حرصًا منه على وحدة الكنيسة البيزنطية[٩١]. واعتبر أرثاس هذا الموقف السلبى من جانب نيقولا مستيكوس خيانة للصداقة التى ربطت بينهما . وبعد أربع سنوات ، حانت له الفرصة كى ينتقم من نيقولا بالانضمام إلى التيار المتشدد داخل الكنيسة البيزنطية (أعداء الأمس) . وكان هذا التيار قد تبلور من جديد فى معارضة شديدة للزواج الرابع للإمبراطور ورفض لكل أشكال الحلول الوسط [٩٢].

على أية حال ، بعد عودته من مهمته فى اليونان ، أثار أرثاس Arethas موجة اعتراض عارمة ، وكتب عدة رسائل إلى الإمبراطور ليو السادس وجه فيها اللوم له على زواجه للمرة الرابعة ومخالفة قوانين الكنيسة والدولة ، وذكره فيها بأهمية منصبه الإمبراطورى وضرورة أن يكون قدوة لهذه الأمة . لقد اتهمه بالانتهازية وتفسير أقوال آباء الكنيسة على هواه ، وطالبه بكبح جماح رغباته ، واحترام قوانينه ، ووضع حد لهذه العلاقة المحرمة بالانفصال عن زوى الثانية حتى يمكن استقباله من جديد فى الكنيسة [٩٣]. كما هاجم أرثاس بعنف البطريرك نيقولا مستيكوس ، لأنه فى سعيه من أجل إرضاء الإمبراطور ، حاول أن يجعل

الكنيسة تتسامح وتعترف بشكل استثنائى بزواج محرم . وسخر أرثاس من ادعاء نيقولا مستيكوس الحرص على وحدة الكنيسة البيزنطية وشبهه بالطبيب الفاسد وكلب الحراسة العاجز(٩٤). وهكذا يتضح من رسائل أرثاس أن نيقولا مستيكوس لم يعارض الزواج الرابع للإمبراطور من البداية إلى النهاية كما ادعى بعد ذلك فى رسالته إلى البابا أناستاسيوس الثالث Anastasius III ، بل سعى ربما معظم الوقت من أجل إقناع رجال الكنيسة بالتسامح والاعتراف بهذا الزواج .

أما سيرة إيثيميوس Vita Euthymii ، التى كتبها مجهول بين عامى ٩٢٠ - ٩٢٥م ، فتتناول حياة الراهب إيثيميوس ، الذى خلف نيقولا مستيكوس على عرش بطريركية القسطنطينية سنة ٩٠٧م . وكان إيثيميوس من أنصار البطريرك السابق إجناتيوس Ignatios وأحد أقطاب التيار المتشدد المعارض للزواج الرابع للإمبراطور . وتعتبر هذه السيرة أقدم مصدر معاصر لعهد الإمبراطور ليو السادس كما تقدم رواية شاهد عيان للأحداث التى تتناولها (٩٥). ويؤكد صاحب سيرة إيثيميوس فى روايته على الموقف المتناقض للبطريرك نيقولا مستيكوس فى الأزمة التى فجرها الزواج الرابع لليو السادس . ففى البداية عارض البطريرك إقامة زوى الثانية غير المشروعة فى القصر وتفكير الإمبراطور المبكر فى الزواج منها ، ولكن هذه المعارضة انتهت قبل مولد قسطنطين سنة ٩٠٥م . ويبرر صاحب السيرة هذا التحول على أساس تورط البطريرك فى تمرد أندرونيكوس دوقاس Andronicus Dukas وافتضاح أمره ، فحاول اكتساب ود الإمبراطور بالاستجابة لكل رغباته بما فى ذلك تعميد قسطنطين بنفسه ، والتسامح فى زواجه الرابع ثم عدل عن ذلك فى النهاية ورفض استقباله فى الكنيسة (٩٦). وفى ضوء ما ورد فى كتابات أرثاس وسيرة إيثيميوس ورسائل البطريرك نيقولا مستيكوس فضلاً عما تضمنته المصادر الأخرى ، يمكن ترتيب الأحداث على النحو التالى :

أدى زواج الإمبراطور ليو السادس للمرة الرابعة سنة ٩٠٦م إلى تفجر أزمة عنيفة بين الكنيسة والقصر . فهذه الخطوة الجريئة من جانب الإمبراطور أثارت العناصر المتشددة ولم ترض العناصر المعتدلة داخل الكنيسة البيزنطية . ولم يكن فى وسع نيقولا كبطريرك لكنيسة القسطنطينية سوى إصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور . وكان الإمبراطور من جانبه يعلم تماماً أنها عقوبة لا مفر من صدورها ضده ، ولكنه كان يعلق الآمال على البطريرك فى استصدار

قرار استثنائى من الكنيسة باعتبار فعله حالة خاصة يمكن التسامح فيها وبالتالى الاعتراف بزواجه الرابع (٩٧). وبالفعل حاول نيقولا مستيكوس الاستجابة لذلك فى بداية الأمر . وبغض النظر عن تفسير صاحب سيرة إيثيميوس لهذه الاستجابة (٩٨)، فإننا نعتقد أن نيقولا ربما حاول مساعدة الإمبراطور لأسباب أخرى أيضًا . لقد كان صديقًا لليو السادس ، كما كان من أقطاب التيار المعتدل داخل الكنيسة والمعروف بتأييده التقليدى للقصر ، وربما سعى لتجنب شر أكبر ، إذ تروى إحدى الحوليات البيزنطية أن الإمبراطور فكر فى إصدار قانون جديد ينص على إباحة الزواج للمرة الرابعة (٩٩).

وكان السماح للإمبراطور ببدء فترة تكفير عن ذنبه وتحديدها هى الخطوة الأولى فى تسامح الكنيسة ، ويتضمن هذا دخوله الكنيسة صحبة البطريرك حتى حدود المذبح فقط (١٠٠). وطبقًا لرواية صاحب سيرة إيثيميوس ، كان البطريرك مستعداً لإصدار تسامح استثنائى على مسئوليته ، كما عرض على ليو السادس فى مناسبتين اصطحابه إلى داخل الكنيسة ، كانت الأولى فى أول مايو سنة ٩٠٦م (بعد الزواج مباشرة) والثانية فى ٦ من أغسطس من نفس العام (١٠١). ومن المرجع غياب أرثاس Acrthas عن العاصمة فى المناسبة الأولى على الأقل وربما فكر نيقولا مستيكوس فى انتهاز تلك الفرصة المواتية واصطحاب الإمبراطور إلى الكنيسة ووضع المعارضة أمام الأمر الواقع . ولكن الإمبراطور تردد لأنه كان يفكر فى الأمر بصورة مختلفة ، لقد أراد اعترافًا شرعيًا بزواج لا يتطرق إليه الشك من أجل تأمين مستقبل ابنه الصغير قسطنطين . وبطبيعة الحال لا يتحقق هذا إلا بصدور قرار استثنائى بإجماع أعضاء المجمع الكنسى لبطريركية القسطنطينية . ولم يكن الإجماع متوفراً وإن كانت أغلبية رجال الكنيسة تؤيد مساعى البطريرك الإيجابية (١٠٢).

ومن جدير بالذكر أن هناك نقطة خلاف جوهرية بين المعتدلين والمتشددين فى مسألة السماح للإمبراطور ببدء فترة تكفير عن ذنبه . فعندما عرض البطريرك نيقولا مستيكوس على الإمبراطور اصطحابه إلى الكنيسة لم يشترط انفصاله عن زوجته وكان هذا تسامحًا يتضمن الاعتراف بزواجه . وعلى العكس من ذلك اشترط أرثاس وأنصاره ضرورة انفصال الإمبراطور عن زوجته حتى يمكن استقباله فى الكنيسة وفى هذا عدم اعتراف بزواجه (١٠٣).

وكان أرثاس قد أخذ يقود معارضة مؤثرة داخل الكنيسة رفضت كل أشكال الحلول الوسط ومحاولات الإقناع من جانب البطريرك أو الإمبراطور . لقد تضمنت رسائل أسقف قيصرية

التى كتبها بين مايو سنة ٩٠٦م ومارس سنة ٩٠٧م الحجج التى تستند إليها المعارضة وقراءتها الصحيحة لقوانين الكنيسة ، فضلاً عن تفنيد ادعاءات نيقولا مستيكوس وأنصاره ، وشجب محاولات إرضاء السلطة [١٠٤]. ومع نمو قوة المعارضة ازداد قلق البطريرك الذى كان يخشى انقسام الكنيسة . ورغم ذلك استمرت وعود استقبال الإمبراطور فى الكنيسة بعد التغلب على المعارضة .

يبدو أن العاصفة التى أثارتها المعارضة جعلت الإمبراطور ليو السادس يطلب من البابوية وبطريركيات المشرق التدخل للنظر فى أمر زواجه الرابع ، وذلك بعقد مجمع دينى لحسم القضية وتجنب انقسام الكنيسة البيزنطية [١٠٥]. وكان اللجوء إلى البابوية مناورة جيدة ، لأنها سترضى المتشددين الذين سبق لهم الاعتماد على كنيسة روما فى صراعهم ضد البطريرك السابق فوتيوس Photios من ناحية ، كما كان من المتوقع أن يكون موقف البابوية إيجابيًا من الطلب الإمبراطورى لسعادتها بالتدخل من جديد فى شئون كنيسة القسطنطينية من ناحية أخرى [١٠٦]. وتختلف المصادر فى بيان حقيقة موقف نيقولا مستيكوس من اللجوء إلى البابوية وبطريركيات المشرق . فالبطريرك يدعى أنه هو الذى اقترح هذه الخطوة ، وأنه نصح الإمبراطور بالانفصال عن زوى Zoe لحين حضور ممثلى البابوية وبطريركيات المشرق وحتى يتخذ المجمع الدينى المزمع انعقاده قراراً فى أمر زواجه ، ولكن ليو السادس رفض الانفصال عن زوجته غير الشرعية [١٠٧]. أما صاحب سيرة إيثيميوس فيروى أن نيقولا مستيكوس كان لا يرى ضرورة للجوء إلى البابوية وبطريركيات المشرق معلنًا أنه سوف يستقبل الإمبراطور فى الكنيسة دون مساعدة من الخارج [١٠٨]. هذه الرواية الأخيرة تبدو معقولة لأن نيقولا ، كأحد أقطاب التيار المعتدل (الذى ناصر فوتيوس) وعلى رأس الكنيسة البيزنطية ، كان لا يرغب فى رؤية البابوية تتدخل من جديد فى شئون كنيسته [١٠٩].

كان موقف نيقولا مستيكوس بلا شك دقيقًا . لقد وجد نفسه ممزقًا بين رغبات القصر وضغط المعارضة داخل الكنيسة ، وكان يريد إرضاء الإمبراطور وتجنب تدخل كنيسة روما ، ولكنه كان يخشى حدوث انقسام جديد فى الكنيسة البيزنطية . وإذا كان قد عرض على ليو السادس فى مناسبتين اصطحابه إلى الكنيسة ، فإن الإمبراطور تردد بسبب المعارضة ، وفضل الانتظار حتى يتعرف على موقف البابوية وبطريركيات المشرق . وللمرة الثالثة أعلن البطريرك استعداده لاصطحاب الإمبراطور إلى الكنيسة فى مناسبة عيد الميلاد فى ٢٥ من ديسمبر سنة

٩٠٦م ، لتجنب تدخل البابوية وعلى أمل التغلب على عناد المعارضة . ولكن هذه المرة كان نيقولا مستيكوس يقدم وعداً لن يستطيع الوفاء به دون حدوث انقسام فى الكنيسة . فقد ازدادت المعارضة قوة ، وفشلت كل محاولات الترغيب والترهيب من جانب البطريرك والإمبراطور (١١٠). وعندما حل عيد الميلاد سنة ٩٠٦م قرر الإمبراطور قبول دعوة البطريرك بدخول الكنيسة بعد أن تأكد من إيجابية موقف البابوية وبطريركيات المشرق وعلم أن مندوبيها فى طريقهم إلى القسطنطينية .

وعلى غير المتوقع ، عندما توجه ليو السادس وحاشيته إلى كنيسة الحكمة المقدسة اضطر البطريرك إلى منع دخوله ، ووعد باستقباله فى الكنيسة بعد اثنى عشر يومًا فى مناسبة عيد العماد Epiphany . واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب من أمام المدخل الرئيسى للكنيسة والتوجه من باب جانبى إلى غرفة الاستراحة وتغيير الملابس المخصصة للأباطرة والتى تسمى mitatorion حيث تابع القراءة من الكتاب المقدس ثم اضطر إلى مغادرة المكان قبل بداية قداس عيد الميلاد بسبب قرار الحرمان الصادر ضده (١١١). وفى مناسبة عيد العماد Epiph-any الموافق ٦ من يناير سنة ٩٠٧م توجه ليو السادس فى صحبة أعضاء السناتو إلى المدخل الرئيسى لكنيسة الحكمة المقدسة ، ومرة أخرى فشل البطريرك فى استمالة المعارضة ولم يتمكن بالتالى من الوفاء بوعده وتحقيق رغبة الإمبراطور . وتكرر مشهد منع الإمبراطور من دخول الكنيسة واضطراره للانسحاب إلى غرفة الاستراحة mitatorion حيث ظل هناك حتى انتهاء القراءة من الكتاب المقدس ليغادر المكان قبل بداية قداس عيد العماد Epipha-ny (١١٢).

وجدير بالذكر ، أن سيرة إيثيميوس Vita Euthymii ، التى تتخذ موقفًا معاديًا من نيقولا مستيكوس ، تقدم تفسيراً لتغير موقفه من الإمبراطور فى الفترة مابين أغسطس وديسمبر سنة ٩٠٦م ، إذ تروى أن ليو السادس ذكر لبعض معاونيه أنه ينوى ، بعد أن يتم استقباله فى الكنيسة والاعتراف بزواجه ، عزل نيقولا مستيكوس من منصبه بتهمة الخيانة العظمى لتورطه فى تمرد القائد اندرونيكوس دوقاس Andronicus Dukas . ولما علم البطريرك بنوايا الإمبراطور ، غير سياسته على الفور وتحول من تأييد الإمبراطور والسعى من أجل التسامح فى زواجه الرابع إلى معارضته ورفض الاعتراف بزواجه ، كما حث الأساقفة الموالين له على فعل الشيء نفسه (١١٣). ولهذا السبب منع نيقولا مستيكوس الإمبراطور من

دخول الكنيسة فى عيد الميلاد الموافق ٢٥ من ديسمبر ٩٠٦م ، ومرة أخرى فى عيد العماد الموافق ٦ من يناير سنة ٩٠٧م .

على أية حال ، يبدو أن هذه الرواية تفتقر إلى الصحة فى ضوء ما جاء فى وثيقة معاصرة هامة لا يتطرق إليها الشك (١١٤). إنها رسالة موجهة لأرثاس Arethas ، كتبها له تلميذه وصديقه الراهب نيكتاس البافلاجونى Nicetas Paphlagonos بعد عيد الميلاد سنة ٩٠٦م ببضعة أيام . وتروى الرسالة أنه فى ليلة عيد الميلاد سنة ٩٠٦م ، دعا نيقولا مستيكوس الراهب نيكتاس إلى مقر البطريركية ، حيث استقبله بحضور أحد أقرباء نيكتاس المعروفين بولاتهم للقصر ، وقدم له عشاء فاخراً رفض الراهب أن يتناوله . وحاول البطريرك بعد ذلك استمالة نيكتاس وحثه على إقناع أرثاس بالتخلى عن معارضته لزواج الإمبراطور ، ولكن الراهب رفض بشدة ، ولم يجد معه الوعد ولا الوعيد (١١٥).

وهكذا يتضح أن نيقولا مستيكوس اتبع معظم الوقت سياسة موالية للقصر ، وكان بالفعل لايزال يحاول جاهداً التغلب على المعارضة داخل الكنيسة حتى يوم عيد الميلاد سنة ٩٠٦م . وربما استمرت هذه الجهود دون نجاح حتى يوم عيد العماد Epiphany فى ٦ من يناير سنة ٩٠٧م ، حين أدرك نيقولا أنه لا أمل فى التغلب على المعارضة داخل الكنيسة ، وأعلن أنه لن يستطيع تحقيق رغبة الإمبراطور بدون موافقة جميع الأساقفة (١١٦). وكان استقبال الإمبراطور فى الكنيسة رغم أنف المعارضة يعنى انقسام الكنيسة البيزنطية ، وهو أمر كان نيقولا مستيكوس حريصًا غاية الحرص على تجنبه مهما كان الثمن . وأمام عناد المعارضة وإصرارها على التمسك بقوانين الكنيسة والدولة وعدم التسامح فى زواج غير شرعى من ناحية ، وإصرار الإمبراطور على التمسك بزوجته وعدم الانفصال عنها من ناحية أخرى ، لم يكن أمام البطريرك سوى الانضمام إلى المعارضة فى آخر الأمر (١١٧).

عزل نيقولا مستيكوس وبطريركية إيثيميوس :

أدى قيام نيقولا مستيكوس بمنع الإمبراطور على الملأ من دخول كنيسة الحكمة المقدسة فى ٢٥ من ديسمبر سنة ٩٠٦م ، ومرة أخرى فى ٦ من يناير سنة ٩٠٧م إلى إحراج الإمبراطور ووضع الكنيسة فى مواجهة حادة مع القصر . ولكن ليو السادس أبدى فى المناسبتين قدراً طيبًا من الصبر وضبط النفس . وبعد انتهاء قداس عيد العماد فى ٦ من يناير سنة ٩٠٧م ، دعا الإمبراطور البطريرك والأساقفة إلى الوليمة المعتادة فى تلك المناسبة فى القصر (١١٨).

واعتذر عن عدم حضورها اثنان من أقطاب المعارضة هما أرثاس Arethas وإبيفانيوس Epi-phanios . وفى البداية حاول نيقولا الاعتذار عن عدم الحضور أيضًا فقام الإمبراطور بدعوته مرة أخرى، فاضطر للحضور بحكم منصبه وبصحبته الأساقفة (١١٩). واستغل ليو السادس هذه المناسبة لطرح قضيته ، فبعد الانتهاء من الطعام وجه حديثه أمام جميع الحضور إلى البطريرك معاتبًا ، وعدد المرات التى وعده فيها بالاستقبال فى الكنيسة ، وكيف أحرجه برفضه . وذكر الإمبراطور للحضور كيف كان نيقولا ودوداً تجاه زوى كاربونوبسينا Zoe Car-bonopsina خلال فترة حملها عندما كان يحضر ويتناول طعام الغداء معها فى القصر ، ويربت عليها مباركًا جنينها ، وكيف أمر سبعة قساوسة بالانقطاع عدة أيام فى كنيسة الحكمة المقدسة للصلاة والدعاء لها (خلال فترة الحمل) ، ثم جاء بعد ذلك يبشر بأن الجنين سيكون طفلاً ذكراً (١٢٠). وكان جواب نيقولا مستيكوس على ذلك ، أنه لم يعلم فى ذلك الوقت أن الأساقفة سيعترضون على سياسة التسامح التى كان ينتهجها بهذا الحزم والقوة . وأنه لا يستطيع تجاهل اعتراضهم والتصرف بغير موافقتهم خوفًا من شرخ وحدة الكنيسة (١٢١). وهنا يبدو نيقولا صادقًا فى حرصه على سلام الكنيسة ووحدتها . وبعد هذا الحوار أمر ليو السادس بإحضار طفله قسطنطين وحمله بين يديه والدموع فى عينيه ، وقال للأساقفة إن كل ما يطمع فيه هو دخول الكنيسة حتى حدود المذبح كى يبدأ فترة تكفير عن ذنبه . ويقول صاحب سيرة إيثيميوس أن بعض الأساقفة تأثروا من الموقف ومالوا للاستجابة لطلبه (١٢٢). على أية حال ، بعد انتهاء الاحتفال وعودة الأساقفة إلى البطريركية ، اجتمع بهم نيقولا مستيكوس وطلب منهم الثبات على الموقف ، وعدم الاستسلام لرغبات الإمبراطور والمقاومة حتى الموت ، وعدم الاستقالة من كراسيهم الأسقفية مهما كانت الظروف ، وأن يلتزموا بقوانين الكنيسة ، ثم جعلهم يقسمون على ذلك ويؤكدون التعهد بالتضامن معه كتابة (١٢٣). وبهذا يتأكد تحول نيقولا مستيكوس وانضمامه إلى معسكر المعارضة بعد أن وصلت علاقته بالإمبراطور إلى طريق مسدود .

وقعت المواجهة التالية بين الإمبراطور والبطريرك فى يوم عيد القديس تريفون St. Try-phon فى أول فبراير سنة ٩٠٧م ، حين أقام ليو السادس المأدبة الرسمية المعتادة فى تلك المناسبة فى القصر ، ودعا البطريرك والأساقفة إليها (١٢٤). وبعد الانتهاء من الطعام انتقد الإمبراطور تصرفات نيقولا مستيكوس بحدة ، فاستعرض أمام الحاضرين اتفاقه معه ووعود استقباله فى الكنيسة ، ووصفها بأنها « اتفاقات فارغة » و « وعود كاذبة » (١٢٥). واتهمه

بالتحايل وإهانة المقام الإمبراطورى . وفى إجابته كرر البطريرك القول بأنه كان على استعداد للتسامح فى زواجه واستقباله فى الكنيسة إذا وافق جميع الأساقفة . وواصل الإمبراطور هجومه على نيقولا فأشار إلى تواطئه مع القائد اندرونيكوس دوقاس وتآمره معه ضد العرش، ثم التفت إلى الأساقفة الحضور وأعلن رسميًا إحالة قضية زواجه الرابع إلى المجمع المقدس الذى يمثل كل الكنائس والذى سينعقد بمجرد وصول ممثلى البطريركيات الأخرى إلى العاصمة البيزنطية (١٢٦). وكان ليو السادس على ثقة من إيجابية القرار الذى سيصدر عن هذا المجمع، فقد علم أن مندوبى البابوية وبطريركيات المشرق عبروا حدود الدولة البيزنطية وأنهم يقتربون من القسطنطينية ومعهم ردود إيجابية (١٢٧).

ولم يشأ الإمبراطور إطالة أيام نيقولا مستيكوس على عرش البطريركية ، ففى نفس اليوم الأول من فبراير سنة ٩٠٧م ، تم القبض عليه وعلى من ناصره من الأساقفة ونفيهم بعد أن رفضوا الموافقة على دخول الإمبراطور الكنيسة فى اليوم التالى الموافق ٢ من فبراير سنة ٩٠٧م(١٢٨). وربما كان غرض ليو السادس من هذا الإجراء إبعاد نيقولا مستيكوس عن المجمع المقدس المزمع انعقاده كإجراء احتياطى (١٢٩). وهكذا تم القبض على نيقولا حيث وضع فى قارب صغير ونقل عبر البوسفور إلى هيريا Hieria ، من ضواحى خلقدونية Chalcedon ، ثم اقتيد سيراً على الأقدام وسط انهمار الثلوج إلى دير جالاكرنس Gala-crenes الذى كان نيقولا قد أعاد تشييده (١٣٠).

وبطبيعة الحال ، كان الإمبراطور بحاجة إلى تبرير واضح لعزل البطريرك ، فقام باستدعاء تسع شخصيات ، من عائلات مرموقة من بينهم اثنان من كبار القادة العسكريين ، ممن هجروا معسكر القائد الثائر اندرونيكوس دوقاس ، إلى جلسة استماع حضرها عدد من الأساقفة المعتدلين . وفى تلك الجلسة شهد الرجال التسعة بتواطىء نيقولا مستيكوس مع الثائر ، وأكدوا صحة الرسالة التى كتبها نيقولا له (١٣١). وعندما طالب الإمبراطور بعقد محاكمة عاجلة لنيقولا ، رد الأساقفة على الفور بأنه قد عزل بالفعل من منصبه ولا يجوز توقيع عقوبتين على نفس الشخص لنفس التهمة (١٣٢).

وفى الخامس من فبراير سنة ٩٠٧م ، أرسل الإمبراطور إلى نيقولا مستيكوس يطلب استقالته ، فتردد الأخير وادعى المرض . فأرسل له الإمبراطور مرة أخرى رسالة مع ساموناس Samonas الذى اصطحب معه بعض الأساقفة المعتدلين (١٣٣). وخاطب الإمبراطور فى

رسالته هذه نيقولا بدون ألقاب وطالبه بتقديم استقالته فوراً ، وهدده - فى حالة الرفض - بإبراز رسالته إلى القائد المتمرد اندرونيكوس دوقاس وتقديمه إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . فقام نيقولا بإخراج ورقة استقالته وعرضها على الأساقفة مؤكداً أنه كتبها ووقعها بنفسه(١٣٤). ويلاحظ أن سيرة إيثيميوس Vita Euthymii حرصت على تصوير الأساقفة الذين جاءوا مع مبعوث الإمبراطور وكأنهم يجهلون فحوى رسالة الإمبراطور أو الغرض من المهمة ، ولهذا فهم لا يوافقون على استقالة نيقولا ويحاولون إقناعه بالعدول عنها ، ولكنه أصر على موقفه وسلمها لساموناس (١٣٥). وأوضح نيقولا فى استقالته أنه تنحى عن منصب البطريرك ، دون الانسحاب من السلك الكنسى ، لأنه عجز عن إصدار تسامح لصالح ليو السادس (١٣٦). وتروى سيرة إيثيميوس أيضًا أن نيقولا كتب استقالة ثانية بعد ذلك بمبادرة شخصية من جانبه وأرسلها للإمبراطور ، وفيها كرر القول بعجزه عن إصدار التسامح الذى وعد به الإمبراطور بسبب الاختلاف حول هذا الأمر فى الكنيسة ، وأنه تنحى عن عرش البطريركية ، مع الاحتفاظ بمركزه كأسقف ، ليتيح الفرصة أمام زميل آخر تسوية القضية(١٣٧).

أشارت سيرة إيثيميوس فى أكثر من موضع إلى تورط نيقولا مستيكوس فى تمرد القائد أندرونيكوس دوقاس . وكان تورطه هذا ورقة استغلها الإمبراطور للضغط عليه كما كانت مبرراً للتخلص منه . ومن الأفضل أن نتوقف قليلاً أمام تمرد هذا القائد لنناقش حقيقة تورط البطريرك . وتجدر الإشارة إلى أن المراحل المختلفة لتمرد هذا القائد وما ارتبطت به من أحداث كما جاءت فى المصادر البيزنطية تبدو مضطربة بسبب عدم استقامة التسلسل الزمنى للأحداث، ولهذا يجب توخى الحذر (١٣٨).

كانت أسرة دوقاس Doukai من الأسر المرموقة التى تنتمى لطبقة الأرستقراطية العسكرية، التى امتلكت مساحات ضخمة من الأراضى الزراعية والرعوية فى ثيمات آسيا الصغرى ، واحتكر العديد من أبنائها مناصب القيادة العسكرية وتميزوا فى القتال ضد المسلمين . ومنذ القرن التاسع وحتى القرن الحادى عشر الميلادى ، شكلت هذه الطبقة خطراً دائمًا على الحكومة المركزية بسبب تطلع أبنائها لاغتصاب العرش والتاج (١٣٩). ويبدو أن القائد اندرونيكوس دوقاس ، قد تآمر فى سنة ٩٠٣م ، مع إيستاثيوس أرجيروس Eustathi-os Argyros وعدد آخر من كبار القادة العسكريين ، ضد الإمبراطور ليو السادس (١٤٠).

وإذا كـان سـامـوناس Samonas - الموظف المسئول عن جهاز الأمن السرى والمقرب من الإمبراطور - قد نجح فى كشف هذه المؤامرة فى سنة ٩٠٤م ، فإن ليو السادس لم يتخذ أى إجراء ضد أندرونيكوس الذى ظل يتولى القيادة العسكرية فى منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية حتى سنة ٩٠٥م(١٤١). ولكن كشف المؤامرة أدى إلى استحكام العداء بين القائد الكبير من ناحية ، وساموناس الذى ازداد نفوذه بشكل خطير منذ منتصف سنة ٩٠٤م وأصبح المتصرف الحقيقى فى شئون الحكومة والقصر من ناحية أخرى . وأدت دسائس ساموناس إلى بداية عصيان أندرونيكوس أوامر الإمبراطور ، ثم تمرده واعتصامه فى حصن كافالا Cavala بالقرب من قونية Iconium (١٤٢). وفشلت محاولات الإمبراطور لاستمالة القائد الذى رفض كل عروض العفو عنه (١٤٣). واضطر الإمبراطور فى النهاية إلى إرسال جيش بقيادة القائد جريجورى أيفريتزس Gregory Iveritzes حيث حاصره فى كافالا Cavala لمدة ستة شهور . وفى النهاية طلب أندرونيكوس الأمان من المسلمين . وبمجرد إجابة طلبه قام فى صحبة أسرته وخدمه ومن تبقى من أنصاره فضلاً عن مائتى أسير مسلم ضمهم إليه وسلحهم ، باختراق الحصار وشق طريقه إلى طرسوس ، ومنها اتجه إلى بغداد حيث استقر فيها (١٤٤).

وتنفرد سيرة إيثيميوس بتأكيد تواطؤ نيقولا مستيكوس مع القائد أندرونيكوس دوقاس . وتشير إلى فرار أحد أتباع آندرونيكوس من حصن كافالا إلى القسطنطينية حيث قدم للإمبراطور أربع رسائل تلقاها القائد المتمرد من العاصمة البيزنطية . وكانت إحداها رسالة كتبها نيقولا مستيكوس وخاطب فيها أندرونيكوس بإمبراطور المستقبل ونصحه بالتمسك بموقفه ودعم قواته ومواصلة الثورة وعدم الاستجابة لوعود العفو عنه مؤكداً أن القسطنطينية ستكون فى انتظاره بعد فترة قصيرة (١٤٥).

ولقد شكك بعض المؤرخين الحديثين فى مصداقية هذه الرسالة ، فاعتبرها البعض وثيقة مزورة من إعداد ساموناس استهدفت تبرير عزل البطريرك (١٤٦). واعتبرها البعض الآخر رواية من إعداد أنصار إيثيميوس الذين كانوا دائمًا على استعداد للإساءة إلى سمعة نيقولا مستيكوس (١٤٧). ومهما اختلفت الآراء فيجب ألا ننسى أن تورط البطريرك بهذه الصورة ، يمثل عنصراً رئيسيًا فى سياق رواية صاحب سيرة إيثيميوس وتفسيره للأحداث : فقد أدى اكتشاف المؤامرة وافتضاح أمر البطريرك إلى إذعانه لكل رغبات الإمبراطور ، ثم كان علمه بعزم الإمبراطور على التخلص منه سببًا فى انقلابه وتحوله إلى المعارضة فى شتاء سنة ٩٠٦/٩٠٧م. وكيفما كان الأمر ، يمكن تفسير موقف نيقولا مستيكوس من ليو السادس

طوال عام ٩٠٦م وحتى عزله فى أول فبراير سنة ٩٠٧م بشكل مستقل تمامًا عن مسألة تورطه فى تمرد أندرونيكوس كما سبق أن أشرنا . ومع ذلك يظل احتمال تواطؤ نيقولا مع أندرونيكوس دوقاس أمراً وارداً ، ويمكن النظر إليه كمحاولة يائسة من جانب البطريرك للخروج من الأزمة التى وجد نفسه فيها فى سنة ٩٠٦م (١٤٨).

وباستقالة نيقولا مستيكوس أصبح فى إمكان الإمبراطور ترشيح بطريرك جديد . ويروى صاحب سيرة إيثيميوس - وهو مصدرنا الرئيسى فيما يلى من أحداث - أن آراء الأساقفة والإمبراطور اجتمعت على تفضيل اختيار إيثيميوس ، الذى كان راهبًا تقيًا يحظى باحترام الجميع (١٤٩). فذهب وفد من الأساقفة لزيارة الراهب فى دير بساماثيا Psamathia للتعبير عن الرغبة فى ترشيحه لشغل عرش بطريركية القسطنطينية ، ولكنه رفض العرض . وحاول أعضاء الوفد إقناع إيثيميوس دون جدوى ، فأكدوا له أن نيقولا مستيكوس استقال بمحض إرادته ، وأنه فى الوقت الذى طالبهم فيه بالثبات وعدم الاستقالة من كراسيهم الأسقفية ، كان هو أول من كتب استقالته وتجاهل توسلاتهم بالعدول عنها (١٥٠). ويلاحظ أن هذه العبارة ستصبح دعوى ثابتة يرددها أنصار إيثيميوس فى مواجهة ادعاء نيقولا مستيكوس بعد ذلك بأنه البطريرك الشرعى الوحيد .

واضطر الإمبراطور إلى الذهاب بنفسه لاستمالة إيثيميوس . وأوضح له الإمبراطور أنه إذا لم يقبل عرش البطريركية فلن يكون هناك أمل فى غفران ذنبه وحل مشكلته وسيترتب على ذلك وقوع شر أكبر وهرطقة (١٥١). وربما يكون فى هذا القول تلميح إلى ما أشارت له إحدى الحوليات البيزنطية عن تفكير الإمبراطور فى إصدار قانون جديد ينص على إباحة الزواج للمرة الرابعة (١٥٢). وكانت إجابة إيثيميوس واضحة فلا يجوز تنصيب بطريرك جديد بينما نيقولا مستيكوس لا يزال على قيد الحياة ، وقد عزل من منصبه بصورة غير شرعية وبدون قرار مجمع كنسى (١٥٣). فروى الإمبراطور ما جرى من أحداث وعرض على الراهب وثيقة استقالة نيقولا ليقرأها . وتعتبر هذه الوثيقة الاستقالة الثالثة التى أشارت لها سيرة إيثيميوس ، ويلاحظ أنها موجهة إلى الأساقفة وتختلف إلى حد ما عن الاستقالتين السابقتين . وفى هذه الوثيقة يشير نيقولا مرة أخرى إلى الاختلاف بين الأساقفة الذى ما كان يجب أن يحدث . ولكن بما أنهم قد وافقوا على إصدار تسامح فى زواج الإمبراطور ، فإنه يعترف بإجماعهم ويستقيل من كرسى البطريركية (١٥٤). وبعد اقتناع إيثيميوس بما جاء فى وثيقة استقالة

نيقولا ، أوضح للإمبراطور أنه إذا وافقت البابوية وبطريركيات المشرق على التسامح فى أمره فإنه لن يعترض . وبعد بضعة أيام (ربما بعد منتصف فبراير سنة ٩٠٧م) قام ليو السادس مرة أخرى بزيارة إيثيميوس ، وبصحبته مبعوثيه ليو خويروسفاكتس Leo Choirosphactes وسيميون Symeon اللذين وصلا إلى القسطنطينية بصحبة ممثلى كنائس الشرق والغرب(١٥٥) . وقدم له الإمبراطور الوثائق التى تضمنت أحكام البابوية وبطريركيات المشرق فى أمر زواجه للمرة الرابعة وكانت جميعها ردوداً إيجابية . وفى نفس الوقت كان معظم أساقفة الكنيسة البيزنطية قد وافقوا كتابة على استقبال الإمبراطور فى الكنيسة لبدء فترة تكفير عن ذنبه . ولم يكن أمام إيثيميوس سوى قبول كرسى البطريركية (١٥٦) .

وقام الإمبراطور ليو السادس بدعوة أساقفة الكنيسة البيزنطية وممثلى البابوية وبطريركيات المشرق لحضور مجمع دينى انعقد على الأرجح فى أواخر فبراير سنة ٩٠٧م للنظر فى قضية زواجه الرابع (١٥٧) . وقرر المجمع فى النهاية الموافقة على اقتراح مندوبى البابوية بالتسامح فى زواج الإمبراطور ، والسماح بدخوله الكنيسة كى يبدأ فترة تكفير عن ذنبه ، دون المطالبة بانفصاله عن زوجته . كذلك اعتمد المجمع اعتزال نيقولا مستيكوس منصبه ، ووافق على ارتقاء إيثيميوس كرسى بطريركية القسطنطينية (١٥٨) . وهكذا حقق ليو السادس هدفه بعد أن قام بكل ما هو ضرورى لتأكيد شرعية ابنه وضمان حقه فى وراثة العرش .

ولكن ما الذى أصاب الكنيسة البيزنطية ؟ ولماذا تبدلت المواقع التقليدية لتياراتها ؟ فحتى يناير سنة ٩٠٧م كان التيار المعتدل المعروفة بولائه للقصر ، الذى يمثله أنصار البطريرك السابق فوتيوس وعلى رأسه البطريرك نيقولا مستيكوس يؤيدون التسامح فى زواج الإمبراطور ، بينما كان التيار المتشدد المعارض ويمثله أنصار البطريرك السابق اجناتيوس ومن أقطابه إيثيميوس يعارضون الاعتراف بزواج الإمبراطور ويطالبون بانفصاله عن زوجته . وأمام إصرار المعارضة على الرفض اضطر نيقولا مستيكوس إلى العدول عن رأيه والاستقالة من منصبه فى النهاية . وعلى غير المتوقع انقلبت المعارضة وعلى رأسها الآن إيثيميوس وأرثاس وبدلت موقعها وجاءت راضية لتوافق على التسامح فى زواج كانت تعتبره حتى الأمس القريب علاقة محرمة . يرى المؤرخ الروسى بوبوف Popov أن أنصار اجناتيوس الذين مثلوا المعارضة منذ عودة فوتيوس إلى عرش البطريركية سنة ٨٧٧م ، كانوا على استعداد للتضحية بمبادئهم من أجل استرداد السلطة والعودة لقيادة الكنيسة البيزنطية (١٥٩) . وهكذا اعتلى إيثيميوس

عرش البطريركية وأصبح على رأس التيار المعتدل فى أواخر فبراير سنة ٩٠٧م ، بينما تحول البطريرك المنفى نيقولا مستيكوس ليمثل التيار المتشدد والمعارضة . واستمرت كنيسة روما الحليف القديم لاجناتيوس وأنصاره تؤيد خلفاءهم إيثيميوس وأنصاره فى موقعهم الجديد(١٦٠).

وتجدر الإشارة إلى أن سيرة إيثيميوس تؤكد باستمرار على أهمية حكم البابوية فى المسألة المتنازع عليها . وكان قرار التسامح فى زواج الإمبراطور الذى جاء به مندوبو كنيسة روما عاملاً حاسمًا فى تحقيق رغبة ليو السادس ، كما كان مشجعًا لإيثيميوس فى قبول عرش البطريركية (١٦١). ويجب ألا ننسى أن البابوية لم تقم بتغيير مبادئها أو مخالفة قوانينها من أجل دعم الإمبراطور البيزنطى فى الخلاف القائم بينه وبين كنيسته ، بل كان قرارها متفقًا مع وجهة نظرها فى مسألة تكرار الزواج بسبب الوفاة . وعلى هذا وافق البابا سرجيوس الثالث Sergius III (٩٠٤ - ٩١١م) على التسامح فى زواج ليو السادس للمرة الرابعة لأن زوجاته الثلاث توفين على التوالى . وبوفاتهن انتهت كل روابط الزوجية شكلاً وقانونًا ، مما يؤهل الإمبراطور لزواج جديد (١٦٢).

وبارتقاء إيثيميوس عرش بطريركية القسطنطينية حل الانقسام فى الكنيسة البيزنطية من جديد ، الأمر الذى حاول نيقولا مستيكوس أن يتجنبه . وكان الانقسام هذه المرة بين أولئك الذين وافقوا على التسامح فى زواج الإمبراطور واستقباله فى الكنيسة من ناحية ، وأولئك الذين وقفوا إلى جانب نيقولا مستيكوس وتمسكوا بأنه البطريرك الشرعى الوحيد من ناحية أخرى . وانضم إلى هذا الفريق الأخير عدد ممن رفضوا التسامح فى الزواج الرابع دائمًا ، مثل الراهب نيكتاس البافلاجونى (١٦٣). وبطبيعة الحال تعرض هذا الفريق المعارض لغضب السلطة، فكان العزل والنفى أو السجن من نصيب أعضائه (١٦٤). وكان أرثاس وإبيفانيوس Epiphanios من الأساقفة الأوائل فى معسكر المعارضة . وبعد رفضهما حضور المأدبة الرسمية المعتادة بعد قداس عيد العماد فى القصر الإمبراطورى قام الإمبراطور بنفيهما إلى تراقيا Thrace (١٦٥). ولكن أرثاس عرف بسرعة طريق العودة وإرضاء السلطة بعد أن استنفدت معارضته أغراضها . فبعد تنصيب إيثيميوس بطريركًا كتب أرثاس إلى الإمبراطور وطلب الإذن بالخروج من منفاه للقاء البطريرك الجديد ، فأذن له . وحضر بالفعل إلى القسطنطينية والتقى إيثيميوس ، ثم توجه بعد ذلك إلى القصر ليعلن للإمبراطور أنه توصل

إلى تفاهم مع البطريرك الجديد ، وسوى خلافه مع الكنيسة ، وأنه بالتالى يوافق على تسامحها فى أمره [١٦٦]. وترتب على هذه المصالحة استرداد أرثاس موقعه ومزاولته مهام منصبه على رأس أسقفية قيصرية . وعلى الرغم من أن سيرة إيثيميوس ترجع تحول أرثاس عن المعارضة إلى تأثير البطريرك إيثيميوس عليه[١٦٧]، فمن المرجح أن عداءه الشخصى لنيقولا مستيكوس كان السبب الرئيسى فى معارضته الأولى وفى انقلابه الأخير . ففى البداية انضم أرثاس للتيار المعارض للتسامح فى زواج الإمبراطور فى الوقت الذى كان نيقولا مستيكوس يعمل من أجل تحقيق هذا التسامح ، ونجح أرثاس بمعارضته العنيفة فى إحراج نيقولا وإسقاطه فى النهاية . وبسقوطه لم يعد هناك مبرر لمعارضة أرثاس ، فبدل موقعه وعدل سياسته وأرضى الإمبراطور ولكنه استمر يهاجم البطريرك المعزول وأنصاره من قاعدة قوية وآمنة [١٦٨]. وفى دفاعه عن نفسه يذكر أرثاس أنه لم يكن مخالفًا لقوانين الكنيسة فى معارضته الأولى وأنه تشبث بموقفه رغم الضغوط وعارض بالقلم وبالفعل وأنه يستحق الثناء على ذلك . كما يذكر أنه ليس نادمًا على معارضته الأولى ، لكن مصالح الكنيسة كانت السبب الرئيسى فى قراره بنبذ المعارضة وتسوية خلافه مع القصر [١٦٩].

وجدير بالذكر أن إيثيميوس لم يكن ، خلال فترة بطريركيته ، تابعًا خاضعًا لمشيئة القصر بل احتفظ بسلطاته وحرص على استقلال قراره وخاصة فى الأمور التى تمس المصلحة العليا للكنيسة . ورغم تسامحه فى زواج ليو السادس واستقباله فى الكنيسة إلا أنه رفض إعلان زوجته زوى إمبراطورة Augusta رسميًا فى الكنيسة ، كما رفض وضع اسمها فى السجلات الكنسية أو ترديده فى الصلوات - كما جرى العرف - رغم كل الضغوط التى تعرض لها من جانب الإمبراطورة وأقاربها [١٧٠]. وكانت وجهة نظر إيثيميوس أن الكنيسة البيزنطية تسامحت فى زواج الإمبراطور باعتبار فعله حالة تسامح استثنائية ولم تضع قانونًا أو قررت حكمًا باعتبار مثل تلك الزيجات مشروعة . أكثر من هذا ، أمر البطريرك بتحريم كل صور التسامح فى المستقبل تجاه الزواج للمرة الرابعة نهائيًا [١٧١]. ولم يكن أمام الإمبراطور زوى سوى الاكتفاء بالاعتراف الرسمى بها من قبل السناتو [١٧٢]. ولكن إيثيميوس لم يعترض على تتويج الطفل قسطنطين بورفيروجنيتوس Constantine Porphyrogenitos إمبراطورًا مشاركًا مع أبيه ، وقام بتتويجه يوم الأحد الموافق ١٥ من مايو سنة ٩٠٨م عندما كان قسطنطين فى الثالثة من عمره [١٧٣].

عزل إيثيميوس وعودة نيقولا مستيكوس للبطريركية :

استمر إيثيميوس على رأس الكنيسة البيزنطية طوال السنوات المتبقية من عمر ليو السادس ، ثم تبدل الحال فى سنة ٩١٢م وعاد نيقولا ليعتلى عرش البطريركية مرة أخرى بعد أن أمضى فى المنفى حول خمس سنوات . ففى الحادى عشر من مايو سنة ٩١٢م توفى الإمبراطور ليو السادس وخلفه على العرش أخوه الأصغر إسكندر Alexander (٩١٢ - ٩١٣م) إلى جانب قسطنطين السابع الذى كان طفلاً فى السابعة من عمره [١٧٤]. وقبل وفاته أوصى ليو السادس أعضاء السناتو بزوجته وطفله ، كما ناشد أخاه إسكندر أن يحمى الطفل الصغير ويرعاه [١٧٥]. وتختلف المصادر فى تحديد الإمبراطور الذى قام باستدعاء نيقولا من منفاه ورد عرش البطريركية إليه . فنيقولا مستيكوس يذكر فى رسالته إلى البابا أناستاسيوس الثالث Anastasius III أن الإمبراطور التائب ليو السادس قام قبيل وفاته باستدعائه من المنفى ليسترد مكانته على رأس الكنيسة البيزنطية [١٧٦]. كما تؤكد الوثيقة المعروفة " بالوصية الأخيرة " المنسوبة إلي ليو السادس على مشاعر الندم التى اجتاحت الإمبراطور فى أيامه الأخيرة وأمله فى الحصول على عفو وعطف نيقولا الذى استعاد الآن مكانته فى الكنيسة البيزنطية [١٧٧]. أما الحوليات البيزنطية فإنها تنسب قرار استدعاء نيقولا من منفاه ورد عرش البطريركية إليه إلى الإمبراطور إسكندر ، وتعتبر هذا القرار أول قرارات الإمبراطور الجديد [١٧٨]. أما سيرة إيثيميوس فيلاحظ أنها لا تفيدنا فى هذه المسألة لأن هذا الحدث يدخل غالبًا ضمن الصفحات المفقودة من هذا المصدر الهام .

ورغم اختلاف المصادر يمكن القول أن قيام الإمبراطور المحتضر ليو السادس بإصدار أمر استدعاء نيقولا من منفاه أمر وارد . فالمعروف أن ليو السادس كانت تتملكه مشاعر دينية قوية رغم خطاياه الدنيوية . والآن وهو يحتضر ، ربما أراد تحرير ضميره من عذاب شديد ، فقام باستدعاء البطريرك الذى أصدر ضده قرار الحرمان ورد له اعتباره . لقد كان إسكندر وقت احتضار ليو هو المتصرف الحقيقى فى شئون الحكم ، ومن المرجح قيامه بتنفيذ استدعاء نيقولا فأصبح بذلك مشاركًا فى الأمر . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الحديثين يرى أن استدعاء نيقولا من المنفى ورد اعتباره بأمر ليو السادس لم يصاحبه العزل الفورى لإيثيميوس، وأن فترة مرض واحتضار ليو السادس ، التى امتدت من أوائل مارس وحتى ١٢ من مايو سنة ٩١٢م ، قد شهدت وجود بطريركين فى نفس الوقت . فإيثيميوس كان البطريرك اسميًا بينما كان نيقولا مستيكوس يتولى فعليا إدارة شئون الكنيسة البيزنطية [١٧٩].

على أية حال ، عندما رفض إيثيميوس التنحى عن منصبه ، دعا الإمبراطور إسكندر إلى عقد مجمع دينى محدود فى يونيو سنة ٩١٢م فى القصر الإمبراطورى حضره عدد من رجال الكنيسة المعارضين للزواج الرابع والأساقفة الذين تخلوا عن إيثيميوس ، كما حضره بعض أعضاء مجلس السناتو . وترأس الإمبراطور إسكندر ونيقولا مستيكوس هذا المجمع الذى خصص لمحاكمة إيثيميوس بتهمة الزواج من الكنيسة بصورة غير شرعية لاعتلائه عرش البطريركية بينما البطريرك الأصلى لا يزال على قيد الحياة . وتقدم المصادر البيزنطية وصفًا مثيراً لهذه المحاكمة التى تعرض فيها البطريرك المسن للمهانة والأذى . ورغم دفاع إيثيميوس عن نفسه صدر الحكم بإدانته فتم تجريده من ردائه الكنسى وشاراته الرسمية ونفيه إلى دير القديس أجاثوس St. Agathos (١٨٠).

باسترداد نيقولا مستيكوس منصبه الرسمى على رأس بطريركية القسطنطينية بدأت حركة تطهير فى الكنيسة البيزنطية راح ضحيتها عدد من أنصار البطريرك السابق . ورغم إشارة المصادر إلى قيام نيقولا بعزل عدد كبير من القساوسة وصغار رجال الدين (١٨١)، فإن عدد المعزولين من كبار رجال الدين اقتصر على أربعة أو خمسة من الأساقفة بينما تمسك الآخرون بكراسيهم الأسقفية ورفضوا الاستقالة فى معارضة صريحة لنيقولا مستيكوس (١٨٢). وكان على رأس المعارضة أرثاس أسقف قيصرية المعروف الذى ربما كان يتطلع لخلافة إيثيميوس على عرش البطريركية (١٨٣). حاول نيقولا مستيكوس عزل أرثاس وغيره من أقطاب المعارضة ، إلا أن أسقف قيصرية رفض الاعتراف بسلطانه وتحداه أن يستصدر مرسومًا إمبراطوريًا بعزله ، فاضطر نيقولا إلى التراجع بعد أن باءت محاولاته بالفشل (١٨٤).

هكذا بدأ فصل جديد من فصول الانشقاق فى الكنيسة البيزنطية اتسم بالجدل العنيف وتبادل الاتهامات ومحاولة كل طرف تبرير مواقفه وتفسير قراراته . ويكفى أن نطالع الرسائل التى كتبها نيقولا مستيكوس بعد سنة ٩١٢م ورد أرثاس على ما جاء فى بعضها لتتضح لنا أبعاد هذا الانشقاق . ويلاحظ أن زواج الإمبراطور ليو السادس لم يعد موضوع الجدل المباشر بين التيارات الكنسية المتنافسة ، كما كان عليه الحال قبل سنة ٩٠٧م ، بل أصبح الخلاف يدور حول مشروعية استرداد نيقولا عرش الكنيسة البيزنطية بعد أن تخلى عنه باستقالته من منصب البطريركية . ولقد حاول نيقولا فى رسالته الهامة التى وجهها إلى أساقفة المعارضة تفسير ظروف تنحيه عن عرش البطريركية وتبرير استقالته مؤكداً أنه احتفظ بمركزه كأسقف ولم

يتخل عنه . وحفلت هذه الرسالة بعبارات اللوم والتوبيخ لأولئك الأساقفة الذين بدلوا مواقعهم وانقلبوا إلى أعداء وجلبوا الانقسام إلى الكنيسة [١٨٥]. أما أرثاس فقد كتب رداً ساخراً حاول فيه تفنيد مزاعم نيقولا فبين أن استقالته من منصب البطريركية صحيحة ولا ينبغى التقليل من قيمتها كما لا يجوز التراجع عنها . وشبه تخلى نيقولا عن الكنيسة بتخلى الراعى عن قطيعه وتركه للذئاب [١٨٦]. ورفض أرثاس وأنصاره الاعتراف ببطريركيته الجديدة كما رفضوا الاشتراك معه فى أى قداس دينى [١٨٧]. وإذا كان الجدل قد تطرق إلى مشروعية الزواج الرابع من حيث المبدأ ، فإن موقف نيقولا مستيكوس المعارض كان متفقًا مع المفهوم التقليدى للكنيسة البيزنطية ، بينما افتقر أرثاس إلى المصداقية وهو يحاول تفسير القوانين الكنسية بصورة تتفق مع التبدل الذى طرأ على موقفه من الزواج الرابع [١٨٨].

نيقولا مستيكوس والوصاية على قسطنطين السابع :

عاشت الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة ليو السادس فترة اضطراب وفتن كانت فى جملتها نتائج ترتبت بشكل مباشر أو غير مباشر على زواجه الرابع . وإذا كان إسكندر قد خلف أخاه على العرش ، إلا أنه انصرف إلى أهوائه وحرص على نقض سياسات سلفه وأضمر الشر لابن أخيه الطفل[١٨٩]. ولم ينقذ الطفل الصغير من الهلاك على يد عمه سوى وفاة الأخير فى ٦ من يونيو سنة ٩١٣م بعد حكم قصير مضطرب فى الداخل والخارج لم يدم أكثر من ثلاثة عشر شهراً ، تاركًا قسطنطين السابع فى الثامنة من عمره وسط تيارات تتصارع من أجل الوصاية عليه واغتصاب العرش منه [١٩٠]. ولم يقتصر الأمر على ذلك إذ قامت بلغاريا باستغلال الموقف لتحقيق طموح قيصرها سيميون Symeon فهددت بيزنطة تهديداً خطيراً . وفى هذا الجو الصاخب المليء بالفتن فى الداخل والأخطار من الخارج لعب نيقولا مستيكوس دوراً بارزاً .

قام الإمبراطور إسكندر وهو على فراش الموت بتشكيل مجلس وصاية على الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع يتولى إدارة شئون الدولة . وتشكل المجلس من خليط غير متجانس إذ ضم البطريرك نيقولا مستيكوس ، واثنين من الأعيان من أبناء الطبقة العليا ، وأربعة من حاشية أتباع الإمبراطور المحتضر - التى غلب عليها اللهو والمجون - كانوا من أصول اجتماعية متواضعة ولم يسبق لهم شغل أية مناصب حكومية [١٩١]. وبفضل مركز نيقولا مستيكوس وشخصيته وشعبيته نجح فى السيطرة على مجلس الوصاية ، بل أصبح الوصى الحقيقى على قسطنطين السابع الذى فجر مولده الشقاق فى الكنيسة البيزنطية [١٩٢]. ويبدو أن نيقولا مستيكوس قبل تشكيل مجلس الوصاية ، قد خشى أن يقوم أحد الطامعين فى

التاج باغتصاب العرش من الإمبراطور القاصر ، فبدأ بمراسلة قسطنطين دوقاس - ابن القائد المعروف أندرونيكوس دوقاس - وكان يشغل منصب القائد العام للجيش البيزنطى فى آسيا الصغرى ، ودعاه لدخول العاصمة واعتلاء العرش (١٩٣). وكان نيقولا يميل لأسرة دوقاس ، وربما فضل أن يرى قسطنطين دوقاس إمبراطوراً مشاركًا للإمبراطور القاصر أكثر من أى شخص آخر (١٩٤) ، لما فى ذلك من ضمان لاستمراره فى شغل منصب بطريرك القسطنطينية وتأمين لمركزه فى مواجهة معارضيه فى الكنيسة من أنصار البطريرك السابق ، فضلاً عن أعدائه فى القصر وعلى رأسهم الإمبراطورة الأم زوى كاربونوبسينا . ولكن تشكيل مجلس الوصاية برئاسته جعله يندم بعد ذلك على دعوته القائد دوقاس ، فما كان ليرضى وهو على رأس الدولة بوجود منازع له فى السلطة . على أية حال ، استجاب قسطنطين دوقاس للدعوة بعد تردد قصير ، وتقدم بجزء من جيشه ونجح فى دخول العاصمة فى اليوم الثالث لمراسم الحداد على وفاة الإمبراطور إسكندر ليجد الوضع قد اختلف تمامًا (١٩٥). ولم يكن فى إمكان القائد الكبير أن يتراجع فتوجه بجنوده إلى ساحة الهيبودروم Hippodrome حيث تطور الأمر إلى قيام أنصاره وجنوده بإعلانه إمبراطوراً . وعلى الفور أصدر مجلس الوصاية الأوامر للحرس الإمبراطورى بالتصدى للقائد الثائر ، فأجهضت المحاولة وقتل قسطنطين دوقاس وابنه أمام البوابة البرونزية للقصر الإمبراطورى كما قتل عدد كبير من رجاله (١٩٦). وهكذا فشلت ثانى محاولات أسرة دوقاس لاغتصاب العرش من الأسرة المقدونية ، وفى كلتا المحاولتين تورط نيقولا مستيكوس بشكل أو بآخر .

كانت المشكلة التالية التى واجهت نيقولا مستيكوس بعد أن قبض على زمام الحكومة البيزنطية هى الإمبراطورة الأم زوى كاربونوبسينا وكانت زوى قد عادت إلى القصر لزيارة الإمبراطور المحتضر إسكندر ، وبعد وفاته أقامت بجوار ابنها القاصر وحاولت استرداد نفوذها والتدخل فى شئون الحكم . فقام البطريرك بإبعادها عن القصر ثم نفاها إلى أحد الأديرة(١٩٧).

لكن الخطر الجسيم الذى هدد أمن الدولة البيزنطية فى هذه المرحلة جاء من جانب دولة بلغاريا التى كانت ترقب عن كثب اضطراب الأحوال فى بيزنطة . وعندما رفض الإمبراطور الراحل إسكندر دفع الجزية المقررة للبلغار طبقًا للاتفاقية المبرمة سنة ٨٩٧م ، التى أنهت جولة سابقة من المواجهة الحربية بين الدولتين ، أعلن القيصر سيميون الحرب من جديد وتقدم تجاه

القسطنطينية وألقى عليها الحصار فى أغسطس سنة ٩١٣م [١٩٨]. ولم يعبأ سيميون باحتجاجات وتوسلات البطريرك نيقولا مستيكوس ، فقد كانت تحدوه أحلام الاستيلاء على العاصمة البيزنطية كى يصبح إمبراطور البلغار والرومان [١٩٩]. وأمام هذا التهديد الخطير وعجز الحكومة البيزنطية عن مواجهته عسكريًا ، اضطر مجلس الوصاية برئاسة نيقولا إلى الإذعان والدخول مع العاهل البلغارى فى مفاوضات . وقضت التسوية التى تم التوصل إليها الموافقة على تتويج سيميون إمبراطوراً ، بمعنى تتويجه إمبراطوراً على بلغاريا وليس إمبراطوراً مشاركًا لقسطنطين السابع [٢٠٠]. كما تم الاتفاق على أن تصبح إحدى بنات القيصر البلغارى زوجة للإمبراطور القاصر قسطنطين السابع فى المستقبل [٢٠١]. ولقد أرضت هذه التسوية طموح القيصر سيميون مؤقتًا ، فرفع الحصار عن القسطنطينية وانسحب عائداً إلى بلغاريا فى سبتمبر سنة ٩١٣م[٢٠٢].

لم ينعم البطريرك نيقولا مستيكوس بالحكم طويلاً ، فبعد ثمانية أشهر من توليه رئاسة مجلس الوصاية وإدارة شئون الدولة ، تم عزله من الوصاية على قسطنطين السابع على إثر انقلاب فى القصر الإمبراطورى فى فبراير سنة ٩١٤م[٢٠٣]. ويبدو أن حكومة نيقولا كانت قد بدأت تفقد شعبيتها ، ربما بسبب الإفراط فى التنازلات التى قدمتها لقيصر بلغاريا ، فضلاً عن القسوة التى صاحبت إخماد ثورة قسطنطين دوقاس . كذلك أثار تفرد نيقولا بالسلطة كراهية بعض الأعضاء البارزين فى مجلس الوصاية وخاصة يوحنا إلادس Ioannes Elades[٢٠٤]. وكانت الإمبراطورة الأم زوى هى العقل المدبر وراء انقلاب القصر الذى أطاح بحكمه . فقد عادت زوى إلى القصر بناء على طلب ابنها فى أكتوبر - نوفمبر سنة ٩١٣م ونجحت فى اكتساب ولاء يوحنا إلادس . وتم تدبير المؤامرة التى قضت على أعوان البطريرك، الذى اضطر للهرب من القصر ولجأ إلى مذبح كنيسة الحكمة المقدسة حيث اعتصم هناك مدة اثنين وعشرين يومًا [٢٠٥]. أما زوى فقد دعمت مركزها فى القصر وأمسكت بزمام الحكم وأصبحت الوصية الجديدة على ابنها قسطنطين السابع .

وكانت زوى تعتزم عزل البطريرك نيقولا مستيكوس ودعوة إيثيميوس ليحل محله على رأس الكنيسة البيزنطية ، إلا أن البطريرك السابق رفض العرض تمامًا مفضلاً حياة السلام والهدوء فى الدير على حمل أعباء الدنيا مرة أخرى . والطريف أن إيثيميوس نصح الإمبراطورة زوى بالإحجام عن مقاطعة نيقولا أو التفكير فى عزله [٢٠٦]. وبالفعل قررت العفو عن نيقولا مستيكوس وفى مقابل ذلك طالبته بتقديم تعهد كتابى بإعلانها إمبراطورة

رسميًا فى الكنيسة وبعدم دخول القصر الإمبراطورى إلا بناء على دعوة مسبقة . وفى مقابل إذعانه لمطالبها منحته الأمان فخرج من ملجئه ليرعى شئون الكنيسة فقط دون تدخل فى شئون الحكم (٢٠٧). ولا تشير المصادر إلى ما إذا كان نيقولا مستيكوس قد أوفى بما تعهد به وقام بإضفاء الشرعية على مركز زوى بإعلانها إمبراطورة رسميًا فى الكنيسة . على أية حال ، بمرور الوقت أخذت العلاقات تتحسن بين القصر والبطريرك ، إذ كلفته الإمبراطورة زوى بكتابة عدة رسائل دبلوماسية باسم حكومتها لسيميون قيصر بلغاريا (٢٠٨). كما تتأكد هذه الحقيقة فى روح المودة والتعاطف والحنو الأبوى التى تظهر فى رسالة العزاء التى أرسلها نيقولا للبراكوئيمنوس قسطنطين الرجل الأول فى حكومة الإمبراطور زوى ، وآلتى كتبها غالبًا سنة ٩١٦م بمناسبة وفاة شقيقته (٢٠٩).

وجدير بالذكر أن رفض إيثيميوس دعوة زوى له بالعودة إلى عرش البطريركية أدى إلى تبدل إيجابى فى مشاعر نيقولا مستيكوس تجاهه . وتروى المصادر أن نيقولا ذهب إلى دير القديس أجاثوس Agathos لاسترضاء إيثيميوس ، وأنه اعتذر له عما وقع بينهما من أحداث، وبعد عتاب تصافى الرجلان . وفى أعقاب هذا اللقاء الأول توطدت الصداقة بينهما تدريجيًا وأخذ نيقولا يقوم بزيارة البطريرك السابق بشكل منتظم . وكثيراً ما كان حديثهما يتطرق إلى أحداث الماضى القريب فيثور الجدل بينهما ولكنه سرعان ما ينتهى بصورة ودية(٢١٠). وفى ٢٨ من يوليو سنة ٩١٧م أرسل إيثيميوس وهو على فراش مرضه الأخير فى استدعاء نيقولا مستيكوس لوداعه . وكان اللقاء مؤثراً أخذ فيه كل منهما يطلب الصفح من الآخر قبل أن يتبادلا قبلة الوداع الأخيرة (٢١١). وفى ٢٠ من أغسطس سنة ٩١٧م توفى أيثيميوس عن عمر ناهز الخامسة والثمانين قضى منها خمسًا وسبعين عامًا راهبًا (٢١٢).

عزل زوى ووصاية رومانوس ليكابينوس :

استمر اضطراب أحوال الإمبراطورية البيزنطية خلال فترة وصاية زوى على قسطنطين السابع فى مواجهة السياسة العدوانية التى اتبعتها دولة بلغاريا . وكانت زوى قد بدأت بنقض التسوية التى توصل لها نيقولا مستيكوس مع القيصر البلغارى ، فأنكرت تتويج سيميون كما رفضت مشروع زواج ابنها من إحدى بناته ، فترتب على ذلك اندلاع الحرب من جديد. قام سيميون بغزو إقليم تراقيا واستولى على أدرنة Adrianople فى سبتمبر سنة ٩١٤م . وفى العامين التاليين استمر هجوم البلغار على معظم ولايات الجزء الأوروبى من الإمبراطورية

البيـزنطيـة [٢١٣]. وأدركت الحكومة البيزنطية بقيادة زوى ضرورة القيام بهجوم عسكرى مضاد ، فتم وضع خطة هجوم مزدوج علي بلغاريا من الشمال ومن الجنوب بالتحالف مع عناصر البجناكية (البشناق) Patzinaks القاطنة شمال نهر الدانوب . وتتلخص الخطة فى قيام قائد الأسطول البيزنطى الأدميرال رومانوس ليكابينوس Romanos Lecapenos بنقل قائد ثيم خرسون Cherson يوحنا بوجاس Ioannes Bogas وجنوده بحراً إلي مصب نهر الدانوب ليتقدم الأخير بعد ذلك جنوبًا تجاه بلغاريا بالتنسيق مع البجناكية (البشناق) ، بينما يتقدم القائد العام ليو فوقاس Leo Phocas بالجيش الرئيسى براً عبر إقليم تراقيا على طول ساحل البحر الأسود شمالاً إلى بلغاريا . وكانت الخطة تعتمد أساسًا على التنسيق الدقيق والتعاون ليتحقق النجاح للهجوم المزدوج . ولكن الخلاف الذى نشب بين قائد ثيم خرسون من ناحية وقائد الأسطول البيزنطى من ناحية أخرى أفشل الهجوم من الشمال واضطرت عناصر البجناكية (البشناق) إلى العودة إلى بلادها . وفى ظل هذه الظروف انتهت المعركة الحاسمة التى دارت عند أخلوس Achelous بالقرب من مدينة أنخيالوس Anchialus فى ٢٠ من أغسطس سنة ٩١٧م بهزيمة الجيش البيزنطى بقيادة ليو فوقاس وأعقب ذلك هزيمة أخرى لفلول الجيش البيزنطى عند كاتا سيرتاى Catasyrtae القريبة من العاصمة [٢١٤]. وفى سنة ٩١٨م تابع القيصر سيميون انتصاراته بغزو اليونان والتوغل جنوبًا حتى مضيق كورنثا ليصبح سيداً على شبه جزيرة البلقان [٢١٥].

وقعت الحكومة البيزنطية فى مأزق كبير وفقدت زوى ما تبقى لها من شعبية وسرعان ما فقدت نفوذها . وفى هذه الظروف الصعبة اضطر قسطنطين السابع ، وكان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره ، إلي تولى الحكم بنفسه وأرسل فى استدعاء نيقولا مستيكوس لمعاونته [٢١٦]. وفى الوقت الذى أخذ فيه البطريرك يعود إلى ساحة السياسة مرة أخرى ، تطلع اثنان من القادة العسكريين هما القائد ليو فوقاس والإدميرال رومانوس ليكابينوس إلي اغتصاب السلطة ، وسط شعور عام بأن الموقف يحتاج إلى رجل قوى . وكانت زوى وكبير موظفيها قسطنطين يناصران ليو فوقاس بينما كان ثيودور Theodore مؤدب الإمبراطور القاصر يؤيد ليكابينوس[٢١٧]. وفى هذا السباق على السلطة كان الفوز من نصيب رومانوس ليكابينوس، الذى تمكن بمساعدة أعوانه من إقصاء مناوئيه فى القصر . وعلى الرغم من اعتراض نيقولا مستيكوس دخل ليكابينوس ببعض سفن الأسطول إلى الميناء الخاص بالقصر الإمبراطورى وفرض حمايته على الإمبراطور قسطنطين السابع فى ٢٥ من مارس سنة ٩١٩م . وأدى تطور

الأحداث على هذا النحو إلي خروج البطريرك من دائرة السلطة والحكومة ، ولكنه سرعان ما اعترف بالأمر الواقع بعد أن توصل إلى تفاهم مع الوصى الجديد (٢١٨).

بسط رومانوس ليكابينوس نفوذه على الإمبراطورية بخطوات تدريجية . ففى إبريل سنة ٩١٩م رتب خطوبة قسطنطين السابع من ابنته هلن Helena . وأعقب ذلك بنفى زوى إلى أحد الأديرة للمرة الأخيرة حيث توفيت هناك فى ظروف غامضة . ونجح فى إحباط تمرد للجيش بقيادة ليو فوقاس الذى تم القبض عليه وسمل عينيه . وفى ٤ من مايو سنة ٩١٩م تمت مراسم زواج قسطنطين السابع ، وكان قد قارب الرابعة عشرة من عمره ، من هلن على يد البطريرك نيقولا مستيكوس (٢١٩). وعقب تتويج ابنته إمبراطورة ، اتخذ ليكابينوس لنفسه لقب والد الإمبراطور Basilcopator الذى سبق للإمبراطور ليو السادس أن أنعم به على ستيليانوس زاوتزس والد زوجته الثانية . وفى ٢٤ من سبتمبر سنة ٩٢٠م أنعم الإمبراطور قسطنطين السابع عليه بلقب قيصر Caesar ، وفى ١٧ من ديسمبر من نفس العام تم تتويج ليكابينوس إمبراطوراً مشاركًا على يد البطريرك (٢٢٠). ومع أن البطريرك نيقولا مستيكوس أيد إجراءات ليكابينوس التى استهدفت إحكام قبضته على السلطة الإمبراطورية ، إلا أنه حرص فى نفس الوقت على الدفاع عن حقوق الإمبراطور قسطنطين السابع .

هذا ، وقد تعاون نيقولا مستيكوس مع رومانوس ليكابينوس فى علاج مشكلة الخطر البلغارى ، ولعب البطريرك فى الواقع دور الوسيط(٢٢١) . وبعد محاولات مضنية أثمرت جهود البطريرك الدبلوماسية ، وتم التوصل إلى هدنة بين الدولتين فى سنة ٩٢٤م . ولكن السلام الحقيقى لم يتحقق إلا فى سنة ٩٢٧م عقب وفاة القيصر سيميون واعتلاء ابنه بطرس عرش الدولة البلغارية (٢٢٢).

عودة الوحدة إلى الكنيسة البيزنطية :

عندما قبض رومانوس ليكابينوس على زمام الحكومة البيزنطية سنة ٩١٩م ، ساد اعتقاد عام بأن الهزائم العسكرية التى منيت بها الإمبراطورية البيزنطية أمام البلغار ، كانت بسبب الانقسام داخل الكنيسة ، وبالتحديد لعدم قبول أولئك الذين وافقوا على الزواج الرابع فى رعية الكنيسة (٢٢٣). ولقد سعى رومانوس ليكابينوس إلى إعادة الوئام إلى الكنيسة باقتراح عقد مصالحة بين التيارين المتنازعين من رجال الدين لا يخرج فيها منتصر أو مهزوم . ولم تكن المصالحة المقترحة تتطلب من أنصار إيثيميوس التراجع عن وجهة نظرهم ، إلا أن

نيقولا مستيكوس عارض تنفيذ مصالحة على هذا النحو . ففى رسالته إلى رومانوس ليكابينوس قبل تتويجه إمبراطوراً مشاركًا ، رحب نيقولا بعقد مصالحة بين رجال الدين ، ولكنه أرادها مصالحة تضفى الشرف والاحترام على الكنيسة فى الحاضر والمستقبل . وأوضح نيقولا أنه يرغب فى الرحيل عن الدنيا طاهراً حتى لا يوصم بشبهة ازدراء قوانين الكنيسة المقدسة بعد وفاته فيتعرض اسمه للعنة . ويظهر بوضوح فى هذه الرسالة إيمان نيقولا العميق بأن قوانين الكنيسة فى أمور الزواج ملزمة ولا يجوز انتهاكها (٢٢٤).

ورغم قيام نيقولا مستيكوس بعد عودته لعرش البطريركية بحركة تطهير فى الكنيسة البيزنطية راح ضحيتها عدد من أنصار إيثيميوس ، فإنه سرعان ما تحلى بالصبر وضبط النفس وحاول اتباع سياسة معتدلة مع أعدائه فى سعيه لاحتواء الانفعالات وتهدئة الخواطر فى الكنائس المحلية . ففى رسالته إلى نيكتاس Nicetas أسقف أثينا فى سنة ٩١٤م ، الذى كان من أنصاره المتشددين ، وجه نيقولا إليه اللوم لقيامه بعزل أحد رجال الكنيسة من أنصار البطريرك السابق وطلب منه اعادته إلى منصبه حتى يتم الفصل النهائى فى أمر أنصار إيثيميوس إما بإدانتهم أو التسامح معهم (٢٢٥).

وإذا كان نيقولا قد أقلع عن سياسة اضطهاد أعدائه فى سعيه لاحتواء الانشقاق فى الكنيسة البيزنطية ، فإنه ما كان يسمح بقبول تسوية على حساب القوانين الكنسية . وإذا كان قد اتبع سياسة مغايرة لبعض الوقت خلال بطريركيته الأولى ، فإنه لم يقصد إلغاء تلك القوانين أو تأويلها . وعلى هذا فهو يطالب أرثاس وغيره من أنصار البطريرك السابق بالتخلى عن تأويلاتهم للقوانين الكنسية لصالح المفهوم التقليدى للزواج المتعارف عليه فى بيزنطة .

على أية حال ، تعاون نيقولا مستيكوس مع رومانوس ليكابينوس فى الدعوة لعقد مجمع دينى لتسوية مسألة تكرار مرات الزواج بشكل نهائى (٢٢٦). وحضر هذا المجمع الكنسى العام أساقفة وقساوسة يمثلون التيارين المتنازعين فى الكنيسة البيزنطية (٢٢٧). ولا تمدنا المصادر بتفاصيل وقائع جلسات هذا المجمع الذى انعقد فى القسطنطينية فى النصف الثانى من شهر يونيو سنة ٩٢٠م ، وتكتفى بالإشارة إلى أنه أسفر عن عقد مصالحة بين نيقولا مستيكوس وأنصاره من ناحية ، وأنصار البطريرك الراحل إيثيميوس من ناحية أخرى (٢٢٨). وتم الإعلان الرسمى عن عودة الوحدة إلى الكنيسة البيزنطية فى يوم الأحد الموافق ٩ من يوليو سنة ٩٢٠م فى وثيقة باسم قسطنطين السابع ورومانوس ليكابينوس تعرف باسم

كـتـاب الاتحـاد Tomus Unionis (Tomos Enoseos) [٢٢٩]. وتتضمن هذه الوثيقة عدة قـرارات هامة من بينها أن المجمع قـرر بالإجمـاع التـحريم النهائى لكل زواج رابع من الآن (ابتداء من سنة ٩٢٠م) فـصـاعداً ، دون إدانة الحالات السابقة على هذا التاريخ . ونصت الوثيقة على أن كل من يعقد زواجًا من هذا النوع سيوقع عليه الحرمان من دخـول الكنيسة والاشتراك فى أى قداس دينى طالما استمر فى ارتباطه المحرم [٢٣٠]. وأكدت الوثيقة على أن هذا القرار يمثل رأى آباء الكنيسة الذين شجبوا مثل هذه العلاقة باعتبارها دخيلة على المسيحية [٢٣١]. ويلاحظ أن هذا التحريم الصارم للزيجات الرابعة لم يأت بجديد بل كان أمراً متعارفًا عليه فى المفهوم التقليدى للكنيسة البيزنطية ، ولكن النص عليه بوضوح لا لبس فيه ولا إبهام كـان أمراً ضرورياً لسد الثغرات والحيلولة دون تأويل أقوال آباء الكنيسة فى المستقبل . وأصبح هذا التحريم تشريعًا متبعًا فى الكنيسة الأرثوذكسية إلى يومنا هذا[٢٣٢].

ويظهر الموقف المتزمت لهذا المجمع فى قراراته الأخرى المتعلقة أيضًا بمسألة تكرار مرات الزواج . فقد أعلن المجمع رفض الإباحة المطلقة للزواج الثالث ، الذى ربما كان قد أصبح شائعًا، وقرر وضع قيود على شرعية انعقاده . فإذا عقد رجل بلا ذرية زواجًا ثالثًا وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، فإنه يحرم من دخول الكنيسة مدة خمس سنوات . وبعد انقضاء فترة عقوبة الحرمان يقتصر السماح له بحضور القداس الدينى فى الكنيسة على مرة واحدة فى العام للمشاركة فى قداس عيد الفصح فقط . أما إذا كان لديه أطفال من زيجات سابقة فإن زواجه للمرة الثالثة لا يغتفر [٢٣٣]. ولكن إذا كان الرجل قد بلغ الثلاثين من عمره فقط ولديه أطفال من زيجاته السابقة ثم أقدم على الزواج للمرة الثالثة ، فقد حدد المجمع فترة حرمانه بأربع سنوات . وبعد انقضاء فترة الحرمان يقتصر السماح له بحضور القداس الدينى على ثلاث مرات فى السنة . أما إذا لم يكن لديه أطفال من زيجات سابقة فيمكن التسامح فى أمر زواجه للمرة الثالثة بعد قضائه فترة الحرمان المقررة [٢٣٤]. ويلاحظ أن هذه القيود المفروضة على الزواج الثالث استمرت مطبقة لبعض الوقت ، ثم تغاضت عنها الكنيسة الأرثوذكسية بعد ذلك كما هو الحال اليوم [٢٣٥]. هذا وقد أجاز المجمع الزواج للمرة الثانية دون قيود واعتبره شرعيًا مباركًا مثل الزواج الأول [٢٣٦].

وهكذا وبعد خمس عشرة سنة من الجدل والخلاف والانقسام بين رجال الدين وما نجم عن ذلك من اضطراب أحوال الإمبراطورية ، عادت الوحدة إلى الكنيسة البيزنطية وتصافح نيقولا

مستيكوس وقطب المعارضة العنيد أرثاس وعادت المودة والصداقة بينهما [٢٣٧]. وشعر سكان الإمبراطورية البيزنطية بالفرحة فور إعلان وثيقة كتاب الاتحاد ، وأصبح يوم إعلانها عيداً لمجد الكنيسة الأرثوذكسية يجرى الاحتفال به سنويًا . ففي يوم الأحد الأول من الصوم الكبير من كل عام تتم قراءة كتاب الاتحاد من فوق منبر الوعظ فى كنيسة القديسة إيرين St. Irene فى القسطنطينية ، بحضور الأباطرة ، فى طقس خاص احتفالاً بعودة السلام إلى الكنيسة[٢٣٨]. وأصبح على قسطنطين السابع فى كل عام احتمال مشقة الاستماع إلى نصوص هذا الكتاب وما تنطوى عليه بداهة من كونه إبنًا غير شرعى . ورغم ما قد يبدو فى ذلك من إذلال له فيجب ألا ننسى أن عدم تطبيق التحريم الوارد فى الوثيقة بأثر رجعى فضلاً عن تجنب الإشارة إلى الزواج الرابع لأبيه تحديداً قد حفظ لأمه احترامها ولشخصه الشرعية[٢٣٩].

نيقولا مستيكوس وكنيسة روما :

حرص نيقولا مستيكوس بعد عودة الوحدة إلى الكنيسة البيزنطية على تحسين علاقته بروما . وكانت العلاقة بين الكنيستين قد توترت عقب عزل البطريرك إيثيميوس . وزاد من تدهورها تلك الرسالة شديدة اللهجة التى أرسلها نيقولا مستيكوس فى النصف الثانى من سنة ٩١٢م إلى البابا أناستاسيوس الثالث (٩١١ - ٩١٣م) الذى خلف سرجيوس الثالث (٩٠٤ - ٩١١م) على عرش البابوية . وكانت الرسالة عبارة عن مذكرة تفصيلية لأبعاد أزمة الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ودوره فيها . وتضمنت توجيه اللوم للبابا سرجيوس الثالث على تجاهله لنيقولا وتجاوز صلاحياته وتدخله المباشر فى شئون الكنيسة البيزنطية . كما اشتملت على نقد لاذع لتأويل روما القوانين الكنسية وإباحتها تكرار مرات الزواج . وفى نهاية الرسالة طالب نيقولا البابوية أن تتدارك خطأها قبل أن يصبح الزواج للمرة الرابعة أمراً شائعًا فى المجتمع المسيحى وأن تعلن بطلان ما جرى فى سنة ٩٠٧م وإدانة أولئك الذين أدخلوا العار إلى الكنيسة [٢٤٠]. ولم يهتم البابا أناستاسيوس الثالث بالرد على هذه الرسالة . ويتضح من رسائل نيقولا التالية انقطاع العلاقة بين الكنيستين وقيام نيقولا مستيكوس بإزالة اسم البابا من قائمة الدبتك diptychs المقدس لكنيسة القسطنطينية [٢٤١].

على أية حال ، بعد إعلان وثيقة كتاب الاتحاد ، أرسل نيقولا مستيكوس فى منتصف يوليو سنة ٩٢٠م رسالة جديدة إلى البابا يوحنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨م) . وأشار نيقولا فى

رسالته إلى عودة الوحدة والسلام إلى الكنيسة البيزنطية وحث البابا على إرسال مبعوثين من طرفه إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الكنيستين على أساس إنكار شرعية الزواج للمرة الرابعة بصورة نهائية (٢٤٢). ومرة أخرى تجاهلت البابوية هذه الرسالة أيضًا . وفى سنة ٩٢١ أرسل الإمبراطور رومانوس ليكابينوس والبطريرك نيقولا مستيكوس سفارة مشتركة ورسالتين إلى بابا روما . وتتميز رسالة نيقولا بأسلوبها الاسترضائى ، فقد أكد حرصه على عودة الوئام والصفاء بين الكنيستين . واقترح إعادة ذكر اسم البابا فى قائمة الدبتك المقدس لكنيسة القسطنطينية فى مقابل موافقته على الاعتراف بأن الزواج الرابع ، وإن تم التسامح فيه بشكل استثنائى لصالح الإمبراطور ليو السادس لاعتبارات معينة ، فإنه أمر لن تسمح به الكنيسة مرة أخرى فى المستقبل . وأوضح نيقولا أنه لم يعد يطالب بإدانة من وافقوا على هذا الزواج من قبل ، وحث البابا على إرسال مبعوثيه إلى العاصمة البيزنطية لتسوية المسألة على هذا النحو (٢٤٣). ولم يكتف البطريرك بذلك بل قام بكتابة عدة رسائل أخرى فى نفس العام لبعض الشخصيات العامة فى إيطاليا للضغط على البابوية لإنهاء القطيعة وتسوية الخلاف مع كنيسة القسطنطينية (٢٤٤).

ويبدو أن البابا يوحنا العاشر تسلم رسالة أخرى فى نفس العام من بطريرك القسطنطينية نقلها إليه اثنان من رجال الدين . ورغم أن نص هذه الرسالة لم يصل إلينا ، إلا أن نيقولا أشار إليها فى رسالة تالية أرسلها إلى البابا نفسه فى النصف الثانى من سنة ٩٢٢م(٢٤٥). وفى رسالته الأخيرة أكد من جديد على ضرورة إنهاء القطيعة وعودة السلام بين الكنيستين ، وكرر طلبه وطلب الإمبراطور إرسال مبعوثين من كنيسة روما إلى القسطنطينية لعقد مجمع لتسوية الخلاف بين الكنيستين .

وفى النهاية أثمرت جهود البطريرك ، فقد أذعن البابا يوحنا العاشر لمطالب القسطنطينية وأرسل اثنين من الأساقفة اللاتين هما ثيوفيلاكت Theophylact وكاروس Carus إلى القسطنطينية فى ربيع سنة ٩٢٣م. ولا تمدنا المصادر بتفاصيل مادار من مفاوضات بل أن كل ما نعرفه عن هذا الموضوع هو ما ورد فى رسالة من نيقولا مستيكوس إلى سيميون قيصر بلغاريا فى نفس العام . ففى تلك الرسالة ذكر نيقولا أن مبعوثى البابا يوحنا العاشر حضراً إلى القسطنطينية وأنه اجتمع بهما وتم الاتفاق على تسوية الخلاف القائم بإعلان تحريم الزواج للمرة الرابعة وبذلك عاد السلام بين كنيستى القسطنطينية وروما (٢٤٦).

ورغم ما يمثله هذا الإعلان من تناقض مع ما هو معروف من موقف كنيسة روما التقليدى من مشروعية تكرار الزواج بسبب وفاة أحد الزوجين ، فالمرجح أن هذه الرواية التى انفرد بطريرك القسطنطينية بتسجيلها صحيحة . فمن المحتمل أن البابا يوحنا العاشر أذعن لرغبة القسطنطينية على أمل الحصول على مساعدة عسكرية لمواجهة إغارات المسلمين على جنوب إيطاليا (٢٤٧). كذلك يلاحظ أن القسطنطينية لم تعترض على قرارات مجمع سبالاتو Spa-lato سنة ٩٢٤م والتى نصت على عودة تبعية دالماشيا إلى كنيسة روما (٢٤٨). وكان الإمبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧ - ٧٤١م) قد قام فى سنة ٧٣٢م بفصل تبعية كنائس ولاية الليريا Illyricum بما فى ذلك دالماشيا عن كنيسة روما وضمها إلى كنيسة القسطنطينية (٢٤٩). ويعتقد بعض المؤرخين أن عودة تبعية دالماشيا إلى البابوية كانت جزءاً من اتفاق روما والقسطنطينية فى سنة ٩٢٣م (٢٥٠). على أية حال ، يجب أن ننظر إلى هذه التسوية بين روما والقسطنطينية بخصوص تحريم الزواج الرابع على أنها إعلان غير ملزم للبابوية ، فلا أثر له فى سجلاتها ، وأن تطبيقه اقتصر على بيزنطة وحدها .

الخاتمة :

كان النزاع الذى أثاره الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس وما ترتب عليه من انقسام فى الكنيسة مشكلة عانى منها المجتمع البيزنطى ، لأن انتهاك تعاليم الكنيسة فى الزواج وشرعية العلاقة بين الرجل والمرأة كانت من قضايا السلوك الاجتماعى العام التى تؤثر فى حياة الملايين من البشر. ولكن المشكلة كان لها بالإضافة إلى الأبعاد الدينية دلالة سياسية هامة تعكس طبيعة العلاقة بين الدولة والكنيسة فى بيزنطة . فبعد الاعتراف بالمسيحية فى القرن الرابع الميلادى حدث تغير فى مفهوم مكانة الإمبراطور ، فلم يعد بإمكان المسيحيين اعتباره مقدساً بل اعتبروه رجلاً اختارته المشيئة الإلهية ليكون ممثل الرب على الأرض . وبهذا التصور أصبح الإمبراطور فوق سائر البشر ، وأحاط نفسه بطقوس احتفالية صارمة تذكرنا بطقوس العبادة فى الكنيسة . ولما كان الإمبراطور ممثل الرب ، كان من الطبيعى أن تربطه علاقة خاصة بالكنيسة .

لقد حدد الإمبراطور قسطنطين الأول فى القرن الرابع أبعاد هذه العلاقة عندما أدخل الكنيسة داخل إطار الدولة لتصبح " كنيسة الدولة " . فالكنيسة لا تخضع فقط لحماية الدولة بل تتبع توجهاتها أيضاً . وبهذا التحديد ارتفع الإمبراطور البيزنطى فوق الكنيسة ، وأعطاه هذا المركز عدداً من الامتيازات الخاصة ، فهو يدعو المجامع الدينية للانعقاد ويترأسها بنفسه

أو من ينوب عنه من كبار موظفيه ، ويصدق على قراراتها ويصدرها فى صورة مراسيم . كما يصدر أحكامه الشخصية فى أمور السلوك العام والعبادة فى إطار روح العقيدة المسيحية . وله أن يؤسس دوائر أسقفية جديدة ، ويرفع من درجة ومكانة دوائر أخرى قائمة ، كما كان له تأثير حاسم فى اختيار البطريرك . وهيمنة الأباطرة على الكنيسة هى التى تمت صياغتها فى مصطلح " القيصرية - البابوية Caesaro Papism " (٢٥١).

ومع أن البطريرك كان من الناحية السياسية مواطنًا بيزنطيًا ، فإنه كان مستقلاً إلى حد بعيد فى تصريف الشئون الدينية . وكانت الدولة مطالبة بأن تساعد الكنيسة فى إقرار قواعد السلوك المتعارف عليها ، فإذا قام أحد الأباطرة بانتهاك هذه القواعد لم تكن الكنيسة تقف أمامه مستسلمة . ويمكن القول أنه فى ثلاث مناسبات على امتداد نصف قرن امتلك بطريرك القسطنطينية الشجاعة وأصدر قراراً بحرمان قيصر أو إمبراطور من دخول الكنيسة لحضور القداس الدينى كعقاب لاقترافه جريمة أو لانتهاكه قواعد الأخلاق العامة . ففى سنة ٨٥٨م أصدر البطريرك اجناتيوس قرار الحرمان ضد القيصر برداس لأن الأخير أقام علاقة محرمة مع زوجة ابنه (٢٥٢). وفى سنة ٨٦٧م أصدر البطريرك فوتيوس قرار الحرمان ضد الإمبراطور باسيل الأول المقدونى لقيامه بقتل الإمبراطور ميخائيل الثالث (٢٥٣). وأخيراً قام البطريرك نيقولا مستيكوس فى سنة ٩٠٦م بإصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور ليو السادس لأنه عقد زواجًا رابعًا محرمًا (٢٥٤). وفى جميع هذه الحالات طبقت الكنيسة القانون الكنسى على الحكام وأنزلت بهم العقوبات الروحية المناسبة . وكان هذا هو أقصى ما استطاعت الكنيسة أن تذهب إليه وهى تحاول تأكيد استقلالها بالحكم فى الشئون الدينية . ولكن فى جميع تلك المناسبات دفع البطريرك الثمن بالعزل من منصبه على يد القيصر أو الإمبراطور الذى صدر ضده هذا الحرمان . على أية حال ، تجاوزت الكنيسة البيزنطية أزمة الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس فى حدود الخيارات المتاحة أمامها فى ظل هيمنة الدولة . ولم يكن أمامها إلا أن تتسامح فيه على أنه حالة استثنائية فرضتها اعتبارات إنسانية وضرورات سياسية من أجل استمرار بقاء الأسرة المقدونية . هكذا نال قسطنطين السابع الشرعية رغم أنه ابن غير شرعى واستمر الحكم فى أسرته حتى سنة ١٠٥٦م.

وكان البطريرك نيقولا مستيكوس الشخصية الرئيسية فى جميع مراحل تلك الأزمة التى واجهها بشجاعة وتحمل فى صبر وطأة مضاعفاتها فى الداخل والخارج . لقد حاول إبان

بطريركيته الأولى أن يتجنب تفجر الأزمة وانقسام الكنيسة ولكنه فشل . أما في بطريركية الثانية فقد نجح في علاج مضاعفاتها عندما حافظ على حقوق قسطنطين السابع ، بعد أن تمكن رومانوس ليكابينوس من اغتصاب السلطة ، كما نجح بالتعاون مع القصر في إعادة الوحدة للكنيسة البيزنطية ، والسلام مع روما ، والهدنة مع بلغاريا . لقد توفي نيقولا مستيكوس في ١٦ من مايو سنة ٩٢٥م عن عمر يناهز الثالثة والسبعين بعد حياة حافلة حرص فيها على التمسك بتقاليد الكنيسة . وبعد وفاته لم يكن جزافًا أن يضاف اسمه إلى قائمة القديسين في كنيسة القسطنطينية كما تم إحياء ذكراه وتسجيل مآثره في كتب الأدب الديني للكنيسة الأرثوذكسية .

حواشى (٣)

١ - Grumel, **La Chronologie**, p. 357; Mango, **Homilies of Photius**, p. 179; Underwood and Hawkins, **Emperor Alexander**, p. 193; Ostrogorsk, **State**, p. 233 .

وانظر أيضًا : Adontz, **L'Oraison Funèbre**, pp. 501 - 513 .

٢ - توفى قسطنطين الابن الأكبر لباسيل المقدونى ، على الأرجح فى ٣ من سبتمبر سنة ٨٧٩م ، انظر :
Halkin, **Trois Dates**, pp. 14-17; Mango, **Homilies of Photius**, p. 179 .

أما ليو السادس فيبدو أنه ولد فى سبتمبر سنة ٨٦٦م ، فهو يذكر فى خطبة تأبين باسيل المقدونى (غالبًا فى أغسطس سنة ٨٨٨م) أن عمره كان اثنين وعشرين عامًا . وعلى هذا كان ليو فى العشرين من عمره عند اعتلائه العرش . ويميل معظم المؤرخين الآن إلى تأكيد أن ليو السادس كان ابنًا حقيقيًا لباسيل المقدونى . للمزيد عن تاريخ ميلاد ليو السادس وحقيقة انتسابه لباسيل المقدونى ، انظر :
Grumel, **Notes**, pp. 331-333; Adontz, **L'Oraison Funèbre**, pp. 503-513; Vogt, **Léon VI**, p. 389, n. 1 .

ويعتبر ليو السادس هو الإمبراطور البيزنطى الوحيد الذى عرف بالعاقل أو الفيلسوف Philosophos وهو لقب حمله خلال حياته بسبب الكتابات العديدة والمتنوعة التى سجلها قلمه من خطب ومواعظ دينية ، ومؤلفات أدبية ، وقوانين . ولاشك أن سعة علمه وثقافته ترجع إلى تلقيه العلم على يد العالم البطريرك فوتيوس ، انظر :
Ostrogorsky, **State**, p. 242; Vogt, **Léon VI**, pp. 403-428; Petit, **Homélies de Léon le Sage** pp. 245-249; Serruys, **Homelies de Léon le Sage**, pp. 167-170 .

وانظر أيضًا : أسد رستم : **الروم فى سياستهم وحضارتهم ، ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** (دار الكشوف ، بيروت ١٩٥٦م) جـ٢ ، ص ١٤ .

٣ - يبدو أن الأسقف ستيليانوس Stylianus أحد أقطاب الجناح المتشدد داخل الكنيسة البيزنطية قد أرسل فى طلب الفتوى من البابا ستفن السادس Stephen VI (٨٨٥ - ٨٩١م) . وجاء فى رد البابا أنه يصعب عليه الحكم فى هذه المسألة دون معلومات كافية ، انظر :

Stephani Papae VI. Epistolae, Ep. IV, cols. 795B-796C.

للمزيد عن عزل فوتيوس وتنصيب ستفن ، انظر :

Theoph. Cont., p. 354; **Sym. Mag.**, p. 700; **Georg.Mon. Cont.**, pp. 848-849; **Vita Euthymii**, pp. 11, 162; Fischer, **De Patriarcharum**, p. 292; Grumel, **La Chronologie**, p. 436; Grumel, **Les Regestes**, p. 130 .

وانظر أيضًا : عبد الرحمن عبد الغنى : " فوتيوس والقطيعة بين كنيستى روما والقسطنطينية فى القرن التاسع الميلادى " ، عالم الفكر ، المجلد ١٧ ، العدد ٣ ص ٨٢٨ .

٤ - Ostrogorsky, State, p. 241, n. 1.

وقارن أيضًا :

Dvornik, Photian Schism, pp. 241-243; White, Patriarch Photios, pp. 36-37 .

٥ - انظر :

Vita Euthymii, pp. 65, 186-188; Vita Antonii, p. 626 .

وعن قيام البابوية بإرسال مبعوثين إلى القسطنطينية لمباركة هذا الوفاق ، انظر الإشارة الواردة فى قائمة فيلوثيوس Philotheos التى نشرها بيورى Bury فى : Bury, Admin. System, p. 155 .

وانظر أيضًا : Dvornik, Photian Schism, pp. 262 - 271; Dvornik, Second Schism, p. 471; Maas, Der Interpolator, pp. 257- 261 .

٦ - للمزيد عن مولد نيقولا مستيكوس وأصله الإيطالى ، انظر :

Fischer, De Patriarcharum, p. 293; Constantinides, Nikolaos he Mystikòs, p. 35; Ephraemius, p. 402 .

أما عن صلة القرابة التى ربطته بفوتيوس ، انظر : Vita Euthymii, pp. 11, 163 .

ويرى جنكنز أن نيقولا ولد من جارية إيطالية فى بيت فوتيوس لأن معنى كلمة Oikogenes الواردة فى سيرة إيثيميوس لا تعنى القريب بل التابع المرتبط بالأسرة ، انظر :

Jenkins; Nicholas Mysticus, p. 146 .

٧ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep.2, p. 12 .

٨ - Jenkins, Nicholas Mysticus, p. 146 .

٩ - Vita Euthymii, p. 11 .

١٠ - Vita Euthymii, pp. 11 , 85, 164; Jenkins, Nicholas Mysticus, p. 147 .

كما أشار البطريرك نيقولا مستيكوس إلى الإمبراطور ليو السادس فى إحدى رسائله باعتباره صديقًا ، انظر : Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 218.

١١ - Vita Euthymii, p. 11 .

١٢ - طبقًا لرواية صاحب سيرة إيثيميوس ، قام الإمبراطور ليو السادس باستدعاء نيقولا من الدير وعينه فى وظيفة مستيكوس Mysticus أى « سكرتير خاص » لأنهما كانا زميلى دراسة وارتبطا بأخوة روحية، انظر : Vita Euthymii, pp. 11, 166 .

ومن المحتمل أن تكون هذه الوظيفة بهذا اللقب قد ظهرت فى القرن التاسع الميلادى . ويرى البعض أن المستيكوس كان سكرتيراً خاصًا للإمبراطور ، انظر : Bréhier, Institutions, p. 167 .

بينما يرى البعض الآخر أنه كان سكرتيراً خاصًا للبطريرك ، انظر : Guilland, Les Noces, p. 14 .

على أية حال ، فى حالة نيقولا ، تؤكد المصادر أنه كان مستيكوس للإمبراطور Mystikòs Ón toü Bas-ileos . انظر : Georg. Mon. Cont. p. 860; Leo Gramm., pp. 273 - 274 .

١٣ - Fischer, **De Patriarcharum**, p. 292; Grumel, **Les Regestes**, no. 598, p. 133; Grumel, **La Chronologie**, p. 436; Vogt, **Patriarches de Constantinople**, p. 277 .

ويلاحظ أن جريجوار ورانسيمان لا يوافقان على هذا التاريخ ، فالأول يحدد سنة ٨٩٩م تاريخًا لاعتلاء نيقولا عرش البطريركية ، بينما يحدد الثانى سنة ٩٠٢م ، انظر :

Grégoire, **Neuvième Siècle**, pp. 540-550, Runciman, **Romanus Lecapenus**, p. 42 .

١٤ - **Theoph. Cont.**, p. 364 .

وانظر أيضًا ، كلمات الإطراء التى ذكرها أرثاس Arethas المتحدث الرسمى فى القصر أمام الإمبراطور بمناسبة تعيين نيقولا بطريركًا سنة ٩٠١م ، ومرة أخرى فى الاحتفال بمرور عام على هذا التعيين :

Jenkins, Laourdas, Mongo, **Nine Orations**, pp. 17, 37 .

١٥ - Girard, **Droit Romain**, pp. 161 .

١٦ - انتقل هذا التقليد بعد ذلك للزواج المسيحى ، وأصبح الأسقف عادة أحد الموقعين ، قارن :

Joyce, **Christian Marriage**, pp. 41-43 .

١٧ - Rivers, **Marriage**, p. 466; Fulton, **Laws of Marriage**, p. 233 .

١٨ - Picot, **Marriage Romain**, p. 199

.

وللمزيد عن الزواج فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، انظر :

Corbett, **Roman Law of Marriage**, pp. 60-68 .

١٩ - Patrinacos, **Character of Marriage**, pp. 126-132; Meyendorff, **Paschal Mystery** , pp. 11-14; Meyendorff, **Marriage**, pp. 18-24 .

٢٠ - ويتضح هنا أن الكنيسة الغربية نظرت إلى الزواج على أنه علاقة تعاقدية تستمر باستمرار طرفيها على قيد الحياة ، انظر : Meyendorff, **Marriage**, p. 42 .

٢١ - عن أهمية القوانين الكنسية فى هذا المجال ، انظر :

Milas, **Das Kirchenrecht**, pp. 11-12, 61-62 .

٢٢ - **Codex Theodosianus**, III, 16, 1. (Pharr, pp. 76-77) .

٢٣ - **Just.** Nov. 22, Caput 5,6,7,9, pp. 150-152; **Just. Nov.** 117, Caput 8-9, pp. 557-560 .

وقارن أيضًا : Codex Justinianus, Code V. 17,8, pp. 212-213; Basilicorum, XXVIII, 7,1 (Ser.B.), vol. 5, pp. 1867-1869 .

٢٤ - Codex Justinianus, Code V. 17,10,p. 213 .

٢٥ - رغم إباحة الطلاق لأسباب متعددة ، فإن جستنيان لم يذكر فى قائمة الأسباب الطلاق بالاتفاق المشترك، انظر : Just. Nov. 117, Caput 10, pp. 560-561 . ، ولكن الإمبراطور جستين الثانى (٥٦٥-٥٧٨م) أباح فى قانونه رقم (٢) الطلاق بالاتفاق المشترك مرة أخرى ، انظر نص هذا القانون فى:
JGR (Zepos), I, pp. 4-5; Nomocanon , Tit. 13, ch. 4, p. 298 .

وانظر أيضًا : Buckler, Women in Byz. Law, pp. 401-402

وأخيراً نجحت الكنيسة فى تحريم الطلاق بالاتفاق المشترك فى القرن التاسع الميلادى ، انظر :
Prochiron, Tit. XI, ch. 4, p. 146 .

وقارن أيضًا :

Basilicorum, XXVIII, 6, 7 (Ser. B.), vol. 5, p. 1872 .

٢٦ - كانت هذه القوانين المدنية التى تصدرها الحكومة البيزنطية تذكر إلى جانب القوانين الكنسية فى مجموعات القوانين الكنسية المعروفة باسم Nomocanons . ومن أشهر مجموعات القانون الكنسى فى بيزنطة تلك المجموعة ذات الأربعة عشر فصلاً Nomocanon XIV Titulorum والتى ظهرت فى الربع الأخير من القرن التاسع (حوالى ٨٨٣م) . ويظهر فى هذه المجموعة التمييز بين القوانين الكنسية التى تذكر أولاً فى بداية كل فصل وبين القوانين المدنية التى تتلوها بشكل مختصر ، انظر هذه المجموعة فى :
Syntagma (RP), I, pp. 1-35 .

وانظر أيضًا :

Herman, Secular Church, p. 106; Milas, Das Kirchenrecht, pp. 68, 248, 254 .

٢٧ - Zhishman, Das Eherecht, I, pp. 218 - 219 .

٢٨ - Zhishman, Das Eherecht, I, pp.219; Pospishil, Divorce and Remarriage, p. 13 .

٢٩ - استمر هذا الوضع حتى القرن العاشر الميلادى على الأقل ، انظر :

Every, Byzantine Patriarchate, p. 5, n. 4 .

٣٠ - Godefroy, Le Bras, Jugie, Mariage, col. 2063 .

٣١ - جاء فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثا (٧ : ٨ - ١١) : " ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا . ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا . لأن التزوج أصلح من التحرق . وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب أن لا تفارق المرأة رجلها . وإن فارقته فلتلبث غير

متزوجة أو لتصالح رجلها ولا يترك الرجل امرأته " .

كما جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (٧:٢-٣) : " فإن المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالناموس بالرجل الحى . ولكن إن مات الرجل فقد تحررت من ناموس الرجل . فإذا ما دام الرجل حيًا تدعى زانية إن صارت لرجل آخر . ولكن إن مات الرجل فهى حرة من الناموس حتى أنها ليست زانية إن صارت لرجل آخر " .

وانظر أيضًا : Godefroy, Le Bras, Jugie, Mariage, col. 2098 .

٣٢ - Syntagma (RP), II, p. 63; III, pp. 171-172 .

وانظر أيضًا :

Zhishman, Das Eherecht, II, pp. 71-73 .

٣٣ - Syntagma (RP), IV, pp. 102-107, 263 .

وفى القرن التاسع الميلادى حدد نقفور بطريرك القسطنطينية مدة الحرمان بعامين كاملين ، انظر :
Syntagme (RP), IV, p. 427 .

٣٤ - Goar, Euchologion, pp. 328-331.

وللمزيد عن موقف الكنيسة البيزنطية من الزواج الثانى وطقسه ، انظر :
Zhishman, Das Eherecht, II, pp. 76-77; Ritzer, Le Mariage, pp. 116, 140; Herman, Digamon, p. 467 .

٣٥ - Syntagma (RP), IV, pp. 102, 203-205 .

٣٦ - Zhishman, Das Eherecht, II, pp. 76-77, 138-139 ; Buckler, Women in Byz. Law, p. 407; Every, Byzantine Patriarchate, p. 5 .

وانظر أيضًا :

Meyendorff, Marriage, p. 30; Ritzer, Le Mariage, pp. 164, 201- 202 .

٣٧ - ينسب إلى نقفور بطريرك القسطنطينية (٨٠٦ - ٨١٥) جملة أحكام تنظيمية (نشرها الكاردنيال بيترا Pitra فى Iuris Ecclesiastici, II, pp. 320 - 348) من بينها حكم بأن الزواج الرابع غير شرعى وحدد لمن يعقده فترة حرمان مترحمة الكنيسة ، انظر : . Iuris Ecclesiastici, p. 340

ولكن بعض المؤرخين يميل إلى الشك فى نسبة هذه الأحكام للبطريرك نقفور ، انظر :
Jugie, Notes, pp. 419-420 .

٣٨ - Codex Justinianus, Code V. 9, 6, pp. 201 - 202 .

٣٩ - Just. Nov. 22, Caput 27 - 30, pp. 168 - 171 .

٤٠ - Ecloga, Tit. II, ch. 10, pp. 24-25 .

وانظر أيضًا :

Zhishman, Das Eherecht, II, p. 116 .

٤١ - كما نص هذا القانون على أن كل من يولد من زواج ثالث يعتبر طفلاً غير شرعي . انظر نص هذا القانون رقم (٢٨) في : JGR (Zepos), I,p. 49-50 .

٤٢ - Prochiron, Tit, IV, ch. 25, pp. 127 - 128 .

٤٣ - كان الإمبراطور ليو السادس من أباطرة بيزنطة القلائل الذين تميزوا بسعة العلم في اللاهوت وقوانين الكنيسة كما كان له اهتمام خاص بمسائل الزواج لدرجة أن عدداً غير قليل من قوانينه التي بلغت ١١٣ قانونًا تناولت الزواج وشئونه بشكل مباشر أو غير مباشر . انظر نص القانون رقم (٩٠) لليو السادس في: Novellae Leonis, pp. 296 - 298 .

٤٤ - Godefroy, Le Bras, Jugie, Mariage, col. 2066; Naz, Mariage en Droit Occidental, cols. 751-752; Joyce, Christian Marriage, p. 19 .

وانظر أيضًا : كانتور : التاريخ الوسيط قصة حضارة : البداية والنهاية ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، (القاهرة ، ١٩٨١م) جـ١ ، ص ١٣٦ - ١٣٨ .

٤٥ - Naz, Mariage en Droit Occidental, col. 746; Joyce, Christian Marriage, p. 63 .

٤٦ - Naz, Mariage en Droit Occidental, col. 755; Villien, Divorce, col. 1469.

٤٧ - انظر القانونين الكنسيين (١١١٨) ، ورقم (١١٤٢) في :

Bouscaren, Ellis, Korth, Canon Law, pp. 611, 647 .

وانظر أيضًا :

Villien, Divorce, col. 1471; Meyendorff, Marriage, p. 42; Pospishil, Divorce and Remarriage, p. 24 .

٤٨ - كانت ثيوفانو وإيدوكيا الجرينا تنتميان لأسرة مارتيناكيوس Martinakioi المرموقة في العاصمة البيزنطية . وكانت ثيوفانو ابنة قسطنطين ابن انجر مارتيناكيوس Inger Martinakios وكانت إيدوكيا شقيقة قسطنطين وعمه ثيوفانو ، للمزيد عن هذه الأسرة انظر :

Vita Sanctae Theophano, pp. 2-6; Da Costa-Louillet, Saints, pp. 825-826 .

٤٩ - Vita Euthymii, p. 41 .

٥٠ - يذكر صاحب سيرة ثيوفانو أنها تزوجت وعمرها خمسة عشر عامًا وتوفيت وهي في الثلاثين من عمرها، انظر : Vita Sanctae Theophano, pp. 33, 42 .

فإذا كانت وفاتها في نوفمبر سنة ٨٩٦م ، فمعنى ذلك أنها تزوجت في شتاء ٨٨١/٨٨٢م . وكان عمر ليو في ذلك الوقت حوالي ستة عشر عامًا . انظر أيضًا :

Da Costa-Louillet, Saints, pp. 829-830 .

٥١ - Vita Euthymii, p. 41 .

٥٢ - Vita Sanctae Theophano, pp. 12,36.

٥٣ - Vita Sanctae Theophano, pp. 14-15, 39-42; Da Costa-Louillet, Saints, p. 832 .

٥٤ - Vita Euthymii, p. 37 ; Guilland, Les Noces, p. 12 ; Diehl, Byzantine Portraits, p. 180 .

٥٥ - اختلف المؤرخون حول سنة وفاة الإمبراطورة ثيوفانو . وكان الاعتقاد فى البداية أنها توفيت فى سنة ٨٩٣م ، انظر :

Diehl, Byzantine Portraits, p. 182; Guilland, Les Noces, p. 12

ثم اقترح الأستاذ جرومل سنة ٨٩٧م ، انظر :

Grumel, Régne de Léon VI, pp. 26-27.

أما الأستاذة باتريشيا كارلين هيتر فقد قامت بدراسة أخيرة توصلت فيها إلى أن الوفاة حدثت فى سنة ٨٩٦م على أكثر تقدير وربما فى سنة ٨٩٥م ، انظر :

Karlin-Hayter, Mort de Theophano, pp. 13-19 .

وبمقارنة ما ورد فى المصادر ، وخاصة ما ورد فى سيرة إيثيميوس (الذى حدد يوم العاشر من نوفمبر) وما سجله صاحب سيرة ثيوفانو ، يتضح أن ثيوفانو قد توفيت فى العاشر من نوفمبر سنة ٨٩٦م على أكثر تقدير انظر :

Vita Sanctae Theophano, pp.16,33,42, Vita Euthymii, pp. 45 , 167 .

على أية حال ، تم دفن الإمبراطورة بكل إجلال بجوار كنيسة الرسل المقدسين فى العاصمة ، ثم قام الإمبراطور ليو السادس بتشييد كنيسة حملت اسمها تخليداً لذكراها ، انظر :

Georg. Mon. Cont., p. 860; Theoph. Cont. p. 364 .

٥٦ - Georg. Mon. Cont., p. 860; Vita Sanctae Theophano, pp. 16-18, 47-48 .

وللمزيد عن الاحتفال المرتبط بذكراها ، انظر :

De Caerim., II. 6, p. 533 .

٥٧ - Vita Euthymii, pp. 45,47,174 .

ويلاحظ أن الحوليات البيزنطية تشير إلى وفاة ثيودور مسموماً قبل الإشارة إلى وفاة ثيوفانو ، انظر :

Georg. Mon. Cont., p. 852; Theoph. Cont., p. 357 .

وانظر أيضاً : أسد رستم : الروم ، جـ٢ ، ص ١٥ .

٥٨ - Vita Euthymii, pp. 47-49 .

ويقع دير القديس ديومدس St. Diomedes فى الجزء الجنوبى الغربى من القسطنطينية خلف دير ستوديو Studios ، انظر :

Janin, **Constantinople**, pp. 168 - 169 .

٥٩ - تم تحديد هذا التاريخ فى ضوء الحقائق التالية :

(أ) امتد زواج زوى زاوتزس من ليو السادس مدة سنة وثمانية أشهر .

(ب) كانت زوى زاوتزس على قيد الحياة عندما كتب فيلوثيوس Philotheos قائمته المعروفة Kletorolo-gion فى سبتمبر سنة ٨٩٩م .

(جـ) انعقد الزواج الثالث لليو السادس بعد عيد الفصح سنة ٩٠٠م ، ويجب أن نفترض مرور فترة حداد بين وفاة زوجته الثانية وزواجه للمرة الثالثة . انظر :

Theoph. Cont., p. 361; **Zonaras**, III, p. 444 .

وللمزيد عن تاريخ كتابة قائمة Kletorologion ، انظر :

Bury, **Admin. System**, p. 11 .

ويرى جرومل أن زوى زاوتزس توجت إمبراطورة فى نهاية يناير أو بداية فبراير سنة ٨٩٨م ، انظر :

Grumel, **Régne de Léon** VI, p. 21 .

٦٠ - كان ستيليانوس زاوتزس مقدونيا من أصل زنجى ، عمل مستشاراً فى خدمة الإمبراطور باسيل الأول، وتمتع بنفوذ كبير فى أواخر أيامه ، بل كانت مقاليد الحكومة فى يديه عند وفاة الإمبراطور ، انظر:

Vita Euthymii, p. 5 .

وبعد اعتلاء ليو السادس العرش أصبح ستيليانوس الوزير الأول وحمل ألقاب ماجيستر Magistros والماجيستر الأول Protomagistros واللغثيث المسئول عن الشئون العامة Logothetes tou dromou وأشار له الإمبراطور فى اثنين من قوانينه (الأول ، والثامن عشر) بالماجيستر المسئول عن الدواوين المقدسة Magistros ton theion offikion ، انظر :

Theoph. Cont., p. 354; **Vita Euthymii**, p. 7; **Novellae Leonis**, p. 11 (Nov.1); p. 69 (Nov. 18); Bury, **Admin. System**, pp. 29-31.

بعد زواج ليو السادس من زوى زاوتزس أنعم عليه بلقب « والد الإمبراطور » Basileopator (ويسميه بيورى لقب « والد الإمبراطورة ») . وكان فيلوثيوس Philotheos أول من ذكر هذا اللقب فى قائمته Kletorologion التى نشرها بيورى .

وطبقًا لما ورد فى الحوليات البيزنطية كان هذا اللقب من ابتكار الإمبراطور ليو السادس لتكريم والد زوجته الثانية ، انظر :

Theoph. Cont., p. 357; Sym.Mag., p. 701; Georg.Mon. Cont., p. 852; Bury, Admin. System, pp. 114 - 115, 136 .

ولقد لاحظ الأستاذ جروميل أن رومانوس ليكابينوس Romanos Lecapenos اتخذ أيضًا هذا اللقب فى سبتمبر سنة ٩١٩م عندما أصبح والدًا لزوجة الإمبراطور قسطنطين السابع ، ويقرر أنه لهذا السبب ربطت الحوليات البيزنطية بين هذا اللقب وحقيقة أن من نالوه كانوا آباء لزوجات الأباطرة . أما الأستاذة كارلين هيتر فتعتقد أنه لم يكن مجرد لقب شرفى بل كان منصبًا سياسيًا بمعنى الوصى والمرشد لإمبراطور صغير السن ، وتضيف بأن اللقب لم يكن قاصرًا على آباء زوجات الأباطرة ، انظر :

Grumel, Régne de Léon VI, pp. 36 - 40; Karlin-Hayter, Basileopator, pp. 278-280 .

وانظر أيضًا : Oikonomidès , Préséance, p. 307 .

٦١ - Vita Euthymii, p. 49; Grumel, Régne de Léon VI, p. 21 .

٦٢ - Theoph. Cont. p. 364; Georg. Mon. Cont., p. 860; Sym. Mag. p. 703 .

ولقد أشار البطريرك نيقولا مستيكوس إلى الأميرة أنّا Anna وزواجها من ملك بروفانس فى رسالته رقم (٣٢) إلى البابا أناستاسيوس الثالث انظر :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32. pp. 218 - 220 .

على أية حال ، يبدو أن الأميرة البيزنطية قد توفيت بعد أن أنجبت فى الغرب طفلها الوحيد الذى حمل اسم شارل - قسطنطين Charles-Constantine (حوالى سنة ٩٠٣م) . أما لويس الثالث فكان ملكًا على بروفانس منذ سنة ٨٩٠م ثم أصبح ملكًا على إيطاليا سنة ٩٠٠م ، ونال تاج الإمبراطورية الغربية سنة ٩٠١م ، ولكنه فقد بصره سنة ٩٠٥م وتوفى سنة ٩٢٨م . أما شارل - قسطنطين فقد أصبح بعد ذلك كونت فيينا Vienne وتوفى سنة ٩٦٥م . للمزيد عن أنّا Anna ابنة زوى زاوتزس ، انظر :

Ohnsorge, Töchter Kaiser Leons VI, pp. 78-81,

وللمزيد عن شارل قسطنطين ، انظر :

Ohnsorge, Abendland und Byzanz, pp. 35, 228-234; Previté-Orton, Charles-Constantine, pp. 703-706.

٦٣ - Theoph. Cont., p. 364; Sym. Mag., pp. 703-704; Georg. Mon. Cont., p. 860; Grumel, Régne de Léon VI, pp. 18-19 .

٦٤ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, pp. 218-220.

وانظر أيضًا تعليق الأستاذة كارلين هيتر على نص سيرة إيثيميوس فى : Vita Euthymii, p. 181 .

٦٥ - Novellae Leonis, pp. 296-298 .

٦٦ - بعد وفاة زوجته الأولى سنة ٦١٢م تزوج هرقل للمرة الثانية من ابنة أخيه مارتينا Martina منتهكًا بذلك الأعراف والقوانين ، انظر : Speck, Das Geteilte Dossier, p. 31; Ostrogorsky, State, p. 112 ، أما قسطنطين السادس فبعد أن انفرد بالحكم وتخلص من وصاية أمه سنة ٧٩٠م ، قام بطلاق زوجته ماريا Maria وتزوج للمرة الثانية من محظية فى القصر تدعى ثيودوت Theodote . واعتبرت العناصر المتشددة من رجال الكنيسة والرهبان طلاق الإمبراطور من ماريا (دون سبب) باطل ، وبالتالى فإن زواجه الثانى غير شرعى ، انظر : . Ostrogorsky, State, pp. 180 - 181

٦٧ - وتم تتويجها إمبراطورة فى أول أبريل سنة ٧٦٩م ، انظر :

Theophanes, I, p. 443; Guilland, Les Noces, p. 13 .

٦٨ - Theodori Studitarum Epistolae, col. 1092 A .

وقارن أيضًا : Guilland, Les Noces, p. 13 .

وترجح الأستاذة كارلين هيتر حضور البطريرك أنطون كاولياس طقس الزواج الثالث للإمبراطور ليو السادس، انظر تعليقها فى : Vita Euthymii, p. 183 .

٦٩ - Theoph. Cont., p. 364; Sym. Mag., p. 704; Georg. Mon. Cont., p. 860; Vita Euthymii, p. 63 .

وذكر قسطنطين السابع بعد ذلك أن أباه أطلق على هذا الطفل اسم باسيل إلا أنه توفى بعد فترة قصيرة من مولده ، انظر : De Caerim., II. 42, p. 643 .

٧٠ - حملت زوى الثانية لقب كاربونوبسينا Carbonopsina بمعنى « ذات العيون السود » بسبب لون عينيها الداكن ، انظر :

Diehl, Byzantine Portraits, p. 187; Runciman, Romanus Lecapenus, p. 42 .

وانظر أيضًا : الباز العرينى : الدولة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١م ، (دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥م) ص ٣٧٣ ؛ أسد رستم : الروم ، جـ٢ ، ص ١٥ .

٧١ - DAI, I. 22, p. 98; II, p. 80; Runciman, Romanus Lecapenus, p. 42.

٧٢ - Vita Euthymii, p. 109 .

٧٣ - أشار الطبرى إلى أن المبعوث البيزنطى الذى حضر إلى بغداد فى عام ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ - ٩٠٧م كان خالاً لقسطنطين السابع ابن الإمبراطور ليو السادس . هذا المبعوث البيزنطى هو ليو خويروسفاكتس انظر : الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، (دار المعارف ، القاهرة ، د.ت) جـ١٠ ، ص ١٣٥ .

ولقد أشار هذا المبعوث بنفسه فى إحدى رسائله الخاصة ، التى نشرها كولياس ، إلى صلة القرابة التى تربطه بأسرة الإمبراطور ليو السادس ، انظر ماجاء فى رسالته رقم (٢٢) فى :

Kolias, **Léon Choerosphactés**, pp. 114 , 115 .

وللمزيد عن هذا الدبلوماسى ومهمته فى بغداد ، انظر :

Vasiliev, **Byzance et les Arabes**, II/1, p. 192; II/2, p. 21; Jenkins, **Leo Choerosphactes**, pp. 167-175 .

٧٤ - تروى المصادر البيزنطية فى معرض وصفها لمحاولة اغتيال الإمبراطور ليو السادس ، أن ساموناس Samonas ، أحد كبار موظفى القصر المقربين من الإمبراطور ، لم يكن موجوداً مع الإمبراطور وقت محاولة اغتياله لأنه كان يقوم بمرافقة زوى كاربونوبسينا إلى القصر الإمبراطورى ، انظر :

Georg.Mon.Cont., p. 861. Cf. Theoph. Cont. p. 366 .

٧٥ - **Georg.Mon.Cont.**, p. 862; Jenkins and Laourdas, **Letters of Arethas**, p. 336 .

٧٦ - انظر نص القانون رقم (٩١) فى : **Novellae Leonis**, pp. 298 - 301 .

٧٧ - **Theoph. Cont.**, p. 370; **Sym. Mag.**, p. 708; **Georg.Mon.Cont**, p. 865.

ولايزال التحديد الدقيق لتاريخ ميلاد قسطنطين السابع غير معروف ، انظر :

Jenkins and Laourdas, **Letters of Arethas**, p. 336; Constantinides, **Nikolaos ho Mystikos**, p. 44; Salaville, **Léon VI le Sage**, cols. 369-370 .

ويلاحظ أن كلمة بورفيروجنيتوس Porphyrogenitons (بمعنى المولود فى الأرجوان) قد لازمت اسمه لتأكيد شرعية انتسابه للإمبراطور ليو السادس .

٧٨ - Grumel, **Les Regestes**, nos. 602-603, pp. 136 - 137; Diehl, **Byzantine Portraits**, p. 191 .

٧٩ - انظر الرسالة رقم (٧) التى كتبها أرثاس إلى الإمبراطور ليو السادس وتعليق جنكنز عليها فى :

Jenkins and Laourdas, **Letters of Arethas**, pp. 332, 335-336 .

٨٠ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 218; Jenkins, Imperial Centuries, p. 222 .

أشار صاحب سيرة إيثيميوس إلى بعض الأساقفة الذين أصروا على الاعتراض على تعميد الطفل مثل الأسقف إبيفانيوس Epiphanios انظر : Vita Euthymil, p. 71 .

قارن أيضًا : أسد رستم : الروم ، جـ٢ ، ص ١٦ ، جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ، ٢٨٤ - ١٤٥٣م (مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٤م) ، ص ١٥٠ .

٨١ - Theoph. Cont., p. 370; Georg. Mon. Cont., p. 865; Leo Gramm., p. 279; Zonaras, III, p. 446 .

ويلاحظ أن صاحب سيرة إيثيميوس لا يشير إلى إسكندر عم الطفل . ومن الثابت حضور إيثيميوس تعميد الطفل فقد كان عليه أن يؤدى دور الأب الروحى ولكن بسبب ضعفه وتقدمه فى السن قام ساموناس بحمل الطفل بين يديه بدلاً منه ، انظر : Vita Euthymil, pp. 71, 113 .

وقارن أيضًا : محمود سعيد عمران : نيقولا مستيكوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية من خلال مراسلاته ، (دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠م) ، ص ١٠ . وجدير بالذكر أن ساموناس كان خصيًا من أصل عربى ، جاء من مدينة ملطية وعمل فى خدمة أسرة زاوتزس Zautzes . وبعد وفاة ستيليانوس وابنته الإمبراطورة زوى زاوتزس ببضعة أشهر ، كشف ساموناس للإمبراطور ليو السادس عن مؤامرة باسيل ابيكتس Basil Epeiktes (أحد أقارب الإمبراطورة الراحلة زوى زاوتزس) ، فأعجب به الإمبراطور وقام بتعيينه حاجبًا Cubicularius فى القصر الإمبراطورى ، ثم أنعم عليه بلقب بروتوسباثاريوس Protospatharius (أواخر سنة ٩٠٤م) . وفى سنة ٩٠٧م شغل ساموناس منصب براكويمومنوس Parakoimomenos (الحاجب الأول المسئول عن غرفة نوم الإمبراطور) وازداد نفوذه فى القصر لدرجة أن المصادر تشير إلى أنه كان يحتل المركز الثانى بعد الإمبراطور . وطوال السنوات الثمان التى عمل فيها فى خدمة الإمبراطور (٩٠٠ - ٩٠٨م) تولى ساموناس جهاز الأمن السرى واستطاع اكتشاف مؤامرة اندرونيكوس دوقاس . على أية حال ، فى سنة ٩٠٨م غضب الإمبراطور على تابعه المخلص أثر وشاية وقام بنفيه إلى أحد الأديرة ، انظر :

Georg.Mon. Cont., pp. 857-859, 869-870; Vita Euthymii, pp. 49, 51, 176 - 177; Janin, Samonas, pp. 307 - 318; Jenkins, Flight of Samonas, pp. 217-235 .

٨٢ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 218; Jenkins and Laourdas. Letters of Arethas, p. 337 .

٨٣ - انظر نص هذا القانون فى : Novelae Leonis, pp. 295 - 296 .

٨٤ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 218 , 222 ; Georg. Mon. Cont., p. 865; Sym. Mag., p. 709; Theoph. Cont., p. 370, Leo Gramm., p. 279; Kolias, Léon Choerosphactés, p. 50 .

وانظر أيضًا : أسد رستم : الروم ، جـ٢ ، ص ١٦ ؛ محمود سعيد عمران : نيقولا مستيقوس ، ص ١١ ؛ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

ويلاحظ أن المصادر لاتذكر على وجه التحديد تاريخ انعقاد هذا الزواج الرابع ، ويمكن ترجيح انعقاده بين النصف الثانى من أبريل وشهر يونيو سنة ٩٠٦م ، فى ضوء ما يلى :

(أ) تذكر الحوليات البيزنطية أن الزواج انعقد بعد عيد الفصح (= ١٣ من أبريل) سنة ٩٠٦م .

(ب) ذكر البطريرك نيقولا مستيكوس أن مبعوثى البابا وصلوا إلى القسطنطينية فى الشهر الثامن أو التاسع بعد انعقاد الزواج . والمعروف أن وصولهم كان فى فبراير سنة ٩٠٧م .

ويرجع الأستاذ جنكنز انعقاده يوم الأحد التالى لعيد الفصح . وحول اختلاف المؤرخين فى تحديد تاريخ هذا الزواج انظر :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 337; Constantinides, Nikolaos ho Mystikos, p. 47; Karlin-Hayter, Synode, pp. 60-62 .

٨٥ - Georg. Mon. Cont., p. 865; Sym. Mag., p. 709; Leo Gramm., p. 279 .

وتعتقد الأستاذة كارلين هيتر أن قرار الحرمان صدر عقب اجتماع المجمع الدينى لبطريركية القسطنطينية وبالإجماع انظر :

Karlin-Hayter, Synode, pp. 66, 74 .

ولقد ترتب على ذلك حرمان الإمبراطور من دخول الجزء الرئيسى من الكنيسة (بما فى ذلك المذبح) للاشتراك فى القداس الدينى كما جرت العادة . واضطر ليو السادس إلى متابعة القراءة فى الكتاب المقدس من غرفة صغيرة ملحقة بالجانب الأيمن من مذبح كنيسة الحكمة المقدسة تسمى mitatorion . وكان الأباطرة يستخدمونها عادة للاستراحة وتغيير الملابس . وللمزيد عن هذه الغرفة ، انظر :

Theoph. Cont., p. 370; De Caerim. I, pp. 16, 17, 65, 145, 167; Goar, Euchologion, pp. 499-500; Ebersolt, Sainte-Sophie, pp. 17-19 .

٨٦ - انظر رواية نيقولا مستيكوس للأحداث كما وردت فى رسالته رقم (٣٢) إلى البابا أناستاسيوس الثالث Anastasius III سنة ٩١٢م فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, pp. 214-244 .

٨٧ - ومن بين كتابات أرثاس المتنوعة تعتبر رسائله الثمانية على جانب كبير من الأهمية لأنها تتناول قضية الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس . ولقد قام الأستاذان باسيل لاورداس ، وروملى جنكنز بنشر هذه الرسائل والتعليق عليها سنة ١٩٥٦م ، انظر :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 293-372 .

أما خطب أرثاس التسع فتعتبر خطبًا رسمية ألقاها جميعًا (باستثناء خطبته رقم « ٤ ») أمام الإمبراطور ليو السادس فى احتفالات رسمية أثناء شغله منصب المتحدث أو الخطيب الرسمى فى القصر بين عامى ٩٠١م و ٩٠٢م . وتتضمن هذه الخطب مادة خصبة عن عهد الإمبراطور ليو السادس ، وقد قام فريق من الباحثين مكون من : روملى جنكنز ، وباسيل لاورداس ، وسيريل مانجو بنشر هذه الخطب والتعليق عليها سنة ١٩٥٤م ، انظر :

Jenkins, Laourdas, Mango, Nine Orations, pp. 1-40.

للمزيد عن أرثاس انظر الدراسة القيمة التى قام بها الأستاذ كوجياس ، فى :

Kougeas, Kaisareias Arethas, pp. 33-35, 85-89 .

٨٨ - ولد أرثاس سنة ٨٥٠م فى مدينة باتراس Patras فى شبه جزيرة البلوبونيز وكان ينتمى لأسرة عريقة . وفى سنة ٨٩٥م انضم للسلك الكنسى وامتد عمره حتى سنة ٩٣٢م انظر :

Kougeas, Kaisareias Arethas, pp. 1-5, 8-9; Jenkins, Laourdas, Letters of Arethas, p. 341; Grégoire, Âge Héroique, p. 385 .

٨٩ - Jenkins, Laourdas, Mango, Nine Orations, pp. 2-3; Kougeas, Kaisareias Arethas, pp. 7-10.

٩٠ - وفى خطبة أخرى ألقيت فى حفل غداء فى مقر البطريركية وفى حضور الإمبراطور أيضًا ، كرر أرثاس كلمات الإطراء بشكل موجز بمناسبة مرور عام على اعتلاء نيقولا عرش البطريركية ، انظر نص الخطبة رقم (١) ، والخطبة رقم (٨) فى :

Jenkins, Laour das, Mango, Nine Orations, pp. 17-20, 36-37 .

٩١ - انظر الرسالة رقم (١) التى كتبها أرثاس للبطريرك نيقولا والتى يرجع تاريخها إلى منتصف سنة ٩٠١م ، والتعليق عليها فى :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 294 - 298, 349-351.

وانظر أيضًا :

Jenkins, Imperial Centuries, p. 220 .

٩٢ - Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 351 .

٩٣ - انظر ما ورد فى الرسالتين رقم (٣) ورقم (٤) ، فى :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 303 - 307, 310, 320 .

٩٤ - انظر ما ورد فى الرسالتين رقم (٣) ورقم (٤) وخاصة رقم (٥) ، فى :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 307-311, 318, 324-326 .

٩٥ - عثر الأستاذ هيرشفلد Hirschfeld على مخطوطة إيثيميوس سنة ١٨٧٤م ، وقام الأستاذ دى بور De Boor بنشرها سنة ١٨٨٨م فى برلين مع التعليق عليها . ولما كانت المخطوطة بلا عنوان فقد أطلق عليها دى بور De Boor سيرة إيثيميوس Vita Euthymii لأن الراهب إيثيميوس هو الشخصية الرئيسية التى تدور حولها الأحداث . انظر :

Vita Euthymii, Ein Anecdoton zur Geschichte Leon's des Weisen, A.D. 886-912, ed. C.De Boor (Berlin, 1888) .

وفى سنة ١٩٥٧م قامت الأستاذة كارلين هيتر بإعادة نشر المخطوطة مع ترجمة إنجليزية صدرت فى مجلد يضم عدة أجزاء من دورية Byzantion انظر :

P. Karlin-Hayter, " Vita S. Euthymii", B. 25-27 (1955-1957), pp. 1-172 and Appendix, pp. 747-778 .

وفى سنة ١٩٥٩م أصدر الأستاذ الكسندر كجدان A. Kahzdan ترجمة روسية للمخطوطة مع تعليق دون نشر النص اليونانى ، وقد قامت الأستاذة كارلين هيتر بإعداد دراسة نقدية لهذه الترجمة ، انظر :

Byzantion, 32 (1962), pp. 317-322 .

وفى سنة ١٩٧٠م أعادت الأستاذة كارلين هيتر نشر المخطوطة كاملة مع ترجمة إنجليزية وتعليق وهى التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة . انظر هذه المخطوطة والتعليق فى :

Vita Euthymii, pp. 1-147 . (النص) ، pp. 148-233 (التعليق)

٩٦ - Vita Euthymii, pp. 69-71, 72- 82; Karlin-Hayter, Synode, pp. 76-77 .

٩٧ - انظر الرسالة رقم (٥) لأرثاس والتعليق عليها فى :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas ,pp. 324-343.

وانظر أيضًا :

Vita Euthymii, pp. 93 .

٩٨ - يفسر صاحب سيرة إيثيميوس قيام البطريرك بتعميد قسطنطين فى ٦ من يناير سنة ٩٠٦م واستعداده للاستجابة لرغبة الإمبراطور على أساس افتضاح أمر تورطه فى مؤامرة القائد أندرونيكوس دوقاس Andronicus Dukas التى انتهت بتمرده . وطبقًا لهذه الرواية ، وقعت فى يد الإمبراطور رسالة أرسلها البطريرك للقائد المتمرد فى آسيا الصغرى خاطبة فيها بإمبراطور المستقبل ونصحه بمواصلة الثورة وعدم الاستجابة لوعود العفو عنه ، انظر :

Vita Euthymii, p. 68 .

٩٩ - Georg.Mon. Cont., p. 866; Scylitzes, p. 185 .

وانظر أيضًا : أسد رستم : الروم ، جـ٢ ، ص ١٦ .

١٠٠ - Vita Euthymii, p. 197; Karlin-Hayter, Synode, p. 74 .

والمعروف أن الإمبراطور فى الأحوال الطبيعية له حق دخول مذبح الكنيسة لحضور القداس الدينى .

١٠١ - Vita Euthymii, pp. 71-73, 83-85; Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 343; Jenkins, Tetragamy, p. 234 .

١٠٢ - Karlin-Hayter, New Arethas Texts, pp. 281, 291 - 293; Karlin-Hayter, Synode, p. 76 .

١٠٣ - Vita Euthymii, p. 197 .

وانظر أيضًا رسالة أرثاس رقم (٣) فى :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 305 - 306 .

١٠٤ - Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 294-333 .

١٠٥ - Vita Euthymii, pp. 73, 79 , 81 .

١٠٦ - انظر تعليق الأستاذ جنكنز فى :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 343 .

١٠٧ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 222 .

١٠٨ - Vita Euthymii, pp. 73 , 81 .

وقارن أيضًا :

Jenkins, Tetragamy, p. 234; Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 343; Karlin-Hayter, Arethas Documents IV, p. 461 .

١٠٩ - يظهر التناقض بوضوح فى رسالة البطريرك نيقولا مستيكوس رقم (٣٢) إلى البابا أناستاسيوس الثالث . ففى البداية يدعى البطريرك أنه صاحب اقتراح دعوة البابوية وبطريركيات الشرق لعقد مجمع دينى لحسم قضية الزواج الرابع ، ثم يشكو بعد ذلك من تجاهل الإمبراطور له وقيامه بدعوة البابوية للنظر فى شأن من شئون الكنيسة البيزنطية ، انظر :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 222 .

١١٠ - عن ازدياد قوة المعارضة ، انظر :

Vita Euthymii, p. 81 .

وعن محاولات الإمبراطور الضغط على المعارضة ، انظر رسالة أرثاس رقم (٧) والتعليق عليها فى :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 332, 344, 369.

١١١ - Vita Euthymii, pp. 75,77, 85 .

وانظر أيضًا حاشية رقم (٨٥) .

١١٢ - يروى صاحب سيرة إيثيميوس أن نيقولا مستيكوس اعترض دخول الإمبراطور إلى الكنيسة فى عيد الغطاس قائلاً له :

" طالما لم يوافق جميع الأساقفة بما فيهم أرثاس ، فإننى لا أستطيع السماح لك بدخول الكنيسة . وإذا حاولت يا صاحب الجلالة الدخول بالقوة ، فإننى وكل الحاضرين سنغادر المكان على الفور " . انظر :

Vita Euthymii, pp. 77-79, 85 .

ويعتقد بعض المؤرخين أن قيام البطريرك بمنع الإمبراطور من دخول الكنيسة فى مناسبتى عيد الميلاد وعيد الغطاس كان تنفيذاً لقرار المجمع الدائم لبطريركية القسطنطينية ، انظر :

Hajjar, Synode Permanent, p. 133 .

١١٣ - Vita Euthymii, pp. 73-75 .

١١٤ - Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 344.

١١٥ - Lambros and Kougeas, Epistole Niketa, pp. 301 - 306, 311.

وانظر أيضًا :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 344-345 .

١١٦ - Vita Euthymii, pp. 77, 83; Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 334,345; Karlin-Hayter, Synode, pp. 75-76 .

١١٧ – ويعتقد بعض المؤرخين أن التبدل الذى طرأ على موقف نيقولا مستيكوس وانضمامه إلى المعارضة فى آخر الأمر يرجع لاعتراضه على تدخل البابوية وإصراره على تأكيد استقلال الكنيسة البيزنطية ، انظر:
Diehl, **Byzantine Portraits**, p. 194 ; Salaville, **Léon VI le Sage**, col. 371 .

١١٨ – وتعتبر هذه الوليمة من مظاهر الاحتفال الرسمى بعيد العماد Epiphany وتتطلب حضور البطريرك وأعضاء المجمع الدائم للبطريركية ، انظر :

Bury, **Admin. System**, pp. 162 - 164 .

١١٩ – **Vita Euthymii**, pp. 79,208 .

١٢٠ – **Vita Euthymii**, pp. 79 - 81 .

١٢١ – **Vita Euthymii**, p. 81 .

١٢٢ – **Vita Euthymii**, pp. 81- 83 .

١٢٣ – **Vita Euthymii**, pp. 83, 209-210; Grumel, **Les Regestes**, no. 611, p. 140; Karlin-Hayter, **Arethas Documents IV**, p. 389.

وانظر أيضًا : محمود سعيد عمران : نيقولا مستيقوس ، ص ١١ .

١٢٤ – **Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters**, Ep. 32, p. 224; **Vita Euthymii**, p. 83; Constantinides, **Nikolaos ho Mystikos**, p. 50 .

١٢٥ – **Vita Euthymii**, p. 83 .

١٢٦ – **Vita Euthymii**, p. 85-87 .

١٢٧ – علم الإمبراطور أن مندوبى بطريركيات المشرق (أنطاكية ، بيت المقدس ، الإسكندرية) فى طريقهم إلى القسطنطينية من رسالة وصلته من مبعوثه ليو خويروسفاكتس الذى كان مكلفًا بمهمة إحضارهم إلى القسطنطينية ، انظر : **Vita Euthymii**, pp. 87, 211 .

ويذكر ليو خويروسفاكتس نفسه فى رسالته رقم (٢٣) أنه أحضر معه مندوبين عن كنيستى أنطاكية وبيت المقدس دون الإشارة إلى الإسكندرية ، انظر :

Kolias, **Léon Choerosphactès**, p. 113 .

وجدير بالذكر أن كرسى بطريركية الإسكندرية كان شاغراً فى ذلك الوقت . وكان سمعان الأول على رأس بطريركية أنطاكية حتى سنة ٩٠٧م ، وتلاه ألياس الأول Elias I حتى سنة ٩٣٤م . أما بطريركية بيت

المقدس فكان على رأسها إلياس الثالث Elias III (٨٧٨ - ٩٠٧م) ، ثم تلاه سرجيوس الثانى (٩٠٧ - ٩١١م) ، انظر :

Grumel, La Chronologie, pp. 443, 447, 452 .

كذلك علم الإمبراطور بالرد الإيجابى للبابا سرجيوس الثالث Sergius III (٩٠٤ - ٩١١م) من رسالة وصلته من السكرتير الإمبراطورى سيميون ، الذى كتب للإمبراطور من أوترانتو Otranto بإيطاليا ، انظر: Vita Euthymii, pp. 87, 211 .

وللمزيد عن هذا السكرتير الإمبراطورى ، انظر :

Theoph. Cont., p. 368; Sym. Mag., p. 707; Georg.Mon. Cont., p. 863; Browning, Correspondence, p. 431 .

١٢٨ - Vita Euthymii, pp. 87, 212; Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 224; Oikonomidès, Dernière Volonté, p. 46 .

١٢٩ - ذكر نيقولا مستيكوس فى رسالته إلى البابا إناستاسيوس الثالث ، أن الإمبراطور منع اتصاله بمندوبى البابوية ، انظر :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 224.

وقارن أيضًا : Vita Euthymii, pp. 197 - 199; Karlin-Hayter, Synode, p. 62 .

١٣٠ - Vita Euthymii, pp. 87-89; Theoph. Cont., p. 371; Sym. Mag., p. 709; Georg. Mon. Cont., p. 865; Leo Gramm., pp. 279 - 280; Scylitzes, p. 185; Guilland, Les Noces, p. 17 .

وللمزيد عن ضاحية هيريا ودير جالاكرنس Galacrenes انظر :

Janin, Constantinople, pp. 453 - 454; Janin, Hiéria, pp. 50 - 58 .

١٣١ - Vita Euthymii, p. 89 .

١٣٢ - Vita Euthymii, p. 89-91 .

١٣٣ - Vita Euthymii, pp. 91 , 212 .

١٣٤ - Vita Euthymii, pp. 93, 214; Grumel, Les Regestes, no. 612, p. 141 .

١٣٥ - Vita Euthymii, pp. 93, 214 .

١٣٦ - Vita Euthymii, p. 93 ; Grumel, Les Regestes, no. 612, p. 141 .

١٣٧ - Vita Euthymii, p. 93; Grumel, Les Regestes, no. 613 p. 141 .

١٣٨ - تختلف المصادر البيزنطية فى بيان أسباب عصيان القائد أندرونيكوس دوقاس وأبعاد تمرده . فسيرة إيثيميوس ، التى تتخذ موقفًا معاديًا منه ومن نيقولا مستيكوس ، تصور عصيانه فى شكل ثورة استهدفت الإطاحة بالإمبراطور واغتصاب العرش وتورطت فيها عدة شخصيات من بينها البطريرك ، كما تشير بوضوح إلى لجوء الثائر إلى بغداد قبل عزل نيقولا مستيكوس ، انظر :

Vita Euthymii, pp. 69, 71, 73 , 77, 190 - 191 .

أما الحوليات البيزنطية التى استقت مادتها من حولية سيميون اللغثيث ، فتميل إلى تمجيد أسرة دوقاس Doukai والدفاع عن أندرونيكوس وتقدم رواية موجزة ومضطربة مؤداها أن القائد الكبير وقع ضحية دسائس ساموناس ، وعندما أدرك ذلك كان الوقت قد تأخر فاضطر إلى الاعتصام فى حصن كافالا Ca-vala . كما تشير بوضوح إلى لجوء الثائر إلى بغداد بعد أن علم بعزل البطريرك نيقولا مستيكوس انظر :

Theoph. Cont., pp. 371 - 373 , 374; Sym. Mag., pp. 710-711; Georg. Mon. Cont., pp. 867 - 868 ; Leo Gramm., pp. 280-281; Scylitzes, p. 187 .

١٣٩ - Jenkins, Flight of Samonas, pp. 219, 223-224 .

وتجدر الإشارة إلى أن أسرة دوقاس احتلت مكانة رفيعة فى نفوس البيزنطيين ، ويظهر هذا بوضوح فى الأدب البيزنطى . وكان بطل ملاحم القتال فى منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية ديجنيس أكريتس Dig-enis Akrites يمت بصلة قرابة لهذه الأسرة ، إذ كانت أمه ابنة القائد أندرونيكوس دوقاس ، انظر :

Mavrogordato, Digenes Akrites, p. 6 and introd. pp. xxx-xxxi

ويروى المؤرخ البيزنطى ميخائيل بسللوس أنه فى أيامه (النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى) كان اسم أسرة دوقاس يتردد بالمديح فى الأغانى الشعبية ، كما كان اسم أندرونيكوس دوقاس وابنه قسطنطين على كل لسان ، انظر :

Psellos, Chronographie, II, p. 140 .

وللمزيد عن أسرة دوقاس ومكانتها فى المجتمع البيزنطى ، انظر :

Polemis, The Doukai, pp. 1-15 .

١٤٠ - وربما حاول المتآمرون الحصول على دعم بحرى من السلطات الإسلامية فى ثغر طرسوس ، ففى هذا تفسير لخط سير الحملة البحرية الإسلامية التى قادها ليو الطرابلسى Leo of Tripoli فى يوليو سنة ٩٠٤م ، والتى انتهت باقتحام مدينة سالونيكا Thessaloniki ثانى أكبر المدن البيزنطية ، انظر :

Jenkins, Flight of Samonas, pp. 223-231.

١٤١ - يشير الطبرى إلى إغارة قام بها أندرونيكوس دوقاس على مرعش ونواحيها فى خريف سنة ٩٠٤م / ٢٩٢هـ ، انظر :

الطبرى : **تاريخ الرسل والملوك** ، جـ١٠ ، ص ١١٨ .

وربما كانت هذه الإغارة انتقامًا من الحملة الإسلامية ضد سالونيكا فى صيف نفس العام ، انظر :

Vasiliev, **Byzance et les Arabes**, II/1, p. 181; Canard, **Deux Épisodes**, p. 56 .

ويبدو أن أندرونيكوس استمر فى عملياته العسكرية فى نفس المنطقة فى العام التالى سنة ٩٠٥م .انظر :

Polemis, **The Doukai**, pp. 17-18 .

١٤٢ - للمزيد عن العداء بين ساموناس وأندرونيكوس دوقاس وعصيان الأخير لأوامر الإمبراطور ، انظر :

Theoph. Cont., pp. 369, 371-372; **Sym. Mag.**, pp. 708, 710; **Georg. Mon. Cont.**, pp. 863-864; Karlin-Hayter, **Andronicus Ducas**, p. 24; Vasiliev, **Byzance et les Arabes**, II/1, pp. 184-187

وعن موقع حصن كافالا Cavala (Kavalla) ، انظر :

Polemis, **The Doukai**, p. 18, n. 7; Ramsay, **Historical Geography**, p. 359 .

١٤٣ - **Vita Euthymii**, p. 69 .

١٤٤ - انظر حاشية رقم (١٣٨) . وانظر أيضًا :

الطبرى : **تاريخ الرسل والملوك** ، جـ١٠ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، ١٣٦ ؛ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) : **التنبيه والإشراف** ، نشر لجنة تحقيق التراث ، (دار الهلال ، بيروت ١٩٨١م) ، ص١٦٤ .

وانظر كذلك :

Canard, **Deux Épisodes**, pp. 56-57; Vasiliev, **Byzance et les Arabes**, II/1,pp. 187-188; Karlin-Hayter, **Andronicus Ducas**, p. 24.

١٤٥ - **Vita Euthymii**, pp. 69-71; Grumel, **Les Regestes**, no. 601, p. 136; Vasiliev, **Byzance et les Arabes**, II/1, p. 189 .

١٤٦ - Popov, **Imperator Leo VI**, pp. 101-102.

١٤٧ - Polemis, **The Doukai**, p. 19 .

١٤٨ - Jenkins and Laourdas, **Letters of Arethas**, p. 347.

١٤٩ - ولد إيثيميوس حوالى سنة ٨٣٢م فى سلوقية Seleucia بإقليم إيسوريا Isauria بجنوب شرق آسيا الصغرى ، وكان يمت بصلة قرابة للقديس جريجورى ديكابوليت Gregory Decapolite . بدأ حياته راهبًا فى أحد أديرة بيثينيا (جبل الأوليمب M. Olympos) ثم عرف طريقه إلى العاصمة . ولقد جذبت تقواه وفضائله الإمبراطور ليو السادس فعينه فى منصب Syncellos أى مساعداً ومستشاراً لأخيه البطريرك ستفن Stephen فى عام ٨٨٨/٨٨٩م ، ثم أصبح أب الاعتراف لليو السادس . وشيد له الإمبراطور دير بساماثيا Psamathia الذى يقع بالقرب من دير ستوديو Studios فى القسطنطينية ، انظر مقدمة سيرة إيثيميوس : **Vita Euthymii**, p. 31, n. 2 .

وانظر أيضًا : Jugie, **Vie d'Euthyme**, pp. 385-395 .

وعن منصب Syncellos ، انظر أيضًا : Bury, **Admin. System**, pp. 116-117 .

وكانت فضائل إيثيميوس موضوع المرثية التى ألقاها أرثاس فى حفل تأبينه فى دير بساماثيا ، انظر نص هذه المرثية Epitaphios فى :

Arethas, **Scripta Minora**, I, pp. 83-93 .

ويبدو أن إيثيميوس تمتع باحترام كبير لأن الحوليات البيزنطية تمتدح فضائله أيضًا ، انظر :

Theoph. Cont., p. 371; **Sym. Mag.**, p. 709; **Georg.Mon. Cont.**, pp. 865-866; **Scylitzes**, p. 185; **Zonaras**, III, p. 449 .

١٥٠ - **Vita Euthymii**, pp. 95-97 .

١٥١ - **Vita Euthymii**, p. 97 .

١٥٢ - انظر حاشية رقم(٩٩) .

١٥٣ - **Vita Euthymii**, p. 99 .

١٥٤ - يلاحظ أن هناك جماعة صغيرة من الأساقفة ظلت ترفض التسامح كما سيتضح بعد ذلك . وعلى هذا فالموافقة لم تكن بالإجماع . للمزيد عن مضمون هذه الاستقالة ، انظر :

Vita Euthymii, p. 99; Grumel, **Les Regestes**, no. 614, pp. 141-142.

١٥٥ - **Vita Euthymii**, p. 101 .

يلاحظ أن الإشارة إلى وصول مبعوث بطريركية الإسكندرية واضحة فى رواية صاحب سيرة إيثيميوس ، قارن حاشية رقم (١٢٧) . أما بالنسبة لتوقيت وصول مبعوثى البابوية ، فتختلف رواية نيقولا

مستيكوس عن رواية صاحب السيرة . فالأول يذكر أنهم وصلوا قبل عيد القديس تريفون St. Tryphon (الذى يوافق ١ فبراير ٩٠٧م) ، بينما يذكر الثانى أنهم كانوا فى طريقهم إلى العاصمة البيزنطية فى ذلك اليوم ، أى أنهم وصلوا بعد نفى نيقولا وليس قبله . ورغم ذلك تتفق الروايتان على حقيقة أن نيقولا لم يلتق بهم . قارن بين :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 224; Vita Euthymii, pp. 85-87 .

١٥٦ - Vita Euthymii, pp. 101-103; Karlin-Hayter, Synode, pp. 85-86 .

١٥٧ - لم تصلنا للأسف نصوص قرارات هذا المجمع . وتعتقد الأستاذة كارلين هيتر أن المجمع انعقد فى مارس سنة ٩٠٧م ، وأن نيقولا مستيكوس قام بعد استرداده عرش البطريركية سنة ٩١٢م بإزالة كل أثر لقراراته ، انظر : Karlin-Hayter, Synode, pp. 68-69 .

ومن المرجح انعقاد هذا المجمع فى أواخر فبراير على أساس التسلسل الزمنى للأحداث كما وردت فى سيرة إيثيميوس . ويميل الأستاذ جرومل إلى الاعتقاد أن إيثيميوس اعتلى عرش البطريركية فى فبراير سنة ٩٠٧م ، انظر : Grumel, La Chronologie, p. 436 .

١٥٨ - Vita Euthymii, pp. 101 , 139-141; Arethas, Scripta Minora, I, p. 86; Karlin-Hayter, Synode, p. 69; Grégoire, Macedonians, p. 132 .

١٥٩ - Popov, Imperator Leo VI, pp. 164 - 165 .

وأيد الأستاذ جنكنز هذا التفسير ، انظر :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 342-343 .

١٦٠ - Karlin-Hayter, Synode, pp. 90-92; Dvornik, Photian Schism, pp. 275-277 .

١٦١ - Vita Euthymii, pp. 73, 85-87, 99, 101, 139-141 .

وقارن أيضاً :

Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 345 .

١٦٢ - انظر ما سبق ذكره بالنسبة لموقف كنيسة روما من مسألة تكرار الزواج ، وقارن حاشية (٤٧) .

١٦٣ - Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, p. 346 .

١٦٤ - أشار نيقولا مستيكوس فى رسائله إلى ألوان الاضطهاد التى تعرض لها هو وأنصاره ، انظر مثلاً رسالته رقم (٣٢) إلى البابا أناستاسيوس الثالث ، ورسالته رقم (١٣٢) إلى جريجورى أسقف أفسوس Gregory of Ephesus وفوتيوس أسقف هرقلة Photios of Heraclea فى المنفى ، فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Eps. 32, 132, pp. 224, 430 .

أما نيكتاس البافلاجونى فكان نصيبه من الاضطهاد كبيراً ، وقد تدخل البطريرك إيثيميوس بنفسه لإنقاذه من غضب الإمبراطور . للمزيد عن اضطهاد نيكتاس ، انظر :

Vita Euthymii, pp. 105-109, 217-220 .

١٦٥ - Vita Euthymii, p. 103; Karlin - Hayter, Texts, pp. 364, 386-388; Kougeas, Kaisareias Arethas, p. 75 .

١٦٦ - Vita Euthymii, pp. 103-105; Karlin-Hayter, New Arethas Texts, p. 275; Jenkins, Imperial Centuries, pp. 224-225 .

١٦٧ - Vita Euthymii, p. 103 .

١٦٨ - Karlin-Hayter, Arethas Documents V, p. 49; Jenkins and Laourdas, Letters of Arethas, pp. 345-346, 350-351.

ويلاحظ أن أرثاس حاول فى رسالة بعثها إلى نيكتاس البافلاجونى إخفاء ارتياحه لسقوط نيقولا مستيكوس ، انظر : Karlin-Hayter, Texts, pp. 382-388 .

كما عبر أرثاس للإمبراطور عن سعادته باعتلاء إيثيميوس عرش البطريركية ، انظر :

Vita Euthymii, p. 105 .

١٦٩ - كان أرثاس فى حاجة إلى تبرير تبدل موقفه ونبذه للمعارضة . ومن بين كتاباته نصان يتضمنان دفاعه عن نفسه ومبررات موافقته فى آخر الأمر على التسامح فى زواج الإمبراطور . وتعتقد الأستاذة كارلين هيتر أن النص الأول عبارة عن مسودة للنص الثانى الذى ألقاه أرثاس فى اجتماع المجمع الكنسى لبطريركية القسطنطينية وفى حضور إيثيميوس يوم ٨ من نوفمبر سنة ٩٠٨م ، انظر هذين النصين فى :

Karlin-Hayter, New Arthas Texts, pp. 275, 279-307 .

ولقد نشرت الأستاذة كارلين هيتر مجموعة نصوص أخرى لأرثاس من بينها تفسير وتعليق على أحكام القديس باسيل فى حالات تكرار الزواج ، وفيها حاول أرثاس تفسير قوانين الكنيسة بصورة تتفق مع موقفه الجديد من التسامح فى زواج الإمبراطور ، انظر نص هذا التفسير لأحكام القديس باسيل فى :

Karlin-Hayter, Arethas Documents V, pp. 59-67 .

١٧٠ - Vita Euthymii, pp. 109 - 113, 135; Grumel, Les Regestes, nos. 627, 628, p. 147 .

١٧١ - Vita Euthymii, p. 109; Grumel, Les Regestes, no. 626 pp. 146-147.

١٧٢ - Vita Euthymii, p. 111 .

١٧٣ - Theoph. Cont., p. 375; Sym. Mag., pp. 711-712; Georg. Mon. Cont., p. 868 .

وجدير بالذكر أن سيرة إيثيميوس لا تشير إلى قيام البطريرك بتتويج قسطنطين السابع كما أشارت الحوليات سابقة الذكر ، ولكنها تشير بشكل عارض إلى قسطنطين المتوج . وربما كان وصف احتفال تتويج قسطنطين يدخل ضمن الجزء المفقود من سيرة إيثيميوس ، انظر :

Vita Euthymii, p. 111, 113, 223 .

وكان الاعتقاد في السابق أن تتويج قسطنطين جرى في ٩ من يونيو سنة ٩١١م ، ولكن دراسة الأستاذين جريرسون ، وجنكنز المشتركة صححت هذا التاريخ وأثبتت أن التتويج حدث يوم ١٥ من مايو سنة ٩٠٨م، انظر :

Grierson and Jenkins, Coronation, p. 137 .

١٧٤ - Grumel, Régne de Léon VI, p. 8; Grumel, La Chronologie, p. 357 .

١٧٥ - Theoph. Cont., p. 377; Sym. Mag., p. 715; Georg. Mon. Cont. p. 871; Leo Gramm., p. 285; Scylitzes, p. 192 .

وتتضمن مخطوطة سكليتزس المحفوظة في جامعة مدريد ، أبياتًا شعرية تصور لحظات احتضار ليو السادس وكلماته الأخيرة لأخيه إسكندر ، انظر :

Sevcenko, Poems, p. 196 .

١٧٦ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, p. 242; Grumel, Les Regestes, no. 635, p. 151 .

ومن بين المؤرخين الحديثين المؤيدين لهذا الرأي كل من جنكنز ، وفازيليف ، انظر :

Jenkins, Letter to the Emir, p. 400; Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 333-334 .

١٧٧ - Oikonomidès, Dernière Volonté, pp. 48, 50 .

ويعتقد الأستاذ أيكونوميدس أن الوثيقة صحيحة ، وأنها كتبت أثناء وجود نيقولا في المنفى ، ثم قام الإمبراطور إسكندر بتنفيذها بعد جنازة ليو السادس . عن صحة هذه الوثيقة ، انظر :

Oikonomidès, Préhistoire de la dernière Volonté, p. 270 .

أما الأستاذة كارلين هيتر فإنها تثير الشكوك في أصالة هذه الوثيقة ، وتعتقد أنها كتبت سنة ٩٠٧م ثم ذاعت في سنة ٩١٢م ، انظر :

Karlin-Hayter, Préhistoire, pp. 483-486 .

١٧٨ - Theoph. Cont., pp. 377-378; Sym. Mag., pp. 715-716; Georg. Mon. Cont., p. 871; Leo Gramm., pp. 285-286; Scylitzes, p. 193; Zonaras, III, pp. 455-456.

ويؤيد هذا الرأى عدد آخر من المؤرخين الحديثين من بينهم رانسيمان ، وكارلين هيتر ، واستروجورسكى ، انظر :

Runciman, Romanus Lecapenus, pp. 45-46; Karlin-Hayter, Synode, pp. 70, 98; Ostrogorsky, State, p. 261,n. 2.

١٧٩ - Jenkins, Letter to the Emir, p. 401; Jenkins, Chronological Accuracy, p. 111. Cf. Jenkins, Imperial Centuries, p. 227; Hergenröther, Photius, III, pp. 667-668.

ويبدو أن هناك سابقة لذلك وقعت قبل خمسة وثلاثين عامًا . فعندما استدعى باسيل الأول فوتيوس من منفاه ، زاول الأخير صلاحيات البطريرك الفعلية لبضعة أشهر قبل وفاة اجناتيوس البطريرك الرسمى سنة ٨٧٧م ، انظر :

Dvornik, Photian Schism, pp. 167 - 168, 172.

١٨٠ - Theoph. Cont., pp. 377-378; Sym. Mag., p. 716; Georg. Mon. Cont., p. 871; Leo Gramm., p. 286.

وانظر الوصف التفصيلى للمحاكمة فى :

Vita Euthymii, p. 119-123.

وانظر أيضًا :

Grumel, Les Regestes, no. 630, p. 148; Popov, Imperator Leo VI, p. 171; Karlin-Hayter, Synode, p. 71; Karlin-Hayter, Alexander's Bad Name, p. 588.

ويقع دير القديس أجاثوس St. Agathos فى ضواحى القسطنطينية على مضيق البسفور ، انظر :

Janin, Constantinople. p. 439.

١٨١ - Vita Euthymii, p. 129; Karlin-Hayter, Vita S. Euthymii, p. 762.

١٨٢ - تشير سيرة إيثيميوس إلى اضطهاد ونفى أربعة أساقفة هم : ديمتريوس Demetrios أسقف هرقلة Heraclea وجريجورى Gregory أسقف نيقوميديا Nicomidia ، وجابريل Gabriel أسقف أنقرة Ancyra ، وهيلاريون Hilarion أسقف هيرا Hierapolis أما بطرس أسقف سارديس Sardis فقد هرب ، ولم يعثر عليه ، انظر :

Vita Euthymii, pp. 115-117, 223-225.

كذلك يشير نيقولا مستيكوس فى رسالته إلى نيكتاس Nicetas أسقف أثينا (حوالى سنة ٩١٤م) إلى عزل أربعة أساقفة فقط ، انظر :

Jenkins, **Tetragamy**, p. 237, n. 26. Cf. Jenkins, **Imperial Centuries**, p. 229 .

١٨٣ - Popov, **Imperator Leo VI**, p. 160, n. 1 .

١٨٤ - **Vita Euthymii**, pp. 127 , 227 .

وربما يرجع فشل نيقولا فى عزل أرثاس إلى علاقة الأخير الوطيدة بالإمبراطور إسكندر فى ذلك الوقت ، انظر :

Kougeas, **Kaisareias Arethas**, p. 12 .

١٨٥ - انظر النص الكامل لرسالة نيقولا مستيكوس إلى أساقفة المعارضة - التى نشرت أول مرة سنة ١٩٠٩م مع ست رسائل أخرى لأرثاس - فى :

Papadopoulos-Kerameus, A., " Varia Graeca Sacra", **Zapiski**, 95 (1909). pp. 254-259 .

كما قامت الأستاذة كارلين هيتر بإعادة نشرها وأفردت لها ترجمة إنجليزية كملحق لسيرة إيثيميوس ، انظر :

Karlin-Hayter, **Vita S. Euthymii**, pp.748-756 .

وانظر كذلك نص الرسالة رقم (٤٩) التى بعثها نيقولا لأساقفة المعارضة أيضًا فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople, Ep. 49 , pp. 276 - 278 .

١٨٦ - انظر النص الكامل لرد أرثاس الذى نشرته الأستاذة كارلين هيتر أيضًا كملحق لسيرة إيثيميوس ، فى:

Karlin-Hayter, **Vita S. Euthymii**, pp. 756-770 .

وتتكرر الإشارة إلى تخلى نيقولا مستيكوس عن الكنيسة فى كتابات أرثاس الأخرى ، انظر :

Arethas, **Scripta Minora**, I, p. 86 .

١٨٧ - **Vita Euthymii**, p. 127 .

١٨٨ - Karlin-Hayter, **Arethas Documents III**, pp. 117 - 127; Karlin-Hayter, **Arethas Documents IV**, pp. 387 - 487; Karlin-Hayter, **Arethas Documents V**, pp. 49 - 67 .

وانظر أيضًا حاشية رقم (١٦٩) .

١٨٩ - تروى المصادر أن الإمبراطور إسكندر فكر جديًا فى تحويل ابن أخيه إلى خصى لحرمانه من وراثة العرش، واختيار أحد أتباعه - المدعو بازيليتزس Basilitzes السلافى - ليكون خلفًا له على العرش ، انظر :

Arethas, Scripta Minora, I, p. 90; Theoph. Cont., p. 379; Scylitzes, p. 194; Runciman, Romanus Lecapenus, pp. 45-46 .

وانظر أيضًا : وسام عبد العزيز فرج : الأتباع والسادة ، ص ١١٩ .

١٩٠ - انظر الدراسة القيمة التى قامت بها الأستاذة كارلين هيتر لعهد الإمبراطور إسكندر ، فى :

Karlin-Hayter, Alexander's Bad Name, pp. 585-596 .

١٩١ - ضم مجلس الوصاية ، بالإضافة إلى البطريرك نيقولا مستيكوس : يوحنا إلادس Ioannes Elades وستفن Stephen (وكانا من كبار موظفى الحكومة) ، ويوحنا لازارس Ioannes Lazares وإيثيميوس Euthymios (وهو رجل آخر يختلف عن البطريرك السابق) ، وبازيليتزس Basilitzes (السلافى) ، وجابريلوبولوس Gabrielopoulos ، انظر :

Theoph. Cont., pp. 379-380; Georg. Mon. Cont., p. 873; Sym. Mag. p. 717; Scylitzes, p. 196; Zonaras, III, pp. 457-458 .

ويلاحظ أن سيرة إيثيميوس لا تذكر بازيليتزس وجابريلوبولوس ضمن أعضاء مجلس الوصاية ، انظر النص والتعليق فى :

Vita Euthymii, pp. 131 , 228 - 230 .

١٩٢ - Scylitzes, p. 197. Cf. Theoph. Cont., p. 381; Sym. Mag., p. 718; Georg. Mon. Cont., p. 874; Leo Gramm., p. 288; Runciman, Romanus Lecapenus, p. 48 .

١٩٣ - Vita Euthymii, p. 131; Theoph. Cont., p. 381; Scylitzes, p. 197; Vita Basilii Junioris, col. 656D; Grumel, Les Regestes, nos. 640, pp. 153-154; 644. pp. 155-156 .

ويلاحظ أن بعض المصادر الأخرى لا تشير إلى نيقولا مستيكوس تحديدًا ، بل تذكر أن بعض كبار الشخصيات فى العاصمة قاموا بدعوة قسطنطين دوقاس إلى دخول القسطنطينية ، انظر :

Georg. Mon. Cont., pp. 874-875; Sym. Mag., p. 718; Leo Gramm., pp. 288-289. Cf. Runciman, Romanus Lecapenus, pp. 49-50.

١٩٤ - Polemis, The Doukai, p. 23 .

١٩٥ - Vita Euthymii, p. 131; Vita Basilii Junioris, col. 657 C-D.

١٩٦ - للمزيد عن محاولة قسطنطين دوقاس اغتصاب العرش ، انظر :

Theoph. Cont., pp. 382-385; Sym. Mag., pp. 719-721; Georg. Mon. Cont., pp. 875-877; Vita Euthymii, pp. 131-133; Vita Basilii Junioris, col. 661B; Scylitzes, pp. 197-199; Polemis, The Doukai, p. 24; Constantinides, Nikolaos ho Mystikos, pp. 65-69 .

وانظر أيضًا : محمود سعيد عمران : نيقولا مستيقوس ، ص ١٦ .

١٩٧ - Vita Euthymii, pp. 131-133 .

١٩٨ - Theoph. Cont., pp. 380 - 385; Sym. Mag., pp. 717 , 721; Georg. Mon. Cont., pp. 873 , 877 .

١٩٩ - أرسل البطريرك نيقولا مستيكوس إلى سيميون البلغارى ثلاث رسائل فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ٩١٣م ، احتج فيها على غزوه أقاليم الإمبراطورية وتقدمه تجاه القسطنطينية ، وتوسل إليه أن يعود إلى بلاده ، انظر نصوص رسائله أرقام ٥ ، ٦ ، ٧ فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Eps. (5,6,7) , pp. 26-44; Grumel, Les Regestes, nos. 641-643, 645, pp. 154-156.

وللمزيد عن أطماع القيصر سيميون ، انظر :

Dölger, Byzanz, pp. 140 - 142 ; Ostrogorsky, State, p. 262 .

٢٠٠ - Theoph. Cont., p. 385 , Georg. Mon. Cont., pp. 877 - 878; Scylitzes, p. 200; Ostrogorsky, State, p. 263, n.1.

وللمزيد عن تتويج سيميون إمبراطورًا ، انظر :

Chrysos , Die Krönung Symeons, pp. 169-193; Loud, Coronation of Symeon, p. 109-120.

٢٠١ - انظر الإشارة إلى مشروع الزواج فى رسالة نيقولا مستيكوس إلى القيصر سيميون بعد ذلك فى أواخر ديسمبر سنة ٩٢٠م :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 16, p. 109 .

وانظر أيضًا :

Runciman, Romanus Lecapenus, p. 51; Jenkins, Imperial Centuries, p. 231 .

٢٠٢ - Theoph. Cont., p. 385; Georg. Mon. Cont., p. 878; Scylitzes p. 200 .

٢٠٣ - Theoph. Cont., p. 386; Sym. Mag., p. 722 ; Georg. Mon. Cont., p. 879; Scylitzes, p. 201; Jenkins, **Imperial Centuries**, p. 232 ; Diehl, **Byzantine Portraits**, p. p. 201 .

٢٠٤ - Runciman, **Romanus Lecapenus**, p. 52 ; Ostrogorsky, **State**, p. 263 .

وعن الانقسام والاختلاف فى مجلس الوصاية انظر :

Zonaras, III, p. 461 .

٢٠٥ - Vita Euthymii, p. 133; Theoph. Cont ., p. 386; Sym. Mag., p. 722; Georg. Mon. Cont., p. 878; Scylitzes, p. 201 .

٢٠٦ - Vita Euthymii, p. 135 .

٢٠٧ - Vita Euthymii, p. 137; Grumel, Les Regestes, no. 650, p. 158; Guilland, Les Noces, p. 20 .

٢٠٨ - انظر نصوص الرسائل أرقام : ٨ (صيف سنة ٩١٤م) ، ٩ (نهاية أغسطس - بداية سبتمبر سنة ٩١٧م) ، ١٠ (بداية سنة ٩١٨م) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Eps. 8,9,10, pp. 44-72 .

وانظر أيضًا :

Grumel, Les Regestes, nos. 655, 660, 661, pp. 160-161, 164-165; Runciman, Romanus Lecapenus, p. 53 .

٢٠٩ - انظر نص الرسالة رقم (٤٧) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 47, pp. 266 - 274 .

وكان قسطنطين يشغل منصب براكويومنوس Parakoimomenos أى الحاجب الأول المسئول عن غرفة نوم الإمبراطور ليو السادس فى الفترة من سنة ٩٠٨م إلى سنة ٩١٢م ، وعقب اعتلاء الإمبراطور إسكندر للعرش قام بعزله . وعندما تولت زوى الوصاية أصبح قسطنطين أهم موظف فى الحكومة البيزنطية فى الفترة من سنة ٩١٤م إلى سنة ٩١٩م . لقد كان خصيًا من أنصار إيثيميوس ومقربًا من زوى ، وكان القائد المعروف ليو فوقاس متزوجًا من شقيقته التى توفيت غالبًا سنة ٩١٦م . وللمزيد عن قسطنطين هذا ، انظر :

Jenkins, Consolatio, pp. 162 - 165; Karlin-Hayter, **Parakoimoméne Constantin**, p. 252 .

٢١٠ - Vita Euthymii, pp. 137 - 141 .

٢١١ - Vita Euthymii, pp. 141-143 .

٢١٢ - انظر المقدمة التى أعدتها الأستاذة كارلين هيتر لسيرة إيثيميوس ، فى :

Vita Euthymii, pp. 10,31, n. 2, and pp. 145 - 147 .

وبعد وفاته بسنوات أدرجت الكنيسة البيزنطية اسم إيثيميوس فى قائمة القديسين ، انظر :

Halkin, **Bibliotheca**, I, pp. 204 - 205 .

٢١٣ - Ostrogorsky, **State**, p. 263; Runciman, **Romanus Lecapenus**, p. 53 .

وتجدر الإشارة إلى أن رسائل نيقولا مستيكوس إلى القيصر سيميون تعكس طبيعة وأبعاد الغزو البلغارى لأقاليم البلقان والدمار الذى نتج عن ذلك . انظر نصوص الرسائل أرقام (٨) ، (٩) ، (١٠) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Eps. 8,9,10, pp. 44-72 .

٢١٤ - **Theoph. Cont.**, pp. 388 - 390; **Sym. Mag.**, pp. 724-725; **Georg. Mon. Cont.**, pp. 881-883; **Scylitzes**, pp. 203-205; **Leo Gramm.**, pp. 295-296; **Zonaras**, III, pp. 464-465; Jenkins, **Imperial Centuries**, pp. 234-235; Runciman, **Romanus Lecapenus**, pp. 55-56 .

٢١٥ - Ostrogorsky, **State**, p. 264 .

٢١٦ - **Theoph. Cont.**, p. 392; **Georg. Mon. Cont.**, p. 884; **Leo Gramm.**p. 298; **Zonaras**, III, p. 467; Guilland, **Les Noces**, p. 21 .

٢١٧ - **Theoph. Cont.**, pp. 391-392; **Sym. Mag.**, pp. 725-726; **Georg. Mon. Cont.**, p. 883; **Scylitzes**, pp. 205-206; **Leo Gramm**, pp. 297-298; Runciman, **Romanus Lecapenus**, pp. 57-78 .

٢١٨ - **Theoph. Cont.**, pp. 393-394; **Georg.Mon. Cont.**, pp. 885-886; **Scylitzes**, pp. 208-209; **Zonaras**, III, pp. 467-468; Runciman, **Romanus Lecapenus**, pp. 58-60; Jenkins, **Imperial Centuries**, p. 236 .

٢١٩ - **Theoph. Cont.**, pp. 394, 395-397; **Sym. Mag.**, pp. 727-731; **Georg. Mon. Cont.**, pp. 887-889; **Leo Gramm.**, pp. 301-303; **Scylitzes**, pp. 209-212; **Zonaras**, III, pp. 468-469; Runciman, **Romanus Lecapenus**, pp. 60-61 .

بالنسبة للتحديد الدقيق ليوم انعقاد زواج قسطنطين السابع ، انظر :

Jenkins, Chronological Accuracy, p. 108 .

والمعروف أن السن القانونى لزواج الرجل فى القانون البيزنطى يبدأ من الرابعة عشرة ، انظر :

Zhishman, Das Eherecht, I, pp. 370 - 371 .

٢٢٠ - Theoph. Cont., pp. 397-398; Sym. Mag., p. 731; Georg. Mon. Cont., p. 890; Leo Gramm., p. 304; Scylitzes, p. 212 .

وكان الاعتقاد السائد أن تتويج ليكابينوس ، إمبراطوراً مشاركًا جرى فى ديسمبر سنة ٩١٩م ، ولكن الأستاذ جرومل أثبت أنه وقع فى سنة ٩٢٠م ، انظر :

Grumel, Notes, pp. 333-335; Grumel, La Chronologie, p. 358; Jenkins, Imperial Centuries, pp. 236-237 .

٢٢١ - بلغ إجمالى عدد رسائل البطريرك نيقولا مستيكوس للقيصر سيمون البلغارى ٢٥ رسالة ، منها ١٨ رسالة فى عهد رومانوس ليكابينوس فى الفترة من سنة ٩٢٠م وحتى سنة ٩٢٥م . انظر نصوص الرسائل أرقام من (١٤) إلى (٣١) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 14-31, pp. 92-214 .

٢٢٢ - Runciman, Romanus Lecapenus, pp. 90-91 .

٢٢٣ - حاول نيقولا مستيكوس فى رسالته رقم (٧٥) إلى رومانوس ليكابينوس تفنيد هذا الاعتقاد ، انظر:

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 75, p. 326 .

٢٢٤ - Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep.75, pp. 324 - 328; Grumel, Les Regestes, no. 665, pp. 166-167 .

٢٢٥ - انظر نص رسالة نيقولا مستيكوس رقم (١١٣) إلى نيكتاس أسقف أثينا فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 113, pp. 398-400.

وانظر أيضًا ملاحظات الأستاذين جرومل وجنكنز فى :

Grumel, Les Regestes, no. 706, pp. 189-190; Jenkins, Tetragamy, pp. 237-238 .

٢٢٦ - يظهر بوضوح فى رسالة نيقولا مستيكوس رقم (١٠٠) إلى إسكندر أسقف نيقية (فى مطلع سنة ٩٢٠م) أن الدعوة لحضور المجمع الكنسى العام صادرة من البطريرك وأولئك الذين يتولون السلطة أى من

قسطنطين السابع ورومانوس ليكابينوس ، إلا أن الأخير كان فى الواقع هو المتصرف فى شئون الحكم ، انظر :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 100, p. 370; Grumel, Les Regestes, nos. 667, 668, pp. 168-169.

٢٢٧ - Syntagma (RP), V, p. 6; Grumel, Les Regestes, no. 666, p. 168 .

ولايوجد دليل واحد على أن هذا المجمع العام للكنيسة البيزنطية قد حضره مندوبون عن البابا يوحنا العاشر (٩١٤-٩٢٨م) كما يعتقد بعض المؤرخين المحدثين فى دراساتهم التالية :

Dvornik, Constantinople and Rome, p. 456; Grégoire, Macedonians, p. 137; Ostrogorsky, State. p. 271 .

وكذلك ، الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

٢٢٨ - Theoph. Cont., p. 398; Sym. Mag., p. 731; Georg. Mon. Cont. pp. 890-891; Leo Gramm., p. 304; Scylitzes, p. 213 .

٢٢٩ - انظر النص الكامل لوثيقة كتاب الاتحاد Tomus Unionis فى :

Syntagma (RP), V, pp. 4-9; JGR (Lingenthal), III, pp. 228-232; JGR (Zepos), I, pp. 193-196 .

وانظر أيضًا :

Grumel, Les Regestes, no. 669, pp. 169-171.

ويتضح من نص هذه الوثيقة أن رومانوس ليكابينوس لم يكن قد توج بعد إمبراطوراً مشاركًا ، إذ كان يحمل لقب " والد الإمبراطور " Basileopator فقط .

٢٣٠ - Syntagma (RP), V, p. 6; Jenkins, Imperial Centuries, p. 238 .

وانظر أيضًا : أسد رستم : الروم ، جـ٢ ، ص ٢٤ ، محمود سعيد عمران : نيقولا مستيقوس ، ص ٢٧ .

٢٣١ - Syntagma (RP), V, p. 6 .

٢٣٢ - وتجدر الإشارة إلى أن الانتهاك الوحيد لهذا التشريع فى الكنيسة الأرثوذكسية حدث فى روسيا القيصرية عندما قام القيصر إيفان الرابع Ivan IV المعروف بالرهيب (١٥٤٧-١٥٨٤م) بعقد زواج رابع. واضطرت الكنيسة الأرثوذكسية إلى التسامح فيه بعد أن فرضت عليه الحرمان ، انظر :

Joyce, Christian Marriage, p. 599; Godefroy, Le Bras, Jugie, Mariage, col. 2328 .

٢٣٣ - Syntagma (RP), V, p. 7 .

وقارن أيضًا : أسد رستم : الروم ، جـ٢ ، ص ٢٤ ؛ محمود سعيد عمران : نيقولا مستيقوس ، ص ٢٧ .

٢٣٤ - Syntagma (RP), V. 8 ; Cf. Jenkins, Imperial Centuries, p. 238.

٢٣٥ - للمزيد عن مدى التزام الكنيسة بالقيود الواردة فى وثيقة (كتاب الاتحاد) بالنسبة للزواج الثالث ، انظر :

Zhishman, Das Eherecht, II, p. 128-130.

٢٣٦ - Syntagma (RP), V, pp. 8-9. Cf. Jenkins, Imperial Centuries, p. 238.

٢٣٧ - Kougeas, Kaisareias Arethas, pp. 14,17 .

٢٣٨ - De Caerim., I, pp. 186-187 .

٢٣٩ - قارن : Jenkins, Imperial Centuries, p. 239 .

٢٤٠ - انظر نص هذه الرسالة رقم (٣٢) فى:

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 32, pp. 214-244; Grumel, Les Regestes, no. 635, pp. 151-152 .

٢٤١ - قارن رسالة نيقولا مستيكوس رقم (٥٣) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 53, p. 288; Grumel, Les Regestes, no. 675, pp. 173-174. Cf. Gay, Nicolas le Mystique, p. 98 .

والدبتك diptychs عبارة عن قائمة بأسماء الأشخاص الذين يتردد ذكرهم والدعاء لهم فى الكنيسة أثناء إنشاد التراتيل الدينية . وتتضمن القائمة أسماء أباطرة ، وبطاركة وأساقفة فضلاً عن عدد من الشخصيات الرسمية والعامة الأخرى . ولا تتضمن القائمة أسماء هراطقة أو كنائس منشقة على القسطنطينية ، وللمزيد انظر :

Goar, Euchologion, pp. 62, 145 .

٢٤٢ - انظر نص الرسالة رقم (٥٦) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 56, p. 298; Grumel, Les Regestes, no. 671, p. 172 .

٢٤٣ - انظر نص الرسالة رقم (٥٣) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 53, pp. 286-292 .

بالنسبة لرسالة رومانوس ليكابينوس التى تعكس اهتمامه بإعادة السلام مع روما ، انظر :

Dölger, Regesten (Kais), nos. 590-591, p. 71 .

وانظر أيضًا :

Gay, Nicolas le Mystique, pp. 97 - 98 .

٢٤٤ - انظر رسائل نيقولا مستيكوس أرقام (٥٤) ، (٥٥) ، (٨٣) ، (٨٤) ، فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 54 , pp. 292 - 294 ; Ep. 55, pp. 294 - 298 ; Ep. 83, p. 342; Ep. 84, p. 344 ;Grumel, Les Regestes, nos. 696 , 697, 700, 701 , pp. 183-186 .

٢٤٥ - انظر رسالة نيقولا مستيكوس رقم (٧٧) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep. 77, pp. 330 - 332 ; Grumel, Les Regestes, no. 711, pp. 192 - 193 .

٢٤٦ - انظر رسالة نيقولا مستيكوس رقم (٢٨) فى :

Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters, Ep.28, p. 194 ; Grumel, Les Regestes, no. 712, pp. 193 - 194 .

٢٤٧ - قارن :

Runciman, Romanus Lecapenus, p. 189 .

وكانت البابوية قد حصلت على مساعدات عسكرية بيزنطية فى مناسبات مختلفة ، انظر :

Gay, Italie Méridionale, I, pp. 161, 206 - 208 .

٢٤٨ - Jaffé, Regesta, nos, 3571-3572, I, p. 452 .

٢٤٩ - Anastos, Transfer of Illyricum pp. 14-31; Anastos, Iconoclasm, pp. 71-72 .

ويرى الأستاذ جرومل أن ضم كنائس الليريا وصقلية وكلابريا إلى القسطنطينية حدث فى عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥م) ، انظر :

Grumel, Annexion de l'Illyricum, pp. 191 - 193 .

وانظر أيضًا :

Toynbee, Constantine, pp. 356, 489 .

٢٥٠ - Every, Byzantine Patriarchate, p. 134 .

٢٥١ - Herman, Secular Church, pp. 104 - 106 .

وللمزيد عن مزاعم " القيصرية - البابوية " فى بيزنطة واختلاف تطور علاقة الكنيسة بالدولة فى الغرب الأوروبى ، انظر :

كانتور : التاريخ الوسيط قصة حضارة ، جـ١ ، ص ١٢٧ - ١٣٦ .

٢٥٢ - Georg. Mon. Cont., p. 826; Theoph. Cont., pp. 193-195; Sym. Mag., pp. 667-668; Leo Gramm., p. 240 .

٢٥٣ - Georg. Mon. Cont., p. 841; Sym. Mag., pp. 688-689; Leo Gramm. pp. 254 - 255; Zonaras, III, p. 418 .

٢٥٤ - انظر حاشية رقم (٨٥) . وانظر أيضًا :

Toynbee, Constantine, p. 356 .

(٤)

النار الإغريقية

طبيعة تركيبها وأثرها فى نشاط المسلمين البحرى

لعبت النار الإغريقية دوراً مهمًا فى الصراع البيزنطى الإسلامى من أجل السيادة على البحر المتوسط . فقد أدى ظهورها كسلاح بحرى لدى الأسطول البيزنطى فى القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) إلى بروز عنصر قوة جديد أسهم فى تحقيق الانتصارات البحرية كما أنقذ مدينة القسطنطينية من السقوط فى أيدى العرب المسلمين بعد حصارين مريرين ، بدأ الأول سنة ٦٧٤م / ٥٤هـ زمن الخليفة معاوية بن أبى سفيان واستمر خمس سنوات . أما الثانى فقد بدأ عام ٧١٧م / ٩٩هـ زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك واستمر قرابة العام . وتجدر الإشارة إلى أن الأساطير فضلاً عن حوليات التاريخ قد تناقلت أخبار النار الإغريقية فى الغرب الأوروبى منذ أواخر العصور الوسطى بصورة مشوشة تفتقر إلى الوضوح لأنها اعتمدت على افتراضات خاطئة . وهكذا شاعت الاجتهادات غير العلمية بخصوص المادة السرية المقذوفة ووجدت طريقها إلى بعض كتب المؤرخين الحديثين [١]. ورغم أن بعض الدراسات التى صدرت فى السنوات الأخيرة [٢]، حاولت تفسير بعض الإشكاليات المتعلقة بالموضوع ، فإن الحاجة ظلت قائمة إلى دراسة أخرى تناقش مدلول مصطلح النار الإغريقية وطبيعة تركيبها وكيفية قذفها على السفن المعادية فضلاً عن أثرها فى نشاط المسلمين البحرى . وهنا تكمن مشروعية التناول الذى تطرحه هذه الدراسة .

يرجع إطلاق اسم " النار الإغريقيـة " على هذا السلاح إلى الصليبيين من أهل الغرب الأوروبى . أما البيزنطيون - الذين كانوا يتكلمون اليونانية - فلم يستخدموا هذه التسمية[٣]، ربما لأنهم اعتبروا أنفسهم من الرومان على أساس أن دولتهم كانت امتداداً للإمبراطورية الرومانية فى الشرق . وكان المتوقع أن يطلق البيزنطيون على هذا السلاح اسم النار الرومانية ، ولكن المصادر البيزنطية استخدمت فى معظم الأحيان عدة صفات عند إشاراتها لـه مثل : " النـار المصنعـة المركبة سريعة الالتصاق " to Skcuaston kai kollutikon pur التى تعرف بالنار السائلة hygron pur أو النار البحرية thalassion pur[٤]. على أية حال ، إذا كانت المواد الكيميائية غير المكررة المستخدمة فى العصور الوسطى قد مكنت الإنسان من ابتكار أنواع متباينة من الأسلحة الحارقة ، فإن الافتقار إلى وجود مصطلح فنى محدد لهذا السلاح البحرى الحارق فى النصوص التاريخية قد ساهم فى التشوش والخلط بين النار الإغريقية التى عرفها البيزنطيون كسلاح بحرى والأسلحة الحارقة الأخرى التى كانت معروفة لهم ولغيرهم من الأمم المعاصرة .

لاشك أن الدولة البيزنطية استطاعت فى الربع الثالث من القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) تطوير سلاح بحرى حارق زودت به أسطولها ، وأثبت هذا السلاح دقة فى الأداء وفعالية فى التأثير فاقت ماكان معروفًا من قبل من أسلحة حارقة . وتنسب المصادر البيزنطية الفضل فى ذلك إلى مهندس يدعى كالينيكوس Kallinikos ، رحلت أسرته من بعلبك Heli-opolis إلى القسطنطينية بعد فتوح العرب المسلمين لبلاد الشام . وهناك استطاع تطوير تلك النار البحرية فى وقت مناسب مكن الإدارة البيزنطية فى عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع Constantine IV (٦٦٨ - ٦٨٥م) من تجهيز عدة تشكيلات من السفن التى تحمل مقدماتها قاذفات لهب خاصة . وبفضل هذه التجهيزات استطاعت تلك السفن قذف سفن المسلمين بتلك النار البحرية وحرقها [٥]. وكان هذا أحد أسباب فشل حصار المسلمين الأول للعاصمة البيزنطية سنة ٦٧٨م / ٥٩هـ . ويتكرر استخدام النار الإغريقية ضد سفن المسلمين أثناء حصارهم الثانى للعاصمة البيزنطية سنة ٧١٧ - ٧١٨م / ٩٩هـ [٦].

وكانت السفن الحربية البيزنطية التى تم تجهيزها بقاذفات النار الإغريقيـة ، من طراز درومـون Dromon . وكانت كل سفينة تشتمل على صفين من المجاذيف فضلاً عن خمسين مقعداً خشبيًا طويلاً يسمح الواحد بجلوس اثنين من المجذفين . وفى البداية كان جهاز قذف

النار يوضع فى مقدمة السفينة ويتولى توجيهها المجذف الأمامى بينما يتولى زميله إلقاء ورفع المرساة الأمامية [٧].

ولم يقتصر استخدام هذا السلاح البحرى على البحر المتوسط ضد سفن المسلمين ، ففى مطلع صيف سنة ٩٤١م تعرضت بيزنطة للخطر من الشمال عندما عبر الروس بقيادة إيجور Igor أمير كييف Kiev البحر الأسود وهاجموها بأسطول كبير . واضطر البيزنطيون إلى استخدام سفنهم المجهزة بالنار فى قذف سفن الروس وتدميرها . ومن الجدير بالذكر أن المصادر غير البيزنطية التى تناولت هذا الهجوم كانت أكثر تفصيلاً وقدمت معلومات قيمة عن سلاح النار الإغريقية وأثره فى سفن الأعداء . فمثلاً يتضح من رواية ليتبراند أسقف كريمونا Luit-prand of Cremona ، الذى زار القسطنطينية فى مهمة دبلوماسية سنة ٩٤٩م أن قاذفات النار الإغريقية لم تكن مثبتة فى مقدمات السفن فقط ، بل كانت منصوبة فى مؤخراتها وجوانبها أيضًا حتى تحدث أكبر تدمير ممكن فى السفن المعادية . كما أشار إلى أهمية سكون الريح وهدوء الموج كشرط ضرورى لأداء قاذفات النار دورها بكفاءة وتأثير [٨]. ويبدو أن كم النيران المقذوفة كان واسع النطاق ومفاجئًا فأصاب الروس بالذعر لدرجة أن الحولية الروسية الرئيسية التى سجلت أحداث هذه المواجهة تروى أن الروس حين عادوا لبلادهم أخبروا ذويهم أن البيزنطيين امتلكوا صواعق السماء [٩].

وفى عصر الحروب الصليبية استمر البيزنطيون يستخدمون النار الإغريقية كسلاح بحرى يقذف اللهب على السفن المعادية . ففى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى تعرضت جزر البحر الإيجى لاعتداء بعض سفن البيازنة التى تحمل الصليبيين إلى الأراضى المقدسة ، فأمر الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين Alexius I Comnenus (١٠٨١ - ١١١٨م) بإعداد السفن البيزنطية لمطاردة البيازنة . كما أمر بتزويد الأنابيب البرونزية التى تقذف اللهب بأطراف من حديد أو نحاس مطلى على هيئة رؤوس حيوانات متوحشة وقد فتحت أفواهها ليندفع منها اللهب المدمر . وكان غرض الإمبراطور إشاعة الرعب فى نفس العدو. وفى سنة ١١٠٣م دارت معركة بحرية بالقرب من جزيرة رودس Rhodes استخدم فيها البيزنطيون النار الإغريقية . ويبدو أن قاذفات اللهب كانت قد شهدت بعض التطور فى ذلك الوقت ، إذ يتضح من وصف المؤرخة المعاصرة آنا كومنين Anna Comnena للمعركة أن أنابيب قاذفات النار الإغريقية كانت مثبتة على وصلات متحركة مكنت القائمين عليها من توجيه النار البحرية فى كل اتجاه [١٠].

ومنذ نجاح بيزنطة فى تطوير هذا السلاح البحرى الخارق ، حرص الأباطرة على إحاطته بالسرية التامة . وكانت القوانين البيزنطية تحرم تصدير المعدات الحربية للخارج ، ففى القانون رقم (٦٣) الذى أصدره الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ - ٩١٢م) تم فرض عقوبات قاسية على كل من يشارك فى تصدير عتاد حربى للأمم المعادية [١١]. والمرجح أن الإمبراطور كان يقصد بالأمم المعادية العرب المسلمين تحديداً ، بدليل أنه ذكر فى مناسبة أخرى أن الخطر العربى الإسلامى على الدولة البيزنطية هو الذى دفعه إلى كتابة مؤلفه عن فن الحرب والقتال المعروف بـ تكتيكا Taktika[١٢].أما الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Con-stantine VII Porphyrogenitos (٩١٣ - ٩٥٩م) فقد حرص فى كتابه المعنون بالإدارة الإمبراطورية على تحذير ابنه رومانوس الثانى Romanos II (٩٥٩ - ٩٦٣م) من كشف أسرار النار الإغريقية التى يجب ألا تعرف طريقها إلى أية أمة أخرى . وأكد أن كل من يتجرأ على مخالفة هذه الوصية ستحل به اللعنة ويطرد من رحمة الكنيسة [١٣].

وإذا كانت الحكومة البيزنطية قد حرصت فى البداية على أن يقتصر استخدام النار الإغريقية على سفن الأسطول الإمبراطورى المرابط فى مياه القسطنطينية دون أساطيل الثيمات (الأجناد) البحرية فإنها اضطرت إلى التخلى عن هذا التقليد بعد سنة ٧٢٦م وسمحت فى حالات الضرورة للوحدات البحرية فى الأقاليم التابعة لها بالحصول على حصص محدودة من النار البحرية لمواجهة قوة المسلمين المتنامية فى شرق وغرب البحر المتوسط . ولكن الأسطول الإمبراطورى الذى تتمركز قيادته فى العاصمة ظل يتمتع بتفوق استراتيجى على أساطيل الثيمات البحرية [١٤].

وعلى الرغم من أن النصوص التى أشارت إلى النار الإغريقية تعد كثيرة فإن المعلومات التى أوردتها عن المادة المقذوفة وكيفية إعدادها وقذفها جاءت مبتسرة وفى بعض الأحيان مخلة ومتفرقة . وربما كان ذلك راجعًا إلى حرص الإدارة البيزنطية على إحاطة هذا السلاح الخارق بهالة من السرية حتى شاع فى الغرب الأوروبى منذ العصور الوسطى أن النار الإغريقية عبارة عن مادة مقذوفة ذات تركيبة سرية خاصة . وإذا كانت النار الإغريقية قد حظيت باهتمام المؤرخ فإنها اجتذبت أيضًا اهتمام بعض المشتغلين بالعلوم الطبيعية وخاصة الكيمياء فضلاً عن عدد من المتخصصين فى العلوم العسكرية [١٥]. ولما كان المؤرخ لا يستطيع بمفرده حل كافة الإشكاليات التى تواجهه ، فإن التعاون بينه وبين الكيميائى فى هذه الحالة يصبح

ضرورة ملحة . فالأول يتولى قراءة النصوص وترتيبها بعد شرح ما فيها ، أما الثانى فعليه تفسير الغموض المتعلق بإعداد المادة المقذوفة وكيفية قذفها فى ضوء نظريات وبديهيات العلوم الطبيعية ومراحل تطورها .

إذا بدأنا بالبحث فى ماهية المادة المقذوفة المعروفة بالنار الإغريقية نجد أن العنصر الرئيسى عبارة عن نفط Aptha ، سواء كان النفط معالجًا (أى مكرراً) أو خامًا . وكان النفط يوجد بوفرة فى شمال شرق البحر الأسود وفى الأقاليم القوقازية الممتدة حتى بحر قزوين مثل أبخازيا Abasgia وجورجيا وآذربيجان . ويعدد الإمبراطور قسطنطين السابع فى الفصل الأخير من مؤلفه عن الإدارة الإمبراطورية أماكن آبار النفط التى كانت متاحة للدولة البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، حيث كان النفط يتسرب بصورة طبيعية إلى سطح الأرض [١٦].

وإذا كان العلماء قد اتفقوا على أن النفط يمثل العنصر الرئيسى فى تكوين المادة المقذوفة فإنهم اختلفوا حول العناصر المضافة الأخرى مثل القار والكبريت والراتينج والجير الحى ... إلخ. ويلاحظ أن المؤرخة البيزنطية آنا كومنين تذكر أن المادة المقذوفة اشتملت على مادة راتينجية صمغية فضلاً عن الكبريت [١٧]. أما علماء الكيمياء فإنهم يؤكدون أن نترات البوتاسيوم والجير الحى لا علاقة لهما بالنار الإغريقية [١٨].

وتجدر الإشارة إلى أن النفط فى باطن الأرض يتكون من مزيج من عناصر الأولفين Olc-fins والنفثالين Naphthalenes . وعندما يصل إلى سطح الأرض يكتسب لزوجة مشابهة للبارافين Paraffin (الكيروسين) وتبدأ العناصر القابلة للتطاير فى التبخر بفعل حرارة الجو، وتصبح المادة المتبقية فى النهاية قطرانية لزوجة يصعب إشعالها [١٩]. ومع أنه يمكن استخراج النفط عندما تكون درجة حرارة الأرض منخفضة فى الصباح الباكر أو فى فصل الشتاء ، فإن الحاجة تظل ماسة لعلاج هذا النفط الخام بشكل أو بآخر لزيادة قابليته للاشتعال . والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : هل كان النفط الخام يمر بعملية تكرير قبل استخدامه ؟ .

يبدو أن عمليات التكرير أو التقطير كانت بدائية فى هذه المرحلة ، كما أن تكرير النفط بصفة خاصة تكتنفه المخاطر بسبب تطاير غازات قابلة للانفجار . وكان الاعتقاد الشائع أن تقنية العمليات الكيميائية كالتقطير أو التكرير لم تتطور قبل القرن الثانى عشر الميلادى ، بيد أن المصادر البيزنطية كثيراً ما تصف النار الإغريقية بالنار المعدة أو النار المجهزة وهو ما يعنى أن النفط كان يعالج بشكل أو بآخر قبل استخدامه [٢٠]. ويري البعض أن النار

الإغريقية فى صورتها الأولى كانت عبارة عن نفط سائل أو نفط متطاير (٢١). وفى هذه الحالة يمكن القول أن الإضافة التى قدمها المهندس كالينيكوس فى القرن السابع الميلادى كانت عبارة عن تقنية أولية جديدة لتكرير النفط . ومن المحتمل أن هذه التقنية تضمنت إضافة مادة راتينجية صمغية إلى النفط لزيادة خاصيته اللزجة وربما لزيادة سرعة التهابه أيضًا . ومما يرجح هذا الاحتمال وصف النار المجهزة - فى بعض المصادر - بأنها لزجة سريعة الالتصاق (٢٢).

ولاشك أن عدداً من المشاكل المتعلقة بكيفية قذف النار الإغريقية من السفن الحربية فى عرض البحر قد وجدت طريقها إلى الحل بفضل الدراسة المشتركة المتميزة التى قدمها كل من جون هالدون J. Haldon وهو مؤرخ ومايكل بيرن M. Byrne وهو كيميائى ، التى جاءت مصحوبة ببيان عملى أمام مؤتمر علمى انعقد فى بريطانيا سنة ١٩٧٤م (٢٣). لقد أثبت الباحثان بالتجربة إمكانية استخدام النفط الخام ومعالجته بالتسخين قبيل وأثناء قذف النار المحرقة . وطبقًا لهذه الدراسة يتكون جهاز قذف اللهب المثبت فى مقدمة السفينة الحربية من أربعة أجزاء . الجزء الأول : وعاء كبير من البرونز محكم الإغلاق يحتوى على النفط المعالج أو الخام . الجزء الثانى : مجمرة لتسخين وعاء النفط . هذه المجمرة لم تكن عبارة عن نار فى حطب مكشوف وهو ما قد يشكل خطورة على سطح سفينة مصنوعة من الخشب بل كانت تحتوى على ألياف كتانية تحترق ببطء ، ويمكن زيادة تأجيجها باستخدام منفاخ (٢٤). الجزء الثالث : مضخة Siphon من البرونز تتصل بالجزء العلوى من الوعاء لتساهم فى زيادة الضغط الضرورى لقذف النفط . أما الجزء الرابع فعبارة عن أنبوب مغلف بالبرونز يخرج من جدار الوعاء الذى يحتوى على النفط ، ويتصل بأنبوب آخر مثبت على وصلة متحركة تمكنه من الدوران بحرية . ويحكم تثبيت جميع الوصلات بالقصدير لمنع أي تسرب (٢٥).

وقبل بدء المعركة كان النفط يسخن على نار هادئة ، ثم تصبح شديدة حين تظهر الحاجة لقذف اللهب . وبتسخين النفط يرتفع الضغط داخل الوعاء المحكم الإغلاق ، وباستخدام المضخة يزداد ارتفاعه . وما أن يصبح الضغط كافيًا يتم فتح صمام عند طرف الوعاء للسماح للنفط بالاندفاع عبر الأنبوب ذى الوصلة المتحركة ، وعند فوهة الوصلة يتم إشعال النفط وتوجيهه ضد الأهداف المعادية . والمعروف أن النفط المنبثق بقوة يشتعل أيضًا عند ملامسة الماء كما أنه يطفو ويحترق على سطحه .

ويعد هذا التفسير الذى قدمه الباحثان فى دراستهما المشتركة عن كيفية قذف النار السائلة أفضل طرح يأخذ فى الاعتبار المعلومات المضطربة والمتناثرة فى المصادر التاريخية ، بيد أنه يخلق إشكالية جديدة تتعلق ببديهيات العلوم الطبيعية وهى : كيف يمكن تسخين النفط دون وجود وسيلة لقياس الضغط المتزايد داخل الوعاء البرونزى ؟ فهذا أمر محفوف بالمخاطر وقد يؤدى إلى حدوث انفجار . ولما كانت المصادر لا تقدم لنا ما يفيد الإجابة على ذلك ، فعلينا أن نفترض أن القائمين على تشغيل جهاز قذف النار البحرية كانوا رجالاً مدربين وقادرين على استخدام قياسهم التقريبى بالنسبة لكمية الحرارة الضرورية وعدد ضخات المضخة التى تلزم لتحقيق ضغط معين . والمرجح أن هناك حوادث قد وقعت أثناء المعارك البحرية رغم أن المصادر لا تذكرها (٢٦).

على أية حال ، رغم حرص البيزنطيين على الاحتفاظ بسرية سلاح النار البحرية ، فإن الأسلحة لا تستمر سرية لفترة طويلة مع استمرار حالة الحرب وما يصاحبها من انتصارات وغنائم للبعض أو هزائم وخسائر فى العتاد والعدة للبعض الآخر . لقد أشارت المصادر البيزنطية بفزع إلى وقوع ٣٦ جهاز لقذف النار الإغريقية فضلاً عن كميات كبيرة من النفط فى أيدى البلغار سنة ٨١٢م عندما نجحوا فى الاستيلاء على مدينتى مزمبريا Mesembria ودفلتوس Develtos المطلتين على ساحل البحر الأسود (٢٧). وإذا كان البلغار لم يستفيدوا من الغنيمة لأنهم لم يمتلكوا أسطولاً بحريًا ، فإن المسلمين كانوا أكثر استفادة من غنائم معاركهم البحرية ضد البيزنطيين . وفى كثير من الأحيان كان المسلمون يأسرون قطعًا من أسطول العدو بتجهيزاتها وهنا كانوا يقومون " بعكسها " أى بتحويلها إلى سفن إسلامية . ويبدو أن المسلمين فى غرب البحر المتوسط كانوا أسبق فى التوصل إلى استخدام قاذفات النار البحرية فى سفنهم الحربية . ويرى بعض المؤرخين أن عصيان ايفيميوس Euphemius القائد البيزنطى لأسطول صقلية واضطراره للجوء إلى الأمير زيادة الله بن الأغلب سنة ٨٢٧م/٢١٢هـ لم يترتب عليه بداية فتح الأغالبة لجزيرة صقلية فحسب ، بل يضاف إلى ذلك نجاحهم فى التعرف على عناصر النار البحرية وتجهيز سفنهم بها أيضًا (٢٨). وبالفعل كانت سفن الأغالبة التى أغارت على البحر التيرانى سنة ٨٣٥م/٢٢٠هـ مجهزة بقاذفات النار(٢٩). أما سفن الأساطيل الأندلسية فقد بدأ تجهيزها بالنار البحرية فى سنة ٨٤٤م/٢٣٠هـ(٣٠). بالنسبة لشرق البحر المتوسط فالمرجح أن بعض تشكيلات السفن

الإسلامية كانت مجهزة بهذا السلاح منذ أواخر القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) . فعندما حاصرت سفن أساطيل الشام ومصر بقيادة غلام زرافة - الذى يعرف فى المصادر البيزنطية بليو الطرابلسى - مدينة سالونيكا Thessaloniki واستخدمت قاذفات النار البحرية فى هجومها ، فإن الدهشة أصابت المدافعين عن المدينة وأدت إلى ارتباكهم التام ونجاح المسلمين فى اقتحام تلك المدينة التى تعد ثانى أكبر المدن البيزنطية سنة ٩٠٤م / ٢٩١هـ(٣١).

لاشك أن توافر النفط فى بعض أقاليم المسلمين كان من بين العوامل التى مكنتهم من استخدامه فى أسلحتهم البرية والبحرية . وكانت آبار النفط تكثر فى إيران وآذربيجان وصقلية . ويحدثنا الرحالة أبو دلف الخزرجى (فى القرن الرابع الهجرى) عن عيون النفط التى توجد فى باكويه من أعمال شروان (وهى اليوم باكو Baku فى جمهورية آذربيجان)(٣٢). كذلك يصف لنا ابن الشباط التونسى طريقة استخراج زيت النفط من الآبار القريبة من سرقوسة Syracuse على الساحل الشرقى لجزيرة صقلية ، وكيف أن الرجل الذى ينزل فى البئر كان عليه أن يغطى رأسه ويسد مسام أنفه وإلا هلك لساعته (٣٣).

وجدير بالذكر أن المسلمين أفادوا من تراث الحضارات السابقة عليهم والمعاصرة لهم فى تطوير أسلحتهم وفن قتالهم فى البر والبحر . ويبدو أنهم اطلعوا على مؤلفات عسكرية بيزنطية ونقلوا بعضًا مما جاء فيها . ومن بين ما قاموا بترجمته إلى العربية الفصل الخاص بفن القتال فى البحر Peri Naumachias الذى يعد جزءًا من كتاب تكتيكا الذى ألفه الإمبراطور ليو السادس(٣٤) . والمعروف أن الإمبراطور تناول فى هذا الفصل النار البحرية دون أن يفصل كيفية قذفها على الأهداف المعادية . ولقد ذكر ابن المنكلى أنه طالع هذه الترجمة بنفسه واقتبس منها فى كتابه المعروف بكتاب " الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر" (٣٥).

وفى ضوء الشواهد التى عرضتها هذه الدراسة يمكن استخلاص الملاحظات التالية :

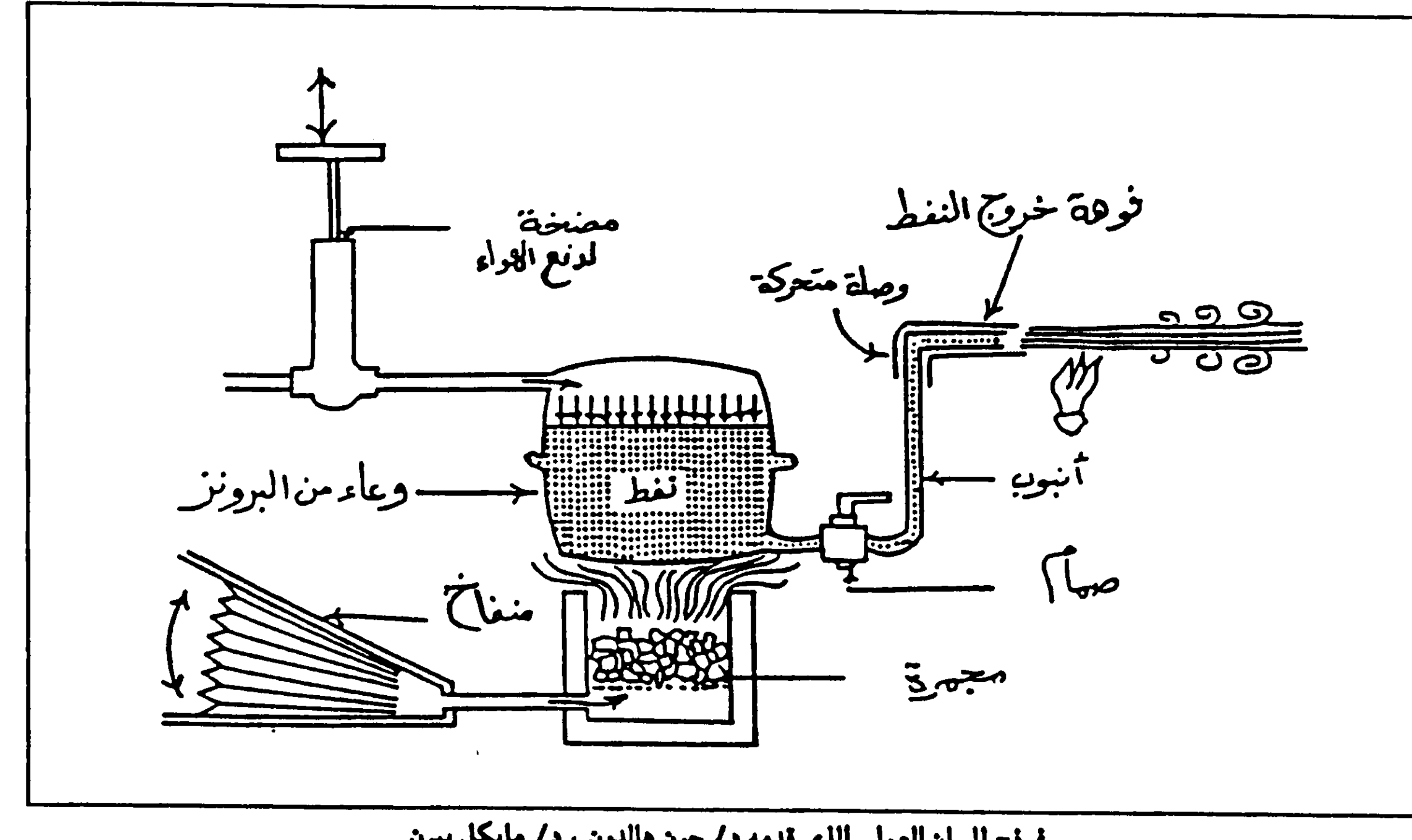
أولاً : يجب أن نستخدم مصطلح " النار الإغريقية " بقدر كبير من الحذر ، لأنه مصطلح غير فنى وغير محدد سواء بالنسبة للمادة المقذوفة أو وسيلة قذفها فى معارك البحر أو البر . فالبنسبة للصليبيين مثلاً كان المصطلح يعنى أى نوع من الأسلحة الحارقة أو المتفجرة التى تقذفها آلات مثل المنجنيقات أو المراجم أو المزارق أو المكاحل أو قاذفات النفط السائل ، وهو أمر أضاف المزيد من التشوش والخلط للنار الإغريقية .

ثانيًـــا : اهتمت هذه الدراسة بنوع واحد من هذه الأسلحة الحارقة وهو سلاح النار السائلة الذى يعد سلاحًا بحريًا له سمات خاصة طوره البيزنطيون واستخدموه على نطاق واسع ابتداء من الربع الأخير للقرن السابع الميلادى . ويمكن القول أن قاعدة تسخين النفط مسبقًا وقذفه فى ظل ضغط مرتفع من سيفونات خاصة مثبتة فى مقدمات السفن ، كان جوهر العملية التى حاولت بيزنطة الاحتفاظ بها سراً . ولما كانت النار المقذوفة تتميز بسرعة الالتصاق فإن البعض يرى أنها أشبه بالناپالم فى قذائف الحرب الحديثة (٣٦).

ثالثًـــا : كانت النار البحرية تمثل إضافة مهمة إلى تقنية القتال فى البحر فى العصور الوسطى . وكان امتلاك بيزنطة لها فى البداية من بين العوامل التى ساعدتها على الاحتفاظ بسيادتها على مياه البحرين الأسود والمتوسط حتى مطلع القرن التاسع الميلادى . وعندما توصل المسلمون إلى استخدام هذه النار وتجهزت أساطيلهم بها فى العقد الثالث من نفس القرن ، فإنهم قاموا بحملات بحرية ناجحة فى غرب البحر المتوسط وشرقه ، كان لها أكبر الأثر فى القضاء على ما تبقى لبيزنطة من سلطان بحرى وتجارى فى آخر الأمر .

رابعًا : من المرجح أن أهمية النار البحرية أخذت تقل بشكل ملموس ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى لدى البيزنطيين والمسلمين على حد السواء . وترجع أسباب ذلك ، بالنسبة للدولة البيزنطية ، إلى اضمحلال قوتها البحرية وعجزها عن الحصول على إمدادات كافية من النفط بعد تقلص أقاليمها فى الشرق وانحسار نفوذها فى منطقة القوقاز ، فضلاً عن سيطرة الجنوية على حركة الملاحة فى البحر الأسود . أما بالنسبة للمسلمين فقد أدى استيلاء النورمان على جزيرة صقلية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، فضلا عن وصول المغول إلى منابع النفط فى إيران وآذربيجان فى العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادى إلى اضطراب وتوقف إمدادات النفط الواردة إلى أساطيل المسلمين فى غرب وشرق البحر المتوسط .

على أية حال ، شهد القرن الثالث عشر الميلادى أيضًا طفرة أخرى فى مجال الكيمياء عندما اكتشف المسلمون خصائص جديدة لنترات البوتاسيوم التى تعرف أيضًا بالملح الصخرى أو ملح البارود . وأدى التوصل إلى قوة البارود الدافعة إلى تطور خطير فى صناعة الأسلحة النارية والمدافع ، خاصة بعد أن تبين أن قذائف المدافع تحدث تدميراً أكبر من قاذفات اللهب فى معارك البر والبحر .



نموذج للبيان العملى الذى قدمه د/ جون هالدون ، د/ مايكل بيرن

BZ, 68 (1975)

حواشى (٣)

١ - انظر :

Berthelot, Chimie, pp. 100 - 1; Zenghelis, Feu Grégeois,pp. 265 - 86 ; Cheronis, Chem. Warfare, 364; Ensslin, Government,p. 50 ; Vogel, Science, p.304 .

وانظر أيضًا الخلط الشائع بين البارود والنار الإغريقية فى دراسة : سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية (دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧م) ، ص ٢٣٢ .

٢ - Ellis - Davidson, Secret Weapon, pp. 61 - 74 ; Haldon and Byrne, Possible Solution, pp. 91 - 99 .

٣ - Partington, Greek Fire, p.11; Ellis-Davidson, Secret Weapon,p. 61 .

٤ - أطلق ثيوفانس عليها اسم " النار البحرية " thálassion pûr ، أما الإمبراطور قسطنطين السابع فيطلق عليها " النار السائلة " hygrón pûr . ويلاحظ أن كلاهما وصفها بالمصنعة أو المجهزة انظر :

Theophanes , I, p. 354; DAI, I. 48,pp. 226 - 27 .

وانظر الترجمة العربية لمؤلف قسطنطين السابع فى :

إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران (دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠م) ، ص١٨٢ .

أما صفة الالتصاق فقد أضافها أحد المصادر البيزنطية التى تناولت الاستراتيجية الدفاعية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، فأصبحت " النار المصنعة أو المجهزة سريعة الالتصاق " ، انظر :

Niceph., Praecepta, pp. 4-5 .

وللمزيد عن هذا الموضوع ، انظر :

Dain, Appellations, pp. 121 - 27; Partington, Greek Fire, pp. 17-18 .

٥ - Theophanes, I, p. 354; Toynbee, Constantine, p. 330 .

٦ - Theophanes, I,p. 397 .

وانظر أيضًا : وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٨١م) ، ص١٦١ .

٧ - انظر :

Peri Naumachias, cols. 992 - 93 .

٨ - Liutprand, Antapodosis, cols. 833-34 .

ويذكر الإمبراطور قسطنطين السابع فى أحداث سنة ٩٤٩م أن السفينة الحربية من طراز درومون Dromon كانت مجهزة بثلاث قاذفات لهب ، انظر :

De Caerim, II, p. 672.

٩ - **Primary Chronicle**, p. 72 .

١٠ - Anna Comnena, **Alexiad**, XI, X.2, pp. 360-62 .

١١ - انظر نص القانون رقم (٦٣) للإمبراطور ليو السادس فى :

Novellae Leonis,pp. 230 - 33 .

١٢ - Leo VI, **Taktika**, col. 1093 .

١٣ - DAI. I, 13 , pp. 69 - 71 .

وانظر أيضًا : إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران ، ص٦٨ - ٦٩ .

١٤ - قارن : أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى (القاهرة ، ١٩٦٠م) ، ص١٥٠ حاشية (٨٦) . وانظر أيضًا :

Toynbee, **Constantine**, p. 327 n. 2,6 .

١٥ - انظر مثلاً :

Hime, **Gunpowder**, pp. 5-35; Hime, **Artillery**, pp. 45-63; Cheronis, **Chem. Warfare**, pp. 360 - 65 ; Forbes, **Petroleum History**, pp. 79-90; Partington, **Greek Fire**, pp. 10-32 .

وللمزيد عن الأسلحة الحارقة فى العصور الوسطى ، انظر :

The Oxford History of Technology (Oxford, 1956) II,pp. 374 - 82 .

١٦ - يشير الإمبراطور قسطنطين السابع إلى وجود عدد كبير من آبار النفط حول مدينة تاماتارخا Tama-tarcha (تموتاراكان Tmutarakan) على الشاطىء الشرقى لمضيق كرش Kerch (شمال شرق البحر الأسود) . وكانت هذه المنطقة تابعة لدولة الخزر فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . كما يذكر وجود أحد عشر بئرًا للنفط عند الطرف الشمالى الغربى لجبال القوقاز فى منطقة زيخيا Zikhia والمناطق المجاورة لها ، فضلاً عن تسعة آبار بالقرب من موضع يسمى باغاى Paghai . وكانت إمدادات النفط من هذه المناطق تعتمد على العلاقات الودية التى تربط الإدارة البيزنطية بكل من الخزر والزيخيين . وبالإضافة إلى ذلك يشير قسطنطين السابع إلى وجود بئرين للنفط فى مناطق خاضعة للسيادة البيزنطية المباشرة : الأول فى درزين Derzene ، التى تقع على الذراع الشمالى للفرات الأعلى بين إرزنجان Erzin-jan وارزروم Erzerum (وكانت بيزنطة قد نجحت فى الاستيلاء على إرزروم والمناطق المجاورة لها سنة ٩٤٩م) ، أما الثانى ففى تزيليابرت Tziliapert فى شمال غرب جورجيا . انظر :

DAI, I . 53,p. 285 .

وانظر أيضًا : إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران ، ص ٢٢٤ .

١٧ - Anna Comnena, **Alexiad**, XIII, III, p. 402 , n . 12 .

وعلى الرغم من أن المؤرخة آنا كومنين ذكرت المواد الصلبة المضافة وهى الكبريت والمادة الراتينجية الصمغية ، فإنها أغفلت عن عمد ذكر المادة الرئيسية وهى النفط . انظر أيضًا :

Partington, **Greek Fire**, pp. 29 - 30 .

١٨ - Partington, **Greek Fire**, pp. 14, 30, 32; Eickhoff, **Seekrieg**, pp. 143-44; Haussig, **Civilization**, pp. 208 .

١٩ - Haldon and Byrne, **Possible Solution**, p. 92 .

٢٠ - Leo VI, **Taktika**, cols. 992, 1008; **Niceph., Praecepta**, pp. 4-5 .

ويعتقد الأستاذ بارتنجتون أن العمليات الكيميائية مثل التكرير كانت معروفة فى صورة بدائية منذ القرنين السابع والثامن الميلاديين ، انظر :

Partington, **Greek Fire**, pp. 25, 30 - 31 .

٢١ - Partington, **Greek Fire**,p. 31 .

٢٢ - **Niceph., Praecepta**, pp. 4-5.

وانظر أيضًا :

Forbes, **Petroleum History**, p. 83 .

٢٣ - انظر : Haldon and Byrne, **Possible Solution**, pp. 91-99 .

٢٤ - وجدير بالذكر أن بعض المصادر تشير إلي انبعاث الدخان وحدوث جلبة (هدير) عند استخدام قاذفات النار الإغريقية فى معارك البحر . ويمكن تفسير انبعاث الدخان بأنه ناتج عن احتراق ألياف الكتان فى المجمرة ، أما الجلبة فترجع إلى استخدام المنفاخ بقوة . قارن :

Leo VI, **Taktika**, cols. 1007, 1008; **De Caerim**, II, p. 658; Haldon Byrne, **Possible Solution**, p. 94 .

٢٥ - **De Caerim**, II, pp. 675 - 76 .

٢٦ - Haldon and Byrne, **Possible Solution**, p. 96 .

٢٧ - **Theophanes**, I, p. 499 .

٢٨ - Toynbee, **Constantine**, p. 330 .

وقارن أيضًا : أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص٢٧٧ ، حاشية (١٣) . وللمزيد عن عصيان القائد البيزنطى إيفيميوس Euphemius ، انظر :

فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة فؤاد حسنين على (مطبعة دار الفكر العربى ، القاهرة بدون تاريخ) ، ص٦٢ - ٨٤ ؛ أسد رستم : الروم ، جـ١ ، ص٣٢٣ .

وانظر أيضًا :

Canard, **Muslim World**, p. 728 .

٢٩ - أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص٢١٤ ؛ فازيليف : العرب والروم ، ص١٢٠ - ٢١ .
وانظر أيضًا :

Eickhoff, **Seekrieg**, pp. 154, 173 .

٣٠ - Eickhoff, **Seekrieg**, p. 197; Toynbee, **Constantine**, p. 330 .

٣١ - Cameniates, **De Exp.**, 34.7, p. 32 .

٣٢ - (الرسالة الثانية لأبى دلف ٤٢) نقلاً عن :
سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى : **دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية** (منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٦م) ، ص ١٨١ .

٣٣ - (وصف الأندلس لابن الشباط ١٨٥) ، نقلاً عن :
سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى : **دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية** ،ص ١٨١ .

٣٤ - انظر :

Christides, **Arabic Translation**,pp. 137 - 43; Christides, **Naval Technology**,p. 322 .

٣٥ - ابن المنكلى (محمد بن منكلى الناصرى) : **الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر** ، تحقيق محمد عبد الدايم (رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة بدون تاريخ) ، ص ٣ .

٣٦ - Toynbee, **Constantine**, p. 327 .

(٥)

السلاف Slavs فى شبه جزيرة البلقان

وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها

(٥٩١ - ١٠١٨م)

لاشك أن أهم تغير أصاب التكوين البشرى لشبه جزيرة البلقان منذ العصر القديم يتمثل فى غزو القبائل السلافية لأقاليم البلقان واستقرارها هناك [١]. ولاتزال الظروف التى صاحبت هذا الغزو والتسلسل التاريخى لقيام المستوطنات السلافية فى البلقان رغم كل ما كتب عن هذا الموضوع مسألة تثير الحيرة . والسبب فى ذلك يرجع إلى قلة ماورد فى المصادر التاريخية من ناحية ، كما أن التسلسل التاريخى للأحداث لايزال غير واضح من ناحية أخرى . ويلاحظ أن عدم وضوح التسلسل التاريخى للأحداث يظهر جليًا فى المصدر المعروف بـ " معجزات القديس ديمترى" Miraciula Sancti Demetri ، الذى يعد أهم مصدر لدينا عن استقرار السلاف فى شبه جزيرة البلقان [٢]. ولقد تناول عدد من المؤرخين المحدثين هذا المصدر بالدراسة، إلا أن الدراسات التى خرجوا بها فى النهاية عادت لتؤكد حيرة الباحث ، لأن هذه الدراسات قدمت تصورات مختلفة لتسلسل الأحداث ولم تحسم القضية [٣].

على أية حال ، من المعروف أن أول ظهور للسلاف فى الإمبراطورية البيزنطية حدث فى القرن السادس الميلادى [٤]. فمنذ عهد الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ - ٥٦٥م) وحتى نهاية القرن السادس ، أخذ السلاف يغيرون على الأقاليم البيزنطية فى شبه

جزيرة البلقان . وحتى بداية عهد الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢م) لم يحاول السلاف الاستقرار هناك . وشهدت الفترة الممتدة من سنة ٥٧٩م وحتى سنة ٥٨٧م أعنف إغارات قامت بها هذه القبائل المتبربرة على الممتلكات البيزنطية فى البلقان . وعلى الرغم من أن الآفار Avars تولوا قيادة وتوجيه تلك الإغارات ، إلا أن السلاف شكلوا أغلبية هذه العناصر المتبربرة التى أغارت على البلقان . لقد جاء السلاف فى أعداد ضخمة - فى وقت انشغلت فيه الجيوش البيزنطية بقتال الفرس على الجبهة الشرقية - وهاجموا مناطق عديدة فى البلقان . لقد أغاروا على الليريا Illyricum وتراقيا Thrace وتوغلوا جنوبًا إلى أقاليم اليونان وشبه جزيرة البلوبونيز ، وساعدوا الآفار فى اجتياح العديد من المراكز البيزنطية ، وفى سنة ٥٨٦م ألقوا الحصار على مدينة سالونيكا Thessaloniki . وكان هذا هو الحصار الأول لهذه المدينة التى كان مقدراً لها أن تشهد سلسلة من هجمات السلاف (٥).

وجدير بالذكر أن السلاف على خلاف الآفار لم يجيئوا للسلب والنهب فقط ، بل جاءوا ليستقروا فى الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان . فقد كتب يوحنا الأفسوسى John of Ephesus الذى عاصر تلك الأحداث ، قائلاً :

" لايزال السلاف يعسكرون ويقطنون أقاليم الإمبراطورية فى البلقان حيث يعيشون هناك فى سلام بعيداً عن القلق والخوف "(٦).

أدركت الحكومة البيزنطية خطورة الموقف فى البلقان ، فما أن انتهى الإمبراطور موريس من الحرب الفارسية حتى بدأ هجومًا مضاداً ضد الآفار سنة ٥٩١م . وكان للعمليات العسكرية التى وجهها الإمبراطور ضد الآفار أثراً كبيراً فى وقف هجمات الآفار المتكررة على القسم الأوروبى من الإمبراطورية فى البلقان . ويبدو أن الآفار أخذوا ابتداءً من ذلك الوقت يتطلعون للغرب ، وقاموا بالفعل بتحويل إغاراتهم فى اتجاه الغرب وراء حدود الأقاليم البيزنطية . وحددت اتفاقية السلام التى عقدتها بيزنطة معهم حوالى سنة ٦٠١م نهر الدانوب كحد فاصل بين القوتين ، إلا أن هذه الإتفاقية تركت الباب مفتوحًا أمام الإدارة العسكرية البيزنطية لعبور النهر شمالاً لمطاردة أية جماعة من جماعات السلاف تهدد المصالح البيزنطية (٧). ومن غير المعروف على وجه الدقة أثر العمليات العسكرية البيزنطية التى وجهها الإمبراطور موريس ابتداءً من سنة ٥٩١م على السلاف . فليس هناك ما يشير إلى أن السلاف الذين غزوا البلقان قد عادوا إلى مواطنهم شمال نهر الدانوب .

ومن المرجح أن استقرار السلاف فى شبه جزيرة البلقان قد حدث فى مطلع القرن السابع الميلادى خلال العهد المضطرب للإمبراطور فوقاس (٦٠٢ - ٦١٠م) والسنوات الأولى من عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) . بالنسبة لعهد الإمبراطور فوقاس لا تشير المصادر بشكل واضح إلى أية إغارات من قبل الآفار والسلاف على الممتلكات البيزنطية فى البلقان باستثناء تلك الإشارة التى وردت فى حولية ثيوفانس Theophanes نقلاً عن حولية ثيوفيلاكت سيموكاتا Theophylact Simocatta [٨]. ففى تلك الإشارة يتضح أن الآفار هاجموا الأقاليم البيزنطية مرة أخرى . أما بالنسبة لعهد الإمبراطور هرقل فتشير المصادر إلى إغارات السلاف بشكل أكثر تفصيلاً وإن كان التسلسل التاريخى مضطرب فى معظم من الأحيان . ويتضح من هذه المصادر أن السلاف توغلوا حتى وصلوا إلى البحر الإيجى . أكثر من هذا تشير المصادر إلى قيام السلاف ببناء السفن والإغارة على سواحل تسالى Thessaly والجزر المحيطة بها [٩]. والمرجح أن هذه الأحداث وقعت حوالى سنة ٦١٤م[١٠]. وفى العام التالى أغار السلاف على الإقليم المحيط بمدينة سالونيكا ثم حاصروا هذه المدينة . ولكن المدينة صمدت للحصار مما دفع السلاف إلى طلب العون من خان الآفار ، وحين جاء الآفار بعد ذلك بعامين تأكد للجميع صعوبة الاستيلاء على سالونيكا لمناعتها وبسالة أهلها .

ويعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن السلاف الذين أغاروا على مدينة سالونيكا أكثر من مرة جاءوا من مناطق استيطانهم الجديدة فى البلقان وبالتحديد فى مقدونيا والإقليم المحيط بسالونيكا ، وأنهم استقروا فى هذه الأقاليم فى الفترة الممتدة بين نهاية عهد الإمبراطور موريس والسنوات الأولى لعهد الإمبراطور هرقل [١١].

استقرت العناصر السلافية بأعداد كبيرة فى مناطق متعددة من شبه جزيرة البلقان وامتدت مناطق استيطانهم عبر اليونان جنوبًا إلى البلوبونيز لدرجة أن المناطق التى ظلت تحت الإدارة المباشرة للإمبراطورية كانت قليلة واقتصرت على : تراقيا ، مدينة سالونيكا ، أتيكا Attica ، شرق البلوبونيز ، جزر البحر الإيجى ، بعض المراكز القليلة على ساحل البحر الإدرياتى وجزر البحر الأيونى [١٢]. والمرجح أن استقرار السلاف بأعداد كبيرة فى الأقاليم البيزنطية بالبلقان لم يؤد إلى القضاء على السكان البيزنطيين الأصليين [١٣].

كانت العمليات العسكرية التى وجهها الإمبراطور موريس ضد الآفار والسلاف فى البلقان ناجحة ولكنها توقفت بسبب تمرد الجيش وثورته على الإمبراطور ، وتبع ذلك اعتلاء الإمبراطور

فوقاس للعرش وبداية فترة اضطراب فى الداخل والخارج . ولاشك أن السلاف استغلوا هذه الفترة المضطربة وأخذوا يستقرون بأعداد ضخمة وعلى نطاق واسع فى الأقاليم البيزنطية بالبلقان . وبدت الإدارة الإمبراطورية عاجزة وغير قادرة على تحديد وجهتها . وحين اعتلى هرقل العرش ، كانت الإمبراطورية منهكة ومضطربة الأحوال ، وكانت المشكلة الرئيسية هى كيفية التصدى لخطر الفرس الذين استولوا على معظم أقاليم الإمبراطورية الشرقية . ووجد هرقل نفسه مضطراً لخوض صراع طويل ومرير ضد الإمبراطورية الفارسية . وما أن حقق الإمبراطور النصر فى النهاية حتى ظهر خطر جديد من الشرق أيضًا متمثلاً فى العرب المسلمين.

وهكذا لم تكن الإدارة البيزنطية منذ مطلع القرن السابع الميلادى فى موقف يسمح لها بالاهتمام بالبلقان . وفى النصف الثانى من القرن السابع كان الوقت قد تأخر لإنقاذ شبه جزيرة البلقان من التغلغل السلافى . وكانت الحكومة البيزنطية تأمل فى نشر الحضارة البيزنطية بين العناصر السلافية المستقرة فى البلقان لتنصهر فى البوتقة البيزنطية (١٤). ولكن الحضارة البيزنطية لم تنتشر بسرعة بين السلاف فى البلقان وطوال الفترة الممتدة من مطلع القرن السابع وحتى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، احتفظ العديد من السلاف بهويتهم اللغوية (١٥). والمعروف أن السلاف المستقرين فى البلقان كانوا عبارة عن عناصر بشرية غير منظمة تفتقر إلى الوحدة والتنظيم السياسى ولم يكن لها مطامع سياسية . كذلك كان السلاف شعب زراعى مجتهد عمل على تعمير الأرض التى استقر فيها . وفى ظل هذه الخصائص التى ميزت السلاف ، حرصت الإدارة البيزنطية على ترويضهم وإغرائهم لاعتناق الديانة المسيحية الأرثوذكسية بهدف استيعابهم فى الكيان الإمبراطورى . ولكن الجهود البيزنطية لم تحقق دائمًا النجاح السريع. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قيام البلغار بغزو شبه جزيرة البلقان(١٦).

قام البلغار حوالى سنة ٦٧٠م بعبور نهر الدانوب إلى الإقليم الشمالى الشرقى من شبه جزيرة البلقان . وأدى ظهور البلغار بخصائصهم الحضارية إلى إضعاف جهود الحكومة البيزنطية لاستيعاب العناصر السلافية فى الكيان الإمبراطورى . ولو اقتصر الأمر على السلاف فقط لتغيرت الصورة وربما استطاعت الإمبراطورية احتواء كل العناصر السلافية المستقرة فى البلقان بسرعة .

لقد كان فى إمكان الإمبراطورية البيزنطية من الناحية النظرية أن تدعى السيادة على العديد من الجماعات السلافية المستقرة فى البلقان بما فيهم قبائل الصرب فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة [١٧]. ولكن هذه السيادة فى الواقع كانت محدودة فى المناطق التى كانت السلطة الإمبراطورية المركزية ملموسة . ويجب ألا ننسى أن هجمات البلغار على الأقاليم البيزنطية فى البلقان عملت على إضعاف هذه السلطة الإمبراطورية . ويمكن القول أن البلغار الذين طوروا نظامهم السياسى والعسكرى منذ فترة طويلة قبل عبور نهر الدانوب قد استطاعوا بمرور الوقت أن يحققوا ما لم يحققه أي غزاة رحل لشبه جزيرة البلقان من قبل . لقد استطاعوا تحقيق كيان حضارى مستقل قادر على أن يكون - فى نظر الجماعات السلافية المستقرة فى البلقان - البديل للإمبراطورية البيزنطية [١٨]. حقيقة لم تنمو العلاقات بسرعة بين السلاف والبلغار ، ولكن ما أن نمت وتقدمت حتى ازدادت المصاعب فى وجه الإدارة الإمبراطورية من أجل احتواء العناصر السلافية داخل الكيان الإمبراطورى .

لم ترحب الإدارة البيزنطية بعبور البلغار لنهر الدانوب . فسياسة بيزنطة التقليدية تجاه البرابرة القاطنين المناطق الواقعة شمال نهر الدانوب هى الترحيب بصداقتهم واتخاذهم حلفاء . ولكن الحكومة البيزنطية عارضت دائمًا وتصدت لأية محاولة من جانبهم لعبور الدانوب . ولهذا قام الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥م) بحملة عسكرية قادها بنفسه ضد البلغار ، إلا أن الحملة منيت بالفشل وانتصر البلغار . ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية فى موقف يسمح لها باستئناف القتال ، فقد أدى مرض الإمبراطور إلى انهيار الروح المعنوية للجيش فى أشد الأوقات حرجًا . لقد جاء البلغار ليستقروا أيضًا فى شبه جزيرة البلقان . واضطر الإمبراطور قسطنطين الرابع إلى عقد اتفاقية سلام مع خان البلغار أسباروخ Aspar-uch سنة ٦٨١م. واعترف الإمبراطور فى هذه الاتفاقية بوجود دولة بلغارية مستقلة فى البلقان [١٩]. ولم يتضح حجم الكارثة التى وقعت فى البداية ، لأن المنطقة التى استقر فيها البلغار كانت قد ضاعت من قبل حين استقرت فيها العناصر السلافية . ولكن مع حلول القرن الثامن الميلادى أصبحت بلغاريا خطراً كبيراً على الإمبراطورية .

إذا نظرنا إلى خريطة للممتلكات البيزنطية فى القسم الأوروبى من الإمبراطورية سنة ٦٨١م - باستثناء إيطاليا وصقلية - ستتضح حقيقة هامة ، وهى الاختلاف الكبير بين ما تدعى الإمبراطورية البيزنطية ملكيته وبين ما تمتلكه بالفعل [٢٠]. ففى ذلك الوقت كان للبلغار دولة مستقلة فى شمال شرق البلقان ، كما أن الصرب Serbs والكروات Croats كانت

لهم أيضًا دويلات شبه مستقلة فى الجزء الشمالى الغربى من البلقان . وفى ذلك الوقت أيضًا كان أسوأ ما فى هجرة السلاف جنوبًا قد انتهى وانقشع الغبار عن البلقان ، وأصبح السلاف حقيقة فى كل مكان [٢١]. ويلاحظ أنه وسط هذه التجمعات السلافية وجدت أيضًا تجمعات بيزنطية واستطاعت الصمود [٢٢]. ومن المرجح أن هذه المجتمعات البيزنطية فى البلقان كانت أكثر عدداً فى اتجاه الجنوب ، وفى القسم الشرقى من البلوبونيز وفى جزر البحى الإيجى . وكانت هذه المجتمعات البيزنطية كافية لتأكيد إدعاءات السيادة الإمبراطورية هناك [٢٣]. كذلك كانت الإمبراطورية البيزنطية تسيطر على عدد من المدن والمراكز الحصينة مثل سالونيكا وكورنثا وموغفازيا Monemvasia وباتراس Patras . وكان الأسطول البيزنطى ، بعد انسحاب العرب المسلمين من أمام القسطنطينية ورفعهم الحصار البحرى سنة ٦٧٨م ، قد استرد سيطرته على البحر الإيجى .

حقيقة أن الغزو السلافى للبلقان قد دفع بعض السكان الأصليين إلى الهجرة [٢٤]، ولكن نسبة كبيرة من السكان صمدت . وبفضل هذه النسبة الطيبة من السكان البيزنطيين التى عاونت الإدارة البيزنطية كان مركز بيزنطة يتحسن تدريجيًا فى البلقان . ولاشك أن المدينة البيزنطية الهامة فى شبه جزيرة البلقان ، التى انطلقت منها جهود الإدارة الإمبراطورية من أجل استرداد السيادة على البلقان كانت مدينة سالونيكا [٢٥]، على الرغم من أن معظم الإقليم المحيط بالمدينة كانت تقطنه أعداد كبيرة من السلاف [٢٦]. وكان بقاء مدينة سالونيكا فى يد الإدارة البيزنطية هامًا للغاية فبدون هذه المدينة ، ذات الموقع الجغرافى الهام ، تصبح كل مشاريع الحكومة البيزنطية من أجل استرداد سيطرتها على اليونان والبلوبونيز صعبة التحقيق إن لم تكن مستحيلة . لقد كان فى إمكان المراكز الحصينة، مثل باتراس Patras وموغفازيا Monemvasia فى شبه جزيرة البلوبونيز ، الصمود لهجمات السلاف رغم بعد وانعزال موقعيهما . ولكن بدون مدينة سالونيكا كحلقة وصل ومركز إمداد كان مصيرهما محتومًا .

ولقد أدرك أعداء الإمبراطورية فى البلقان الأهمية الاستراتيجية لمدينة سالونيكا فحاول السلاف والآفار الاستيلاء عليها أكثر من مرة فى سنة ٥٨٦م وحوالى سنة ٦١٧م [٢٧]. وتكررت محاولات السلاف ضد سالونيكا فى النصف الثانى من القرن السابع وفى القرن الثامن الميلادى بالتحالف مع البلغار [٢٨].

وكان على الإدارة البيزنطية التدخل فى البلقان من أجل إنقاذ سالونيكا . ولقد جاء الوقت المناسب فى سنة ٦٥٧/٦٥٨م حين انتهز الإمبراطور قنسطانز الثانى Constans (٦٤١ - ٦٦٨) فرصة انشغال المسلمين بمشاكلهم الداخلية وقام بحملة ناجحة ضد السلاف فى شبه جزيرة البلقان [٢٩]. وكانت هذه الحملة هى أول هجوم عسكرى بيزنطى ضد السلاف منذ عهد الإمبراطور موريس [٣٠]. وفى هذه الحملة هاجم الإمبراطور السلاف الذين استقروا فى إقليم مقدونيا وأولئك الذين استقروا فى الإقليم المحيط بمدينة سالونيكا . ولم يقم الإمبراطور بطرد هؤلاء السلاف ولكنه أخضعهم للسيادة البيزنطية [٣١]. كذلك قام الإمبراطور بتهجير أعداد كبيرة من هؤلاء السلاف إلى آسيا الصغرى . ومنذ ذلك الوقت استقر السلاف أيضًا فى بعض أقاليم آسيا الصغرى وتم تجنيد أعداد منهم فى الجيش البيزنطى [٣٢]. وكان السلاف المستقرين فى الإقليم المحيط بسالونيكا لايزالوا محتفظين بخصائصهم ولم ينعزلوا عن بقية القبائل السلافية التى استقرت فى مناطق أخرى من البلقان [٣٣].

وكانت الحملة التى قام بها الإمبراطور قنسطانز الثانى تمثل الحد الأدنى من اهتمام الحكومة البيزنطية الضرورى لمواجهة تفاقم مشكلة السلاف .، وتمت هذه الحملة بنجاح وبدون نفقات باهظة . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الحملة تأمين مدينة سالونيكا من خطر السقوط السريع فى يد السلاف وذلك بإخضاع العناصر السلافية المستقرة فى الإقليم المحيط بالمدينة وفرض الجزية عليها [٣٤].

كانت حملة الإمبراطور قنسطانز الثانى نموذجًا اتبعته الإدارة الإمبراطورية كلما دعت الحاجة وتوفرت الظروف المناسبة . وفى سنة ٦٨٨ / ٦٨٩م عقد الإمبراطور جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥ / ٧٠٥ - ٧١١م) هدنة مع المسلمين فى الشرق ، فتوفرت الظروف المناسبة للاهتمام بالبلقان [٣٥]. وفى هذا العام قاد الإمبراطور حملة كبيرة ناجحة إلى البلقان وتوغل عبر أقاليم استقرت فيها قبائل سلافية حتى وصل إلى مدينة سالونيكا . وأدى هذا بالطبع إلى تدعيم مركز الإمبراطورية فى الإقليم المحيط بسالونيكا وأجبر القبائل السلافية على الخضوع للسيادة البيزنطية [٣٦]. ولم تقتصر النتائج على توطيد مركز سالونيكا كقاعدة هامة للإدارة البيزنطية ، بل أكثر من هذا أدى إخضاع السلاف إلى تأكيد السلطة المركزية البيزنطية على إقليم ستريمون Strymon الذى يقع شمال سالونيكا ، وبهذا تم وصل مدينة سالونيكا بإقليم تراقيا [٣٧]. كذلك قام الإمبراطور بتهجير أعداد كبيرة من السلاف إلى آسيا

الصغرى، وبالتحديد إلى إقليم بيثينيا Bithynia وثيم الأوبسيق Opsikion لتعويض النقص فى سكان بيثينيا ولزيادة القوة العسكرية لثيم الأوبسيق (٣٨).

إن أبعاد حملة جستنيان الثانى ٦٨٨ / ٦٨٩م تتضح أكثر عند فحص موقف الإمبراطورية البيزنطية تجاه كل من السلاف والبلغار . وتفسر طبيعة هذه العلاقة الثلاثية سياسة الحكومة البيزنطية بالنسبة للإقليم المحيط بمدينة سالونيكا بل وبالنسبة للمتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان (٣٩). لقد سمح الإمبراطور جستنيان الثانى مثل سلفه قنسطانز الثانى ببقاء المجتمعات السلافية داخل حدود الإمبراطورية فى البلقان بشرط الخضوع للسيادة الإمبراطورية. وكان هدف الإدارة الإمبراطورية أن تقوم هذه العناصر الجديدة بزراعة الأرض التى هجرها أصحابها تحت وطأة الغزو الخارجى وأن تتقبل الحضارة البيزنطية . فإذا ما تقبلت هذه العناصر الديانة المسيحية الأرثوذكسية واللغة اليونانية وانخرطت فى جند الثيمات للدفاع عنها ، تكون الإدارة الإمبراطورية قد عوضت النقص الواضح فى السكان البيزنطيين فى البلقان واكتسبت دماءً جديدة وعناصر منتجة .

وكانت حملة جستنيان الثانى أكثر اهتمامًا بالخطر البلغارى الجاثم فى شمال شرق البلقان والذى يتهدد الممتلكات البيزنطية (٤٠). إن وجود دولة بلغارية مستقلة فى شمال شبه جزيرة البلقان كان مكروهًا واضطرت الحكومة البيزنطية إلى التسامح فيه ، ولكن بيزنطة ما كانت لتسمح بوقوع سالونيكا أو تراقيا أو شرق مقدونيا تحت سيطرة البلغار . ومن الجدير بالذكر أن كثافة السكان البيزنطيين الأصليين كانت قليلة فى مقدونيا والإقليم المحيط بمدينة سالونيكا ، لهذا سمحت الحكومة البيزنطية ببقاء السلاف ولم تحاول طردهم حتى لا تعمل على خلق منطقة فراغ تغرى البلغار باحتلالها . وهكذا يمكن القول إن حملة جستنيان الثانى عملت على طرد البلغار بعيداً عن تراقيا وشرق مقدونيا وإقليم سالونيكا . كما عملت أيضًا على إخضاع السلاف وتهجير أعداد كبيرة منهم إلى آسيا الصغرى لتعمير بعض المناطق فيها . وبالنسبة للسلاف الذين خضعوا للسيادة البيزنطية ، حرصت الإدارة الإمبراطورية على الحيلولة دون اتحاد أو حتى اتّصال هذه العناصر السلافية بالبلغار . وفى هذا المجال حددت الحكومة البيزنطية جملة قواعد للحيلولة دون اتصال السلاف بالبلغار ولضمان خضوع العناصر السلافية للسيادة البيزنطية (٤١).

ويبدو أن هذه السياسة البيزنطية قد حققت بعض النجاح . ولكن استمرار نجاح هذه السياسة كان يعتمد على قوة الإمبراطورية العسكرية واهتمامها بممتلكاتها فى البلقان . ولم

تكن الإمبراطورية البيزنطية قادرة دائمًا على توفير القوة لتأكيد إرادتها وردع أعدائها فى القسم الأوروبى من ممتلكاتها . وخلال انشغال الإدارة البيزنطية بالصراع ضد العرب المسلمين فى آسيا الصغرى ، أو أثناء الانشغال بالمشاكل الداخلية ، كان البلغار ينتهزون الفرصة لتهديد المصالح البيزنطية سواء بالاعتداء على أقاليم تراقيا ومقدونيا ، أو بإثارة القلاقل بين العناصر السلافية المستقرة فى الأقاليم البيزنطية والعمل على كسب ود هؤلاء السلاف (٤٢). لقد أدرك البلغار أن الاتحاد مع العناصر السلافية المستقرة فى بلغاريا ، وتلك المستقرة فى الأقاليم البيزنطية ضرورى من أجل إقامة دولة بلغارية قوية فى البلقان .

ولم تكن العلاقات بين البلغار والإمبراطورية البيزنطية سيئة دائمًا . فأحيانًا كانت المصالح البيزنطية تلتقى مع المصالح البلغارية كما حدث سنة ٧٠٥م حين تحالف خان البلغار ترفل Tervel (٧٠١ - ٧١٨م) مع الإمبراطور المعزول جستنيان الثانى وساعده فى استرداد عرشه(٤٣). ولكن المطامع البلغارية كانت واضحة ، وكانت الحكومة البيزنطية حريصة - طوال القرن الثامن الميلادى بالدبلوماسية وعن طريق بناء حلقة من التحصينات القوية على طول حدودها الشمالية - على الحيلولة دون توغل البلغار إلى تراقيا أو فى عمق مقدونيا .

ولكن فى منتصف القرن الثامن الميلادى أخذ الخطر البلغارى بعداً خطيراً واحتاج الأمر إلى قوة بيزنطة العسكرية . فلقد نظر البلغار إلى التحصينات البيزنطية على حدودهم كخطر يتهددهم ، ولم يكتفو بإثارة السلاف القاطنين فى مقدونيا بل أغاروا على الممتلكات البيزنطية فى تراقيا سنة ٧٥٦م(٤٤). وأدرك الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥م)، الذى كان قد حقق نوعًا من الاستقرار فى الجبهة الشرقية ، ضرورة التدخل العسكرى فى البلقان . ففى سنة ٧٥٨م شن الإمبراطور حملة سريعة حاسمة ضد المناطق التى استقر فيها السلاف فى مقدونيا ، وأخضع هذا الإقليم للإدارة البيزنطية (٤٥). وأدت هذه الحملة أيضًا إلى عزل السلاف فى مقدونيا عن النفوذ البلغارى فى الشمال . وما أن انجز الإمبراطور هذه المهمة حتى التفت إلى مصدر الخطر الحقيقى المتمثل فى دولة بلغاريا . وقام الإمبراطور بحوالى تسع حملات عسكرية ضد بلغاريا ، واتبع فى معظمها تكتيك الهجوم المزدوج ليصبح هذا التكتيك تقليداً عسكريًا فى قتال البلغار بعد ذلك ، والحق الهزيمة تلو الهزيمة بالبلغار(٤٦). وعلى الرغم من التفوق العسكرى البيزنطى وموهبة قسطنطين الخامس العسكرية وكفاءته السياسية لم يتمكن الإمبراطور من القضاء نهائيًا على البلغار . وطوال

ثلاثة عشر عامًا بدءًا من سنة ٧٦٢م استمرت العمليات العسكرية بشكل غير متصل حتى نهاية حياة الإمبراطور الذى توفى خلال حملته الأخيرة ضد البلغار فى ١٤ سبتمبر ٧٧٥م دون أن يتم التوصل إلى حل نهائى لمشكلة البلغار (٤٧). وإذا كانت حملات قسطنطين الخامس لم تقض على بلغاريا فإنها استنزفت قوتها العسكرية وعطلت نموها لبعض الوقت . ونتج عن هذا تأمين مقدونيا وضمان عدم تدخل البلغار هناك لسنوات قادمة (٤٨). كذلك تم تدعيم مركز سالونيكا كقاعدة هامة للنفوذ البيزنطى . ويمكن القول أن النفوذ البيزنطى على السلاف المستقرين فى الأقاليم البيزنطية بالبلقان قد نمى بوضوح بفضل جهود قسطنطين الخامس . وبدا وكأن بيزنطة تسير قدمًا فى سبيل استرداد سيادتها على شبه جزيرة البلقان ، ولكن المستقبل كان ينذر بمزيد من الخطر .

وإذا كانت وفاة الإمبراطور قسطنطين الخامس سنة ٧٧٥م قد وضعت نهاية مؤقتة للصراع ضد بلغاريا ، فإنها لم تضع نهاية للجهود البيزنطية من أجل تأكيد السلطة الإمبراطورية فى مقدونيا واليونان والبلوبونيز . لقد استفادت الإمبراطورية من الهدوء النسبى الذى ساد العلاقات البيزنطية البلغارية ، وقامت الحكومة البيزنطية فى أوائل عهد إيرين Irene - كوصية على ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م) - بإرسال حملة عسكرية بقيادة ستاوراكيوس Stauracius سنة ٧٨٣م إلى الإقليم المحيط بمدينة سالونيكا . وبعد أن أخضع السلاف القاطنين هناك مرة أخرى ، تقدم الجيش البيزنطى جنوبًا إلى وسط اليونان وشبه جزيرة البلوبونيز (٤٩). وهناك أخضع القائد البيزنطى القبائل السلافية للحكم البيزنطى وفرض عليها دفع الجزية (٥٠). وهكذا عادت السيادة البيزنطية على أقاليم اليونان والبلوبونيز .

ويلاحظ أنه طوال قرن وربع قرن من الزمان (٦٥٨ - ٧٨٣م) كانت سالونيكا وبالتحديد الإقليم المحيط بهذه المدينة هدفًا لأربع حملات عسكرية بيزنطية : حملة قنسطانز الثانى سنة ٦٥٨/٦٥٧م ، وحملة جستنيان الثانى سنة ٦٨٨ / ٦٨٩م ، وحملة قسطنطين الخامس سنة ٧٥٨ م، ثم أخيرًا حملة ستاوراكيوس فى عهد وصاية أيرين سنة ٧٨٣م . والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : لماذا استلزم الأمر كل هذا الجهد العسكرى ؟ وهل كانت الإدارة البيزنطية غير مسيطرة تمامًا على الموقف فى الأقاليم المحيطة بمدينة سالونيكا لفترة طويلة ؟ تتضح الإجابة على هذا السؤال فى سياسة التهجير التى قام بها الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١م) . ففى سنة ٨١٠م قام نقفور الأول بتهجير أعداد كبيرة من السكان البيزنطيين من ثيمات آسيا الصغرى إلى المناطق التى استقر فيها السلاف فى البلقان (٥١).

والحقيقة أنه قبل عملية تهجير العناصر البيزنطية إلى البلقان سنة ٨١٠م، كانت أعداد السلاف المستقرين فى الإقليم المحيط بسالونيكا ، والقاطنين أقاليم مقدونيا واليونان والبلوبونيز كبيرة بالمقارنة مع عدد السكان البيزنطيين المستقرين هناك . ولقد جعلت هذه الحقيقة الحكومة البيزنطية عاجزة عن تأكيد سيطرتها الكاملة على تلك الأقاليم بعد عودة كل حملة من الحملات العسكرية التى أرسلتها إلى هناك . لقد كان الأمر يحتاج لوجود عدد أكبر من العناصر البيزنطية التى تتكلم اليونانية وتعتنق المسيحية الأرثوذكسية كى يتحقق اندماج العناصر السلافية وانصهارها فى بوتقة الحضارة البيزنطية . وكانت الإدارة البيزنطية تفتقد الحل الحقيقى لهذه المشكلة قبل عهد الإمبراطور نقفور الأول (٥٢).

وكان الإمبراطور نقفور الأول قد تأكد من عدم فاعلية الحملات العسكرية ضد السلاف بعد تلك الثورة التى قام بها السلاف القاطنين شبه جزيرة البلوبونيز ضد السيادة البيزنطية . ففى أوائل عهد نقفور الأول ثار السلاف فى البلوبونيز وقاموا بنهب ممتلكات جيرانهم البيزنطيين ثم هاجموا قلعة باتراس Patras سنة ٨٠٥م، بيد أن سكليروس Sclerus قائد ثيم البلوبونيز الحق بهم الهزيمة . وأمر الإمبراطور بإعادة بناء باتراس لتصبح مدينة ، ونقل إليها عناصر بيزنطية من إقليم كالابريا Calabria لتعميرها ، كما حول كنيستها إلى أسقفية (٥٣). ولاشك أن هزيمة السلاف عند قلعة باتراس سنة ٨٠٥ م، فضلاً عن تهجير أعداد كبيرة من السكان البيزنطيين من أقاليم آسيا الصغرى إلى إقليم سالونيكا وبقية أقاليم اليونان والبلوبونيز سنة ٨١٠م ، قد نتج عنها استرداد الإدارة البيزنطية لسيادتها على اليونان والبلوبونيز كما أنها كانت البداية الحقيقية والعملية لامتصاص العناصر السلافية المستقرة هناك فى الكيان الإمبراطورى (٥٤).

ويمكن القول أن أحوال السلاف استقرت إلى حد بعيد بعد سنة ٨١٠م فى الإقليم المحيط بمدينة سالونيكا . والمرجح أن المشكلات التى تسببت فيها العناصر السلافية أصبحت قليلة ، ولم تحتاج إلى نفس القوة العسكرية التى احتاج لها الأمر دائمًا قبل سنة ٨١٠م . فالمصادر تشير إلى أن السلاف فى إقليم سالونيكا عاشوا حياة هادئة وأنهم كانوا تابعين مخلصين للإدارة البيزنطية وأنهم قاتلوا بشجاعة إلى جانب البيزنطيين ودافعوا عن مدينة سالونيكا عندما تعرضت لهجوم المسلمين سنة ٩٠٤م(٥٥). وأدى استقرار الأمور فى الإقليم المحيط بمدينة سالونيكا فى القرن التاسع الميلادى ، إلى تحسن الأحوال لصالح الإدارة البيزنطية فى أقاليم اليونان والبلوبونيز وتأكد هذا فى تطور نظام الثيمات وإنشاء ثيمات جديدة .

وإذا أردنا تحديد الأقاليم التى كانت تحت الحكم المباشر للإدارة الإمبراطورية والأقاليم التى كانت تابعة اسميًا للإمبراطورية ، فمن الضرورى أن نحدد مدى انتشار نظام الثيمات فى شبه جزيرة البلقان فهذا هو المقياس الصحيح للأوضاع الحقيقة . فحيث وجدت الثيمات ، وجدت الإدارة البيزنطية المباشرة والحقيقية (٥٦). والمعروف أنه عند نهاية القرن السابع الميلادى كان لبيزنطة ثيم تراقيا فى شمال البلقان ، وثيم هلاس Hellas فى الجنوب . ولقد استمر هذا الوضع فترة طويلة ، وعند نهاية القرن الثامن الميلادى أنشأت الحكومة البيزنطية ثيم مقدونيا ليكون ثيمًا مستقلاً عن ثيم تراقيا الأوروبى . ولم يكن هذا الثيم الجديد يضم كل إقليم مقدونيا الجغرافى ، ففى الواقع كان هذا الثيم يشتمل على غرب تراقيا والجزء الشرقى من إقليم مقدونيا الجغرافى (٥٧). كذلك تم إنشاء ثيم البلوبونيز فى أواخر القرن الثامن أو مطلع القرن التاسع الميلادى (٥٨). وفى السنوات الأولى للقرن التاسع الميلادى أنشأت الإدارة الإمبراطورية ثيم سفالونيا Cephalonia الذى ضم جزر البحر الأيونى فى غرب اليونان(٥٩). وخلال النصف الأول من نفس القرن أصبحت سالونيكا والإقليم المحيط بها ثيمًا مستقلاً ، كما تحول ميناء ديراخيوم Dyrrachium ، أهم قاعدة بحرية للإمبراطورية على البحر الأدرياتى ، والإقليم المحيط به إلى ثيم مستقل أيضًا حوالى نفس الوقت (٦٠). وهكذا أصبح جزء كبير من أقاليم البلقان يخضع للإدارة البيزنطية المباشرة . وكانت المستوطنات السلافية تقع فى إطار هذه التنظيمات الإدارية العسكرية .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض القبائل السلافية التى استقرت فى اليونان وخصوصًا تلك التى استقرت فى البلوبونيز ، ظلت تعيش فى ظل نوع من الحكم الذاتى رغم التطور الذى أصاب الثيمات الأوروبية . فبعض القبائل السلافية المستقرة داخل حدود ثيمى هلاس والبلوبونيز احتفظت بكثير من خصائصها وعاشت فى ظل نوع من الحكم الذاتى لفترة من الزمن قبل انصهارها فى النهاية فى بوتقة الحضارة البيزنطية . ويمكن تفسير ذلك بأن بعض القبائل السلافية استقرت فى مناطق جبلية يصعب الوصول إليها فى غرب شبه جزيرة البلوبونيز، وهى مناطق كان الكثير منها محدود القيمة الاقتصادية من وجهة نظر الحكومة البيزنطية (٦١). والمعروف أن اقتصاد السلاف كان يقوم على الاكتفاء الذاتى فى بداية استقرارهم فى أقاليم اليونان . وفى ظل الاكتفاء الذاتى كان الاتصال محدوداً (٦٢). وفضلاً عن هذا وذاك كانت أعداد السلاف كبيرة وفاقت بالطبع أعداد السكان البيزنطيين الأصليين . وطوال القرن الثامن

الميلادى وجزء من القرن التاسع اقترن الحكم الذاتى للسلاف بالقرصنة واللصوصية (٦٣). وكما سبق أن أوضحنا إذا كان فى مقدور الجيش الإمبراطورى إخضاع القبائل السلافية للسيادة البيزنطية مع فرض الجزية عليها ، فإنه لم يكن فى مقدوره القضاء على استقلالها الذاتى ، وكان الحل الوحيد هو وجود أعداد أكبر من العناصر البيزنطية التى تتكلم اليونانية وتدين بالمسيحية الأرثوذكسية . وهذا ما تحقق فى القرن التاسع بفضل سياسة التهجير التى قام بها الإمبراطور نقفور الأول . ولم تأت النتائج سريعة بالطبع ولم يتم القضاء على وضع الاستقلال الذاتى للسلاف بين يوم وليلة ، لقد احتاج الأمر إلى تعاون العناصر البيزنطية مع إدارة الثيمات وبمرور الوقت اكتسب السلاف خصائص الحضارة البيزنطية (٦٤).

وحين نتحدث عن السلاف فى شبه جزيرة البلقان فيجب أن نفرق بين أحوال السلاف المستقرين فى شمال البلقان ، وأولئك المستقرين إلى الجنوب من إقليم سالونيكا فى أقاليم اليونان والبلوبونيز . لقد كان هناك اختلاف وانعكس هذا الاختلاف على جهود الحكومة البيزنطية من أجل استيعابهم فى الكيان الإمبراطورى .

بالنسبة للعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم جنوب البلقان أى فى اليونان والبلوبونيز ، فقد سيطرت هذه العناصر على معظم أقاليم اليونان والبلوبونيز لأكثر من قرنين من الزمان:

" منذ العام السادس لعهد الإمبراطور موريس (عام ٥٨٧م) وحتى العام الرابع لعهد الإمبراطور نقفور الأول (عام ٨٠٥م) " ، طبقًا لرواية إحدى الحوليات البيزنطية (٦٥). وفى القرن السابع الميلادى لم يكن فى مقدور الحكومة البيزنطية الاهتمام باليونان أو البلوبونيز التى كانت تقع بعيداً عن خطوط المواصلات الرئيسية للإمبراطورية . وكانت الإدارة الإمبراطورية تعطى هذه الأقاليم أهمية ثانوية بالمقارنة بآسيا الصغرى التى كانت مركز الثقل الحقيقى للدولة . كذلك كانت بيزنطة مشغولة دائمًا بالتصدى للأخطار الخارجية التى هددت آسيا الصغرى . ،كان الحد المؤثر للإدارة البيزنطية فى هذه الأقاليم قاصراً على بعض مناطق وسط اليونان مثل طيبة Thebes وأثينا وكورنثا ، وعلى بعض الموانىء الهامة مثل سالونيكا وعلى جزر البحر الإيجى . وفى شبه جزيرة البلوبونيز كانت الإدارة البيزنطية ملموسة فى بعض المراكز الساحلية مثل ناوبليا Naupila ، مونمفازيا Monemvasia ، باتراس Patras بالإضافة إلى جزر البحر الأيونى (٦٦). أما بقية أقاليم اليونان والبلوبونيز فقد استقرت فيها العناصر السلافية بأعداد ضخمة .

ويلاحظ أن هذه العناصر السلافية لم تجمعها وحدة سياسية بل عاشت فى مجتمعات منفصلة . كذلك لم تحاول أية قوة خارجية فرض الوحدة السياسية عليهم كما حدث للسلاف المستقرين فى أقاليم شمال البلقان سواء من قبل الآفار أو البلغار . لقد عاش السلاف هناك فى وحدات قبلية ، وكل وحدة يحكمها مجلس القبيلة . وفى بعض الأحيان شكلت هذه الوحدات القبلية تحالفات مؤقتة لخدمة أغراض معينة . وفى هذا المجتمع القبلى تشكلت طبقة أرستقراطية عسكرية ، وكانت هذه الطبقة الحاكمة الجديدة معجبة بالحضارة البيزنطية ونمط الحياة البيزنطى . وإذا كانت المجتمعات السلافية فى البداية محدودة الاتصال بالعناصر البيزنطية المستقرة فى المناطق المجاورة فإن هذا الوضع لم يستمر طويلاً . ففى القرن التاسع زاد عدد العناصر البيزنطية نتيجة لسياسة التهجير التى اتبعتها الحكومة البيزنطية . وكانت الحاجة إلى التجارة هى التى دفعت التجار البيزنطيين إلى القرى السلافية ، والفلاحين السلاف إلى المراكز البيزنطية . وفى القرن التاسع كانت هناك مجتمعات قروية بيزنطية قوية وسط المجتمعات السلافية وعلى هذا بدأ طور تدريجى من تقبل السلاف للحضارة البيزنطية ، وبدأ اعتناق العناصر السلافية للمسيحية تدريجيًا (٦٧).

ومن حسن الحظ أن المجتمع البيزنطى لم يعرف العنصرية ، فالسلافى الذى تعلم اليونانية واعتنق المسيحية الأرثوذكسية وجد أمامه معظم الأبواب مفتوحة . وتعد المؤامرة الفاشلة ضد حكم الإمبراطورة إيرين سنة ٧٩٨ / ٧٩٩م - التى شارك فيها أكامير Akamir زعيم قبيلة فلزيتى Velziti السلافية - مثالاً ودليلاً على دخول بعض العناصر السلافية فى الحياة السياسية البيزنطية . فهذا الزعيم السلافى لم يتآمر ضد الإمبراطورة ليعتلى هو العرش البيزنطى ، ولكنه تآمر لإسقاط إيرين ليعتلى أحد أبناء الإمبراطور قسطنطين الخامس العرش(٦٨). وهكذا كان أكامير Akamir يؤيد أحد الاتجاهات المعادية لحكم الإمبراطورة أيرين ولم يكن يعمل من أجل الاستقلال الذاتى .

مثال آخر ، ثورة توماس السلافى ضد الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ - ٨٢٩م) . لقد كان توماس أحد أبناء المجتمعات السلافية المستقرة فى آسيا الصغرى ، وتدرج فى مناصب القيادة العسكرية فى عهد الإمبراطور ليو الخامس الأرمينى (٨١٣ - ٨٢٠م) وقاد الثورة ضد خلفه ميخائيل الثانى ، وخلال هذه الثورة نادى بنفسه إمبراطوراً ولكن الثورة فشلت (٦٩).

ومن الجدير بالذكر أن الطبقات العليا من العناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز حققت تقدمًا أسرع فى تقبل خصائص الحضارة البيزنطية ، وانصهرت فى المجتمع

البيزنطى بعد أن اختلطت دمائها بدمائه ، بينما حققت العناصر السلافية القروية تقدمًا أبطأ واحتاجت لوقت أطول . ويتضح هذا فى قصة أسرة رنتاكيوس Rentacius ذات الأصل السلافى . فهذه الأسرة الأرستقراطية ، التى تعتبر من أقدم عائلات طبقة كبار الملاك فى القسم الأوروبى من الإمبراطورية ، كانت تمتلك الضياع الشاسعة فى الإقليم المحيط بإسبرطة . ولقد ورد ذكر هذه الأسرة لأول مرة فى المصادر البيزنطية فى أحداث أوائل القرن الثامن الميلادى عندما ثار البطريق زيسينيوس رنتاكيوس Sissinius Rentacius ضد الإمبراطور ليو الثالث سنة ٧١٧م(٧٠). واحتفظت هذه الأسرة بمكانة اجتماعية متميزة طوال القرنين التاسع والعاشر . ولقد أدرك الإمبراطور رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus أن هذه الأسرة ذات ثروة ونفوذ فحرص على الارتباط بها ليدعم مركز أسرته . ونتيجة لذلك تزوج كريستوفر Christopher - ابن الإمبراطور رومانوس - من صوفيا ابنة نيكتاس رنتاكيوس . وهكذا نجحت هذه الأسرة ذات الأصل السلافى فى الارتقاء بعد أن اختلطت دمائها السلافية منذ فترة طويلة بالدماء الهلينية (٧١).

وفى الواقع أن السلاف المستقرين فى أقاليم اليونان والبلوبونيز والمنعزلين عن بلغاريا لم يكن أمامهم سوى طريق واحد فى النهاية ألا وهو تقبل الحضارة البيزنطية . وفى القرن التاسع كان اندماج العناصر السلافية فى المجتمع البيزنطى يسير قدمًا .

أما بالنسبة للعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم شمال البلقان فقد كان الموقف مختلفًا . ويمكن التمييز بين مجموعتين من العناصر السلافية هناك : العناصر السلافية التى استقرت فى أقاليم تابعة للإدارة البيزنطية ، والعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم غير خاضعة للإدارة البيزنطية أو تابعة لدولة البلغار . بالنسبة للمجموعة الأولى ، فقد سبقت الإشارة إلى العناصر السلافية التى استقرت فى تراقيا ، ومقدونيا ، وستريمون Strymon ، وإقليم سالونيكا . أما المجموعة الثانية ، فالمعروف أنه بعد عبور البلغار لنهر الدانوب واستقرارهم فى دبرودجا Do-brudja ومواشيا Moesia فى شمال شرق البلقان ، كان هذا الإقليم تقطنه أعداد كبيرة من السلاف الذين خضعوا بالتالى للبلغار (٧٢). واتخذ البلغار فى البداية بليسكا Pliska عاصمة لهم . وأدرك البلغار فى القرن الثامن أهمية كسب ود العناصر السلافية المستقرة فى إقليم البلغار وتلك المستقرة فى مقدونيا من أجل إقامة دولة بلغارية قوية . وفى مطلع القرن التاسع الميلادى كان إقليم مقدونيا يعد منطقة حدود بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة بلغاريا ،

فقد خضع الجزء الشرقى من مقدونيا فقط للسيادة البيزنطية . وفى منتصف القرن التاسع تحقق اندماج البلغار بالسلاف ، ونسى البلغار لغتهم التركية الأصلية واتخذوا لهجة مواطنيهم السلاف الذين كانوا يمثلون الأغلبية (٧٣).

إن وجود دولة للبلغار فى شمال البلقان كان عاملاً هامًا أضعف الجهود البيزنطية فى سبيل نشر الحضارة البيزنطية بين العناصر السلافية المستقرة فى تراقيا ، ومقدونيا ، وستريمون ، وإقليم سالونيكا بهدف احتوائهم داخل الكيان الإمبراطورى . وكانت سياسة الإمبراطورية البيزنطية تجاه البلغار بعد استقرارهم فى الإقليم الشمالى الشرقى من شبه جزيرة البلقان ، طوال القرن الثامن الميلادى ذات شقين . الشق الأول ، حرصت الإدارة البيزنطية بالدبلوماسية وبالقوة على الحيلولة دون توسع البلغار وعلى تحديد حدودهم جنوبًا بحيث لا تتخطى حد جبال البلقان (٧٤). وحين تخطت حدود دولة البلغار نطاق جبال البلقان جنوبًا (٧٥)، وهددت الممتلكات البيزنطية فى تراقيا ، قاد الإمبراطور قسطنطين الخامس تسع حملات عسكرية ضد بلغاريا . وإذا كان الإمبراطور لم ينجح فى القضاء على بلغاريا نهائيًا إلا أنه أضعفها عسكريًا ، وانكمشت بلغاريا شمالاً وراء جبال البلقان (٧٦). أما الشق الثانى ، فقد حرصت الحكومة البيزنطية فيه على إخضاع السلاف المستقرين فى تراقيا ومقدونيا وستريمون وسالونيكا بالقوة للسيادة البيزنطية ، كما عملت على الحيلولة دون اتحاد أو اتصال هذه العناصر السلافية بدولة البلغار . ويتضح هذا فى الحملات الأربع التى خرجت فى الفترة الممتدة من سنة ٦٥٨م وحتى سنة ٧٨٣م لإخضاع السلاف .

ولكن القرن التاسع الميلادى شهد تطوراً خطيراً فى توازن القوى فى شبه جزيرة البلقان . فقد أدى الانتصار الساحق لقوات شارلمان على الآفار فى بانونيا Pannonia سنة ٧٩٦م إلى انهيار ما تبقى للآفار من قوة على الدانوب الأوسط (٧٧). وفتح هذا الطريق أمام توسع البلغار غربًا، على طول نهر الدانوب ، حتى جاورت حدود بلغاريا الشمالية الغربية حدود دولة الفرنجة(٧٨). وكانت معظم الأقاليم التى استولى عليها البلغار ، تعيش فيها عناصر سلافية. وأدى هذا التوسع الذى حققته الدولة البلغارية إلى زيادة مواردها الاقتصادية وبالتالى إمكانياتها العسكرية ، وأصبح الصدام العسكرى بين بيزنطة وبلغاريا أمراً لا مفر منه . وأثبت خان البلغار كروم Krum (٨٠٣ - ٨١٤م) ، ومن بعده القيصر سيميون Symeon (٨٩٣ - ٩٢٧م) ، فى الانتصارات العسكرية على الجيوش البيزنطية ، أن بلغاريا تستحق أن تكون نداً للإمبراطورية البيزنطية (٧٩).

كذلك شهدت الإمبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن التاسع الميلادى بداية عصر نهضة امتد حتى الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى وكان هذا العصر بحق أمجد فترة فى تاريخها الطويل. وتميزت بداية هذا العصر فى منتصف القرن التاسع الميلادى بالأحداث الآتية: تغير ميزان القوى فى الصراع البيزنطى الإسلامى على الجبهة الشرقية ، انتهاء النزاع حول عبادة الصور والأيقونات باندحار اللاأيقونية وانتصار تقليد تبجيل الصور والأيقونات المقدسة، النهضة الثقافية [٨٠]، انطلاق الطاقات التبشيرية للكنيسة والمؤسسات الديرية فى شبه جزيرة البلقان ووراء حدود الإمبراطورية . ونتج عن هذه الأحداث الهامة أن أصبحت الحكومة البيزنطية فضلاً عن الكنيسة والمؤسسات الديرية فى موقف يسمح لها بالاهتمام بالبلقان أكثر من ذى قبل . وحين اجتمعت جهود الحكومة والكنيسة والأديرة تحقق فى النهاية امتصاص العناصر السلافية - المستقرة فى أقاليم جنوب البلقان - فى المجتمع البيزنطى .

لقد تركز اهتمام الحكومة البيزنطية فى العمل على تدعيم نظام الثيمات وتطويره فى البلقان . فحيث وجدت الثيمات وجدت السلطة الفعلية للإدارة البيزنطية . وبدأت إدارة كل ثيم تعمل على دمج العناصر السلافية المستقرة داخل حدوده فى التنظيم الإدارى والعسكرى. وفى البداية كان اندماج السلاف فى تنظيمات الثيمات يسير بطيئًا ، ولكن ما أن أطل القرن التاسع الميلادى حتى أخذ يسير بخطى سريعة وتم تجنيد العناصر السلافية فى جند الثيمات مع توزيع الأراضى العسكرية عليها . وهكذا تأكدت السلطة البيزنطية على السلاف المستقرين فى كل ثيم . وكان هذا يعنى تدعيم القوة الدفاعية للإمبراطورية فضلاً عن زيادة مواردها . وحتى منتصف القرن التاسع الميلادى كان عدد الثيمات فى البلقان سبعة ، فعملت الحكومة البيزنطية على إنشاء ثلاثة ثيمات جديدة فى النصف الثانى من هذا القرن . اثنان منها على الساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان لتحمى سواحل البحر الأيونى والبحر الإدرياتى، ولتعمل على إخضاع السلاف المستقرين فى غرب البلقان ، وهما : ثيم نيقوبوليس Nicopolis وثيم دالماشيا Dalmatia [٨١]. وكان ثيم نيقوبوليس يضم السهل الساحلى جنوب إقليم إبيروس Epirus . أما ثيم دالماشيا فيقع إلى الشمال من ثيم ديراخيوم Dyrrachium ، ويضم كل المراكز الساحلية الهامة على البحر الإدرياتى مثل زادار Zadar (زارا) ، ودوبروفنيك Dubrovnik . وكان هذا الثيم هامًا بالنسبة للحكومة البيزنطية لأسباب منها أنه ضم عدداً من المراكز الساحلية والجزر ذات الأهمية الاستراتيجية لحماية الخط الملاحى شمالاً

إلى البندقية التى كانت تابعة لبيزنطة فى ذلك الوقت ، كما كان هذا الثيم هامًا كقاعدة بحرية من أجل التصدى لهجمات المسلمين المتكررة على البحر الإدرياتى . كذلك كان لهذا الثيم أهمية من أجل إخضاع السلاف المستقرين فى شمال غرب البلقان ، وبث النفوذ البيزنطى فى دولة كرواتيا Croatia ، كما أنه يعد رأس حربة لأى مشروع بيزنطى فى المستقبل من أجل استرداد إيطاليا . أما الثيم الثالث فهو ثيم ستريمون Strymon ، وكان هذا الثيم يضم الجزء الجنوبى من إقليم مقدونيا الجغرافى فضلاً عن الساحل الشمالى للبحر الإيجى ، وكان الطريق البرى الرئيسى الذى يربط القسطنطينية بروما والذى يعرف باسم طريق إجناتيا Via Egnatia يمر فيه(٨٢) .

وهكذا نجحت الحكومة البيزنطية مع نهاية القرن التاسع الميلادى فى فرض سلطتها الإدارية على أقاليم عديدة فى البلقان من خلال سلسلة الثيمات التى أحاطت بشبه الجزيرة . وفى بعض هذه الثيمات مثل تراقيا وستريمون كانت سلطة الإدارة البيزنطية تمتد فى عمق المناطق الخلفية ، ولكن فى بعض المناطق الخلفية لثيمات أخرى كان الوضع مختلفًا . على أية حال ، إذا تصورنا أن هناك خطًا يمتد من سالونيكا على البحر الإيجى شرقًا إلى ديراخيوم Dyrrachi-um على البحر الإدرياتى غربًا ، فيمكن القول أن المجتمعات السلافية المستقرة فى الثيمات الواقعة جنوب هذا الخط كانت تذوب تدريجيًا فى تنظيم الثيمات وتنصهر فى المجتمع البيزنطى . أما المجتمعات السلافية المستقرة شمال هذا الخط (باستثناء تلك المجتمعات المستقرة فى تراقيا ، ستريمون ، شرق وجنوب مقدونيا) فقد كانت بعيدة عن سيطرة الإدارة البيزنطية ، وخلال القرن التاسع اندمجت فى الكيانات السياسية المستقلة فى شمال البلقان فى بلغاريا ، دولة الصرب ، كرواتيا . ولم يتم ضم المناطق الشمالية من البلقان إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى بعد فتوح الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥م) الذى أدخل نظام الثيمات على أقاليم شمال البلقان (٨٣).

ومما لاشك فيه أن انتهاء النزاع حول عبادة الصور والأيقونات بانتصار تقليد تبجيل وعبادة الصور المقدسة فى مارس سنة ٨٤٣م ، وضع نهاية لذلك الصراع الذى عصف بالكنيسة والحياة السياسية والاجتماعية ، واستنفذ الطاقات الثقافية فى الإمبراطورية البيزنطية . وكان انتهاء هذا النزاع الداخلى نقطة تحول بالنسبة للجهود البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان . فقد أدى إلى تحرير الطاقات الكنسية والديرية ، وأصبح فى إمكان الكنيسة والمؤسسات الديرية أن

تكرس جهودها لتكمل جهود الحكومة البيزنطية فى العمل على نشر الحضارة البيزنطية بين السلاف فى البلقان . وكان للرهبان دائمًا دوراً هامًا فى المجتمع البيزنطى . فالراهب فى نظر أهل المدينة أو القرية على حد سواء هو الرجل المقدس الذى وهب نفسه للرب ، ولهذا كان الفرد يلجأ إليه فى وقت الأزمات (٨٤). كذلك كان الراهب أكثر من أى فرد آخر قادراً على نقل الحضارة البيزنطية فى أفضل أشكالها (٨٥).

وجدير بالذكر أنه بينما كان للديرية مؤسسات قوية فى بيثينيا Bithynia فى جبل الأولمب Olympus ومناطق أخرى من آسيا الصغرى ، لم تكن المؤسسات الديرية العظيمة فى القسم الأوروبى من الإمبراطورية قد قامت بعد . ولاشك أن المؤسسات الديرية كانت مراكز ثقافية هامة لنشر المسيحية الأرثوذكسية واللغة اليونانية (٨٦). ولقد اهتمت الأديرة دائمًا بالعمل على نشر مبادىء الكتاب المقدس إلى كل الأمم ، ولهذا لعبت الأديرة دوراً هامًا فى دمج العناصر السلافية فى المجتمع البيزنطى . فاعتناق الفرد المسيحية الأرثوذكسية كان يؤدى إلى تقبل لغة الكتاب المقدس ألا وهى اليونانية . وكانت المسيحية الأرثوذكسية واللغة اليونانية من أهم خصائص الحضارة البيزنطية . وحتى منتصف القرن التاسع الميلادى ، كانت أعداد الرهبان قليلة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز بسبب انشغال الديرية بالنزع حول عبادة الأيقونات. وكانت الحاجة ماسة لوجود مؤسسات ديرية قوية مثل تلك التى وجدت فى جبل الأولمب فى بيثينيا Bithynia أو فى القسطنطينية . وكان بطء انصهار العناصر السلافية فى المجتمع البيزنطى فى أقاليم اليونان والبلوبونيز يرجع إلى بطء تطور المؤسسات الديرية هناك .

على أية حال ، تلقت سالونيكا والإقليم المحيط بها مرة أخرى اهتمامًا كبيراً من جانب الإمبراطورية البيزنطية . فموقع سالونيكا كان هامًا للغاية ومنها كان يمكن التأثير على المجتمعات السلافية فى شمال وجنوب البلقان . وشهد القرنان التاسع والعاشر نمو واحدة من أعظم المؤسسات الديرية وأكثرها تأثيراً فى العالم البيزنطى ألا وهى مؤسسة جبل آثوس Athos على اللسان الساحلى الضيق الذى يمتد فى البحر الإيجى شرق مدينة سالونيكا . وكان يوحنا كولوبوس John Colobos قد حاول فى القرن التاسع إقامة أحد الأديرة هناك . ولكن المؤسسة الديرية الكبيرة لم تبدأ إلا فى سنة ٩٦١م . وبفضل تشجيع الإمبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩م) لصديقه القديس أثناسيوس St. Athanasius تم إنشاء دير لافرا Lavra العظيم (٨٧). وبفضل نشاط الكنيسة وهذه المؤسسة الديرية تحقق فى النهاية انتشار المسيحية

الأرثوذكسية واللغة اليونانية بين معظم العناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز فى القرن العاشر وخلال الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى (٨٨).

لم تقتصر الجهود البيزنطية على نشر المسيحية بين العناصر السلافية المستقرة فى الأقاليم البيزنطية ، ففى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى بدأت الكنيسة البيزنطية برنامجًا تبشيريًا واسع النطاق ، استهدف نشر المسيحية الأرثوذكسية خارج حدود الإمبراطورية وخاصة بين العناصر السلافية فى بلغاريا ودولة الصرب وبين العناصر الشمالية فى إمارة "كيف" Kiev الروسية (٨٩). ولقد تعاونت الكنيسة والإدارة البيزنطية معًا فى تنفيذ هذا البرنامج الذى ابتدأ بتعاون البطريرك فوتيوس Photius والإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٣ - ٨٦٧م) والقيصر برداس Bardas (٩٠). ولكن لاشك أن الفضل الأكبر يرجع إلى البطريرك فوتيوس الذى يعتبر أعظم مفكرى وساسة عصره ، وأعظم دبلوماسى شغل منصب بطريرك القسطنطينية (٩١). لقد اعتبر فوتيوس نشر المسيحية بين الشعوب الأخرى خارج حدود الإمبراطورية أحد واجباته الرئيسية . وكان اعتناق المسيحية الأرثوذكسية يعنى قبول السيادة الروحية لكنيسة القسطنطينية وكان هذا يتضمن من حيث المبدأ قبول السيادة الزمنية للإمبراطورية البيزنطية (٩٢).

أرسل فوتيوس Photius بعثات تبشيرية إلى دولة الخزر Khazars وإلى إمارة " كيف " Kiev الروسية وإلى مملكة مورافيا Moravia بوسط أوروبا (تدخل الآن فى نطاق حدود دولة سلوفاكيا) (٩٣). ولم تحقق الجهود البيزنطية فى دولة الخزر نفس النجاح الذى تحقق بعد ذلك مع إمارة كيف Kiev الروسية . أما البعثة التبشيرية البيزنطية التى توجهت إلى مورافيا فلها أهمية خاصة . ففى العقد السادس من القرن التاسع الميلادى أدرك ملك مورافيا - وهى دولة سلافية تقع شمال الدانوب الأوسط - أن جهود اللاتين لنشر المسيحية فى دولته ، تعمل أيضًا من أجل إخضاع مورافيا لدولة الفرنجة . وفى محاولة من جانبه لوقف هذا التطور اتجه ملك مورافيا إلى الإمبراطورية البيزنطية وطلب مساعدتها فى نشر المسيحية الأرثوذكسية فى مملكته (٩٤). وعلى الفور استجاب البطريرك فوتيوس لهذا الطلب وأرسل بعثة تبشيرية على رأسها الأخوان قسطنطين (الذى عرف بعد ذلك باسم سيريل Cyril) ومثوديوس Methodius لتعميد شعب مورافيا ولتأسيس كنيسة سلافية على مذهب كنيسة القسطنطينية (٩٥). وكان الأخوان سيريل ومثوديوس من أبناء ثيم سالونيكا كما كانا عالمين من الطراز الأول .

وتوصل الأخوان إلى ابتكار حروف هجائية ساعدتهم على كتابة اللغة السلافية التى تتكلمها العناصر السلافية المستقرة فى مقدونيا ، ثم قاما بترجمة أجزاء من الكتاب المقدس من اللغة اليونانية إلي هذه اللغة السلافية . وقد جرى كل هذا قبل أن يتوجه سيريل ومشوديوس إلى مورافيا سنة ٨٦٢/٨٦٣م (٩٦). وسيكون لهذا التطور الخطير الذى حدث للغة السلافية نتائج هامة بالنسبة لبلغاريا .

كان اعتناق مورافيا للمسيحية له دلالة هامة بالنسبة لبلغاريا التى أصبح عليها تدعيم كيانها السياسى والحضارى باعتناق المسيحية هى الأخرى . فإذا كانت مورافيا قد لجأت إلى الإمبراطورية البيزنطية ، فلماذا لا تلجأ بلغاريا إلى دولة الفرنجة . وبالفعل أرسل خان البلغار بوريس الأول Boris I (٨٥٢ - ٨٨٩م) سفارة إلى دولة الفرنجة . وأدركت الحكومة البيزنطية على الفور خطورة اعتناق بلغاريا للمسيحية الغربية وقيام تحالف بين دولة الفرنجة وبلغاريا وبينهما روما . وعلى الفور أرسل الإمبراطور ميخائيل الثالث جيشًا بيزنطيًا إلى بلغاريا ، كما أرسل الأسطول البيزنطى إلى سواحل بلغاريا على البحر الأسود (٩٧). ولم يكن بوريس مستعداً للحرب ، كما أن سياسة بوريس حرصت دائمًا على تجنب مواجهة شاملة مع الإمبراطورية البيزنطية . وكانت الإمبراطورية سنة ٨٦٤م فى موقف عسكرى جيد بعد الانتصار الكبير الذى حققه الجيش البيزنطى على جيش أمير ملطية فى آسيا الصغرى سنة ٨٦٣م (٩٨). وعلى هذا فضل بوريس الاتفاق مع بيزنطة وقبل الشروط البيزنطية التى كان أهمها التخلى عن مشروع التحالف مع الفرنجة ، واعتناق المسيحية الأرثوذكسية من قبل بيزنطة . وفى نفس العام ٨٦٤م تم تعميد بوريس الذى اتخذ اسمًا مسيحيًا إلى جانب اسمه وأصبح يعرف ببوريس ميخائيل (٩٩). وأرسل بطريرك القسطنطينية فوتيوس عدداً كبيراً من رجال الدين إلى بلغاريا ليقوموا بتعميد البلغار وتأسيس الكنيسة البلغارية .

وكانت المشكلة التى واجهها بوريس هى كيف يمكن لبلغاريا أن تعتنق المسيحية الأرثوذكسية دون أن تخضع للسيادة البيزنطية ؟ كيف يمكن تأسيس كنيسة بلغارية مستقلة عن بطريرك القسطنطينية ؟ كيف يمكن الحيلولة دون تحكم الأيديولوجية البيزنطية فى قيم المجتمع البلغارى ؟ لقد كان الإحساس بهذه المشكلة أقل فى إمارة كيف Kiev الروسية ، أو فى مورافيا لبعد المسافة بينهما وبين القسطنطينية . أما بالنسبة لبلغاريا التى تقع مباشرة أمام الأبواب الشمالية للإمبراطورية ، فقد كان الوضع مختلفًا (١٠٠). ولقد تحققت مخاوف

العاهل البلغارى فى تلك الرسالة التى أرسلها له فوتيوس بطريرك القسطنطينية سنة ٨٦٥م . لقد كانت تلك الرسالة عبارة عن محاضرة من جانب فوتيوس عن واجبات الحاكم المسيحى الذى يدين بالطاعة لكنيسة القسطنطينية وللإمبراطور البيزنطى (١٠١). ولم تتضمن الرسالة أية إشارة إلى موضوع الاستقلال الذاتى للكنيسة البلغارية كما هو الحال فى المشروع البيزنطى بالنسبة لكنيسة مورافيا (١٠٢). وكان الخلاف - فى ذلك الوقت - على أشده بين بطريرك القسطنطينية فوتيوس وبين بابا روما نيقولا الأول Nicholas I . ورأى بوريس أن يستثمر هذا الخلاف بالاتجاه إلى روما لمساعدته على تأسيس كنيسة بلغارية مستقلة استقلالاً ذاتياً .

وهكذا اتجهت سياسة بوريس فى الفترة من سنة ٨٦٦م وحتى سنة ٨٧٠م إلى روما من أجل تحقيق هذه الغاية (١٠٣). وبالطبع رحبت البابوية بمطلب بلغاريا وأرسلت على الفور عدداً من رجال الدين اللاتين لإقامة الكنيسة البلغارية (١٠٤). ولكن روما تجاهلت باستمرار مطلب بوريس الخاص بالوضع شبه المستقل للكنيسة البلغارية ، كما رفضت مقترحاته بخصوص شغل وظيفة رئيس أساقفة بلغاريا (١٠٥).

وخلال الفترة الممتدة بين سنتى ٨٦٦م و ٨٧٠م حدثت تطورات هامة كان لها أثر كبير على مستقبل الكنيسة البلغارية . ففى سنة ٨٦٧م اعتلى العرش البيزنطى الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م) بعد مقتل ميخائيل الثالث . وقام باسيل الأول بعزل فوتيوس من منصب بطريرك القسطنطينية وأعاد غريمه إجناتيوس Ignatius . وتبع ذلك انعقاد مجمع دينى فى القسطنطينية فى أكتوبر سنة ٨٦٩م لرأب الصدع الذى أصاب الكنيسة ولإزالة كل أسباب الخلاف الدينى الذى نشب بين روما والقسطنطينية خلال بطريركية فوتيوس (١٠٦). وأدرك بوريس أن روما والقسطنطينية فى طريق تصفية خلافاتهما ، وأنه لم يعد هناك جديد يمكن لروما تقديمه . وعلى هذا دخل فى مفاوضات مع الإمبراطور باسيل الأول والبطريرك إجناتيوس. وقبيل انتهاء المجمع الدينى المنعقد فى القسطنطينية من دورة انعقاده الأخيرة ، وصل وفد بلغارى ودعى المجمع إلى الفصل فى موضوع تبعية الكنيسة البلغارية . وبعد نقاش حاد ، وبفضل موقف البطريركيات الشرقية الثلاث ، قرر المجمع أن الكنيسة البلغارية تقع فى نطاق نفوذ كنيسة القسطنطينية . وكان هناك اتفاق ضمنى يعطى لهذه الكنيسة امتياز الاستقلال الداخلى (١٠٧). ولم يكن أمام المندوب البابوى سوى قبول قرار المجمع بخصوص بلغاريا . ونتج عن هذا رحيل رجال الدين اللاتين عن بلغاريا ، وعودة رجال الدين البيزنطيين.

وأصدر البطريرك إجناتيوس قراراً بتعيين رئيس أساقفة لبلغاريا ، وقد وصل بالفعل إلى بليسكا Pliska فى أواخر سنة ٨٧٠م[١٠٨]. وهكذا حقق بوريس انتصاراً جزئيًا فى سعيه من أجل بناء كنيسة بلغارية لها استقلالها الذاتى .

ومنذ ذلك الوقت بدأ بالفعل التنظيم الحقيقى للكنيسة البلغارية . وأخذ بناء الكنائس ينتشر فى كل أقاليم بلغاريا ، كذلك تم بناء مؤسسة ديرية فى شمال شرق بلغاريا [١٠٩]. ويلاحظ أن كل هذا النشاط التنظيمى للكنيسة البلغارية قد تم باللغة اليونانية . فكبار رجال الدين فى الكنيسة البلغارية ، حتى لو كانوا من أبناء بلغاريا ، كانوا رجالاً تلقوا تعليمهم لسنوات طويلة فى القسطنطينية . وكان بوريس يخشى تأثير الحضارة البيزنطية على أولئك الرجال الذين وقع على عاتقهم نهضة بلغاريا الحضارية . ولنا أن نتصور الفجوة الكبيرة بين هذه الصفوة المثقفة وبين الأغلبية الأمية من سكان بلغاريا ، وكيف كان هؤلاء الرجال يباشرون القداس الدينى ويقرأون الكتاب المقدس بلغة أجنبية هى اليونانية التى لا يفهمها أغلبية السكان . ولاشك أن هذا كان من أسباب بطء انتشار المسيحية بين سكان القرى البلغارية الذين استمر بعضهم يمارس الطقوس الوثنية حتى نهاية القرن التاسع الميلادى .

وكانت الأخبار تصل بلغاريا تباعًا بخصوص ما كان يجرى بعيداً فى مملكة مورافيا ، والنجاح الذى حققه فى البداية الأخوان سيريل Cyril ومثوديوس Methodius هناك [١١٠]. وكان بوريس يدرك بلا شك أن اتخاذ اللغة السلافية بدلاً من اليونانية كلغة للكنيسة البلغارية له أهمية كبرى . كما أن استخدام اللغة السلافية ، التى يتكلمها أغلبية سكان بلغاريا ، فى الطقوس الدينية للكنيسة البلغارية سيؤدى إلى انتشار المسيحية بين أهل القرى فى بلغاريا كما سيؤدى إلى القضاء على خطر انتشار اللغة اليونانية ، وفضلاً عن هذا وذاك فإن الاستقلال الذاتى للكنيسة البلغارية يصبح حقيقة [١١١].

على أية حال ، أدى تغلب الاتجاه اللاتينى فى مملكة مورافيا فى العقد الثامن من القرن التاسع الميلادى ، إلى طرد تلاميذ الأخوين سيريل ومثوديوس . وكانت هذه فرصة العاهل البلغارى ، الذى سارع بالاتصال بهم وفتح أمامهم أبواب دولته . وبالفعل وصل تلاميذ الأخوين وعلى رأسهم كلمنت Clement وناوم Naum إلى حدود بلغاريا سنة ٨٨٥ / ٨٨٦م، واستقبلهم بعد ذلك بوريس ، ووضع تحت تصرفهم إمكانيات هائلة لتحقيق هدف عزيز ألا وهو تطوير اللغة السلافية واتخاذها لغة للكنيسة البلغارية [١١٢]. وعلى الفور أقام ناوم Naum

مركزاً تعليمياً فى المقر الجديد لعاهل البلغار فى برسلاف Preslav ، كما أقام كلمنت مركزاً آخر فى أوخريد Ochrid فى غرب إقليم مقدونيا . وكانت المهمة الأولى هى الإعداد السريع لرجال دين يتكلمون اللغة السلافية ، والقيام بنسخ الترجمات التى قام بها سيريل ومثوديوس، وهى ترجمات للكتاب المقدس والطقوس الدينية من اليونانية إلى السلافية ، فضلاً عن إعداد ترجمات جديدة .

وفى خريف سنة ٨٩٣م وبعد أن نجح بوريس فى القضاء على ثورة مضادة لانتشار المسيحية فى بلغاريا ، أعلن العاهل البلغارى فى اجتماع ضم كبار رجال الدولة قرارات هامة ، منها اعتزاله العرش وتعيين ابنه الأصغر سيميون Symeon قيصراً لبغاريا . كما تقرر رسمياً نقل العاصمة البلغارية من بليسكا Pliska إلى برسلاف . وأهم من هذا وذاك أصدر بوريس قراراً رسمياً باعتبار اللغة السلافية اللغة الرسمية للكنيسة والدولة على حد سواء [١١٣].

ومن الجدير بالذكر أنه حتى صدور هذا القرار كانت اللغة اليونانية منذ أيام الخان أسباروخ Asparuch هى اللغة التى استخدمها البلغار فى اتصالاتهم الخارجية ، وأحيانًا فى المراسلات الرسمية داخل دولة البلغار كلما دعت الضرورة . وبعد صدور قرار اتخاذ اللغة السلافية لغة رسمية للكنيسة والدولة ، يمكن القول أن التطور الذى بدأ باتحاد العناصر البلغارية التركية بالعناصر السلافية التى شكلت الأغلبية فى بلغاريا قد اكتمل وأصبحت بلغاريا دولة سلافية[١١٤].

وكان توصل الأخوين سيريل ومثوديوس إلى ابتكار حروف هجائية للغة السلافية لأول مرة وتطور هذه اللغة بعد ذلك على يد كلمنت وناوم Naum ، قد حدّ من نجاح بيزنطة فى فرض كل عناصر الحضارة البيزنطية على الكيانات السياسية السلافية المستقلة فى شمال البلقان . حقيقة لقد أدى تحول بلغاريا إلى المسيحية الأرثوذكسية بفضل جهود الإمبراطورية فى عهدى ميخائيل الثالث وباسيل الأول ، إلى دخولها فى دائرة الحضارة البيزنطية . ولكن اتخاذ البلغار للغة السلافية لغة رسمية للكنيسة والدولة حال تمامًا دون انتشار اللغة اليونانية فى بلغاريا من خلال الكنيسة .

استمرت جهود الحكومة البيزنطية من أجل استرداد سيادتها على شبه جزيرة البلقان من عهد باسيل الأول المقدونى وحتى عهد باسيل الثانى " سفاح البلغار " . ومن أجل تحقيق هذه الغاية استعملت بيزنطة القوة العسكرية والبعثات التبشيرية فى إخضاع الدول السلافية

المستقلة فى شمال وشمال غرب البلقان . والمعروف أن حدود بلغاريا الغربية كانت تتاخم دولة الصرب . وكانت عناصر الصرب السلافية قد استقرت منذ القرن السابع الميلادى فى مجتمعات متناثرة حول وديان الإقليم الجبلى الواقع جنوب الدانوب الأوسط ، وهو إقليم تجرى فيه الروافد الجنوبية لنهر السافا Sava . وكان هذا الإقليم يعرف فى العصور الوسطى باسم راسكا (راسكيا Raskia) (١١٥). وكان لبيزنطة سيادة اسمية على الصرب وعلى القبائل السلافية الأخرى المستقرة جنوب دولة الصرب حتى عهد الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ - ٨٢٩م) ، حيث بدأ تخلص الصرب والسلاف من سيادة بيزنطة الاسمية وأصبحوا مستقلين كما يروى أحد المصادر البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى (١١٦). وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، أدرك حاكم الصرب أن البقاء على الوثنية يعوق التقدم السياسى والحضارى لدولته ، كما أدرك خان البلغار من قبل (١١٧). وفى بداية عهد باسيل الأول أرسل حاكم الصرب سفارة إلى القسطنطينية تعلن خضوع بلاد الصرب للسيادة البيزنطية ورغبتها فى اعتناق المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية . وبالطبع استجابت الحكومة البيزنطية لمطالب الصرب (١١٨). وكانت الإدارة البيزنطية ترى أن اعتناق دولة الصرب للمسيحية الأرثوذكسية سيؤدى إلى تبعيتها للإمبراطورية ، لأن التبعية الروحية لبطريرك القسطنطينية تتضمن من حيث المبدأ التبعية السياسية للإمبراطور . لقد تبنت الحكومة البيزنطية هذه النظرية مع بلغاريا من قبل . ولكن إذا كان البلغار بعد تحولهم للمسيحية الأرثوذكسية قد ظلوا مستقلين سياسيًا ، فإن بيزنطة كانت حريصة على ألا يتكرر هذا بالنسبة لدولة الصرب.

ومن المرجع أن تبادل السفارات بين دولة الصرب والإمبراطورية البيزنطية ، وتحول الصرب النهائى للمسيحية الأرثوذكسية ، قد حدث فى الفترة الممتدة من سنة ٨٦٧م وحتى سنة ٨٧٤م(١١٩). ولقد أدى تحولهم هذا فضلاً عن اعتناق القبائل السلافية الأخرى للمسيحية فى شمال غرب البلقان بفضل نشاط البعثات التبشيرية التى أرسلتها كنيسة القسطنطينية ، إلى تعزيز مركز الإمبراطورية فى شمال غرب شبه الجزيرة ، كما أدى انشاء ثيم دالماشيا كما سبقت الإشارة إلى تدعيم مركز الإمبراطورية على ساحل البحر الأدرياتى .

وعلى الرغم من أن ثيم دالماشيا قد دعم مركز بيزنطة على ساحل البحر الأدرياتى طوال القرنين التاليين فإن الإدارة البيزنطية هناك كانت قاصرة على المراكز الحصينة على الساحل . وكانت هذه المراكز قليلة ومتباعدة ، ويحيط بها مجتمعات سلافية لم تكن خاضعة لسلطة

بيزنطة دائمًا . ففى أقصى الشمال الغربى من شبه جزيرة البلقان ، استقرت عناصر الكروات السلافية منذ القرن السابع الميلادى بين نهر درافا Drava والبحر الأدرياتى شمال ثيم دالماشيا. وكانت عناصر الكروات تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين : كروات دالماشيا المستقرين جنوب نهر السافا Sava ، وكروات بانونيا Pannonia المستقرين شمال نهر السافا (١٢٠). وكانت علاقة الإمبراطورية البيزنطية بالكروات تتوقف على مركز الإمبراطورية ونفوذها على ساحل البحر الأدرياتى . والمعروف أن توسع دولة الفرنجة شرقًا قد أدى إلى خضوع كروات بانونيا لشارلمان فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادى . ففى ذلك الوقت سيطر الفرنجة على الإقليم الممتد بين نهرى السافا Sava ودرافا Drava حتى الدانوب الأوسط(١٢١).

أما كروات دالماشيا فقد تخلصوا من سيادة بيزنطة الاسمية وأعلنوا تبعيتهم أيضًا لشارلمان سنة ٨٠٣م ، ثم تنازلت بيزنطة عن سيادتها الاسمية على هذا الإقليم بعد ذلك للفرنجة بمقتضى معاهدة آخن Achen سنة ٨١٢م ، ولكنها احتفظت بسيادتها على المراكز الحصينة على ساحل دالماشيا والجزر المقابلة لهذا الساحل (١٢٢)، وهو ما تحول بعد ذلك فى النصف الثانى للقرن التاسع الميلادى إلى ثيم دالماشيا . ومن المرجح أن عناصر الكروات أخذت تتحول إلى المسيحية بفضل نشاط البعثات التبشيرية اللاتينية واهتمام البابوية فى هذه الفترة المبكرة من القرن التاسع (١٢٣).

وفى عهد الإمبراطور باسيل الأول حظى ساحل دالماشيا باهتمام الحكومة البيزنطية بسبب تهديد المسلمين المستمر للمراكز الساحلية البيزنطية هناك . وقامت الحكومة البيزنطية بإنشاء ثيم دالماشيا الذى دعم من مركز ونفوذ الإمبراطورية البيزنطية فى شمال غرب البلقان وعلى طول ساحل البحر الإدرياتى . ونتج عن ازدياد النفوذ البيزنطى فى الربع الأخير من القرن التاسع الميلادى على امتداد ساحل البحر الأدرياتى ، قيام زدسلاف Zdeslav حاكم كروات دالماشيا بالاعتراف بالسيادة البيزنطية وإعلان تبعية كنيسته لبطريرك القسطنطينية سنة ٨٧٨م(١٢٤). وبدا وكأن سيادة بيزنطة السياسية ونفوذها الدينى قد امتد شمالاً إلى استريا Istria فى أقصى شمال ساحل البحر الأدرياتى . ولكن النجاح البيزنطى فى كرواتيا كان قصير المدى . فبعد عام واحد انتصر التيار المؤيد للغرب اللاتينى بفضل نشاط رجال الدين اللاتين ، وبعد مقتل زدسلاف Zdeslav تولى برانيمير Branimir الحكم فى كرواتيا التى

عادت إلى تبعية كنيسة روما [١٢٥]. ورغم السياسة المستقلة التى اتبعها حكام كرواتيا فإن الإمبراطورية كان لها بعض النفوذ عليهم فى منتصف القرن العاشر الميلادى .

ويعد نشاط البعثات التبشيرية والنجاح الذى حققته أحد الإنجازات الهامة للإمبراطورية البيزنطية فى القرن التاسع . وإذا كانت الجهود البيزنطية قد فشلت فى مورافيا التى عادت إلى تبعية كنيسة روما ، فإن النجاح البيزنطى كان واضحًا فى بلغاريا ودولة الصرب ، ومع العناصر السلافية المستقرة فى غرب مقدونيا . لقد اعتنق الجميع المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية واكتسبوا بهذا أحد عناصر الحضارة البيزنطية .

ولكن التطور الذى حققته اللغة السلافية التى أصبحت اللغة الثالثة فى أوروبا العصور الوسطى [١٢٦]، واتخاذ بلغاريا هذه اللغة واكتمال الشخصية السلافية للدولة البلغارية ، كان خطراً كبيراً هدد المصالح البيزنطية فى البلقان طوال القرن العاشر الميلادى . فقد ترتب على اكتمال الشخصية السلافية لهذه الدولة أن أصبحت مركزاً هامًا لجذب واستقطاب العناصر السلافية المستقرة خارج حدود دولة البلغار . ولو ظلت بلغاريا الجارة القوية للإمبراطورية البيزنطية فى الشمال متمركزة حول مدينتى بليسكا Pliska وبرسلاف Preslav شمال نطاق جبال البلقان ، فلربما كان الخطر محدوداً . ولكن توسع بلغاريا غربًا فى القرن التاسع الميلادى وإنشاء مركز تعليمى للغة السلافية فى مدينة أوخريد Ochrid بغرب مقدونيا تحت سيطرة قياصرة بلغاريا الأقوياء كان خطراً يهدد جهود بيزنطة لاستيعاب العناصر السلافية المستقرة فى مقدونيا داخل الكيان الإمبراطورى . كذلك كان مثل هذا المركز الجنوبى للغة السلافية الذى تدعمه دولة قوية كبلغاريا يستطيع القضاء على الكثير من الإنجازات التى تمت بالنسبة لامتصاص العناصر السلافية المستقرة فى إقليم سالونيكا وأقاليم اليونان . وكانت تلك الإنجازات البيزنطية قد تحققت بعد جهود كبيرة .

وتأكدت هذه المخاطر فى الربع الأول من القرن العاشر الميلادى ، حين قام قيصر بلغاريا الطموح سيميون Symeon باجتياح الأقاليم البيزنطية فى البلقان وتقدم جنوبًا عبر أقاليم اليونان حتى خليج كورنثا ، بل وحاصر العاصمة البيزنطية نفسها أكثر من مرة [١٢٧]. ويلاحظ أن طموح القيصر سيميون لم يقتصر على تكوين إمبراطورية بلغارية داخل حدود إقليمية تجاور الإمبراطورية البيزنطية ، بل بلغ طموح هذا القيصر البلغارى حد التفكير فى إقامة إمبراطورية عالمية جديدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية [١٢٨]. واستطاع القيصر

سيميون بفضل انتصاراته المتوالية ، وإخضاعه لدولة الصرب ، وبسبب انضمام بعض العناصر السلافية المستقرة فى الأقاليم البيزنطية إليه ، أن يكون إمبراطورية وأن يصبح بحق سيد شبه جزيرة البلقان .

لقد اجتازت بيزنطة محنة الخطر البلغارى بصعوبة ، وبعد وفاة سيميون سنة ٩٢٧م مرت بلغاريا بمرحلة ضعف بعد أن انهكتها حروب سيميون الطويلة . وسادت العلاقات السلمية بينها وبين الإمبراطورية قرابة الأربعين عامًا . ولكن الهجوم الروسى على بلغاريا سنة ٩٦٨م بدعوة من الإمبراطور نقفور فوقاس ، أدى إلى خلق مشكلة خطيرة للإدارة البيزنطية فى شمال شرق البلقان بعد أن أصبح أمير كيف Kiev الروسى سيداً على بلغاريا [١٢٩]. وبفضل براعة الإمبراطور يوحنا تزيمسكس John Tzimisces (٩٦٩ - ٩٧٦م) استطاع الجيش البيزنطى هزيمة الروس وطردهم من البلقان [١٣٠]. ولم تعترف بيزنطة ببلغاريا ، بل قامت بضم دولة بلغاريا إلى الكيان الإمبراطورى . وتبع ذلك إلغاء استقلال الكنيسة البلغارية [١٣١].

لقد اقتصر ما أنجزته الحكومة البيزنطية فى عهد الإمبراطور يوحنا تزيمسكس فى بلغاريا ، على القسم الشرقى منها أما القسم الغربى الذى كان يضم غرب مقدونيا فقد كان بعيداً عن كل هذه الأحداث . وأدى ضم شرق بلغاريا إلى الكيان الإمبراطورى إلي انتقال مركز دولة البلغار إلى غرب مقدونيا بالقرب من إقليم سالونيكا وأقاليم اليونان . وحين اندلعت الثورة فى غرب بلغاريا بقيادة صمويل Samuel سنة ٩٧٦م ، شكل البلغار تهديداً أكبر من ذى قبل للسيادة البيزنطية على أقاليم اليونان ، حيث كان مركز دولة صمويل فى غرب مقدونيا فى برسبا Prespa أولاً وبعد ذلك فى أوخريد Ochrid [١٣٢]. وكان هذا يعنى أن بلغاريا تستطيع ضرب الأقاليم الحيوية للإمبراطورية فى اليونان وعلى ساحل البحر الإدرياتى . ولاشك أن صمويل البلغارى استفاد من انشغال الحكومة البيزنطية بالتصدى للثورات الداخلية فى آسيا الصغرى خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى من حكم الإمبراطور باسيل الثانى ، كما استفاد من انضمام بعض العناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان إليه . واستطاع البلغار استرداد مدينتى بليسكا وبرسلاف فى شرق بلغاريا ، ثم اجتاحوا أقاليم اليونان وشبه جزيرة البلوبونيز ونجحوا فى الاستيلاء على بعض المدن والمراكز البيزنطية ، ولكن محاولات الاستيلاء على سالونيكا باءت بالفشل .

وأمام هذا الخطر الداهم استخدم الإمبراطور باسيل الثانى كل موارد الإمبراطورية فى حرب طويلة من أجل تدمير تلك الدولة القوية التى أراد صمويل اقامتها . وبعد الانتصار الساحق الذى حققه الإمبراطور على البلغار فى المعركة الفاصلة من أجل السيادة على مقدونيا والتى وقعت فى ٢٩ من يوليو سنة ١٠١٤م ، توفى القيصر صمويل . وواصل الإمبراطور الاستيلاء على معاقل البلغار . وانتهت الحرب بانتصار باسيل الثانى سنة ١٠١٨م حيث دخل الإمبراطور مدينة أوخريد Ochrid عاصمة الدولة البلغارية ، وهناك استسلم له كل من تبقى على قيد الحياة من أفراد أسرة صمويل . وهكذا انتهى أعنف صراع شهدته شبه جزيرة البلقان فى العصر الوسيط، فبعد حرب دامت قرابة الثلاثين عامًا استردت بيزنطة سيادتها كاملة على شبه جزيرة البلقان بعد أن قضت على دولة البلغار .

وبضم بلغاريا إلى الكيان الإمبراطورى ، تحولت أراضيها إلى أقاليم بيزنطية سرعان ما طبق عليها نظام الثيمات ، كما أصبح سكانها من رعايا إمبراطور القسطنطينية (١٣٣). ولكن هذا لم يكن يعنى العودة إلى عصر جستنيان الأول قبل الغزو السلافى للبلقان . فوجود بلغاريا فى شبه جزيرة البلقان فى الفترة من سنة ٦٨١م وحتى سنة ١٠١٨م أحدث تغيراً فى البلقان وترك آثاراً . كذلك يجب ألا ننسى أن الحكومة البيزنطية بعد استرداد سيادتها على البلقان سنة ١٠١٨م أبقت أقاليم الصرب والكروات فى ظل حكم أمرائها المحليين الذين اعترفوا بسيادة الإمبراطور.

ولكن القضاء على دولة البلغار كانت له نتيجة إيجابية وهامة ، لقد تأكد بهذا العمل نجاح الجهود البيزنطية بالنسبة لاستيعاب العناصر السلافية فى أقاليم اليونان فى المجتمع البيزنطى. فلم يعد هناك كيان سياسى يستطيع السلاف اللجوء إليه، وعلى هذا فإن الانصهار النهائى للعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز قد اكتمل بعد سنة ١٠١٨م. أما بالنسبة للأقاليم التى كانت تشكل دولة بلغاريا فإن هذا التطور لم يحدث . ويمكن القول أن الحدود الجنوبية لدولة البلغار فى عهد القيصر سيميون ظلت تشكل الحد الشمالى للسان اليونانى. ورغم أن بلغاريا أصبحت ولاية بيزنطية منذ سنة ١٠١٨م وحتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، فإن البلغار احتفظوا بلغتهم السلافية ، وأشعارهم وأساطيرهم وأغانيهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم وذكريات ماضيهم (١٣٤). حقيقة لقد حدث تزاوج بين عائلات الأرستقراطية البلغارية والعائلات البيزنطية ، ولكن حدث هذا على نطاق ضيق . وعلى الرغم

من أن اللغة اليونانية كانت معروفة فى مدن بلغاريا طوال فترة الحكم البيزنطى ، فإن الزائر البيزنطى لولاية بلغاريا كان يدرك على الفور أنه فى أرض أجنبية لأن أهلها يتكلمون لغة أجنبية .

لقد نجحت الحكومة البيزنطية بعد جهد كبير ووقت طويل فى علاج أزمة الغزو السلافى واستردت سيادتها كاملة على شبه جزيرة البلقان ، بيد أن صورة البلقان فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ظلت مختلفة عن صورته فى مطلع القرن السادس الميلادى .

حواشى (٥)

١ - أدى اضمحلال البناء الضخم الذى أقامه الهون Huns بعد وفاة أتيلا Attila سنة ٤٥٣م إلى تغيير ميزان القوى فى الأقاليم الواقعة إلى الشمال من حدود الإمبراطورية البيزنطية فى البلقان . وأدى انهيار دولة الهون إلى ظهور قبائل متبربرة عديدة كانت قد خضعت فى الماضى لحكم الهون ، من بينها القبائل السلافية . ومن غير المعروف على وجه الدقة موطن السلاف الأول ، فالمصادر لا تقدم الكثير ، ولكن من المرجح أن القبائل السلافية كانت تقطن مساحة كبيرة من السهل الأوروبى الشرقى إلى الشمال من جبال الكروات .

وحتى الآن لا تزال الأسباب التى دفعت السلاف إلى الهجرة جنوبًا والظروف التى صاحبت ظهورهم المفاجىء على طول الضفة الشمالية لنهر الدانوب فى مطلع القرن السادس الميلادى غير معروفة . ومن المحتمل أنه فى أعقاب وفاة أتيلا واضمحلال دولته ، تحركت الأقوام التى خضعت للهون سعيًا وراء المراعى وأخذت تضغط على غيرها من الأقوام مما دفع بالسلاف إلى الاتجاه شطر نهر الدانوب . وتطلع السلاف بعد ذلك إلى عبور النهر الذى كان يمثل الحد الشمالى لممتلكات الإمبراطورية البيزنطية فى البلقان . على أية حال ، فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ينقشع الظلام وتبدأ المصادر التاريخية فى ذكر السلاف وإغاراتهم على الممتلكات البيزنطية ثم استقرارهم فى الأقاليم البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان . انظر :

Lemerle, **Invasions**, pp. 281 - 295 ; Obolensky, **Commonwealth**,pp. 42 - 43 .

٢ - **Miracula Sancti Demetri**, AS, cols. 104 - 197 ; **Miracula Sancti Demetri**, PG, cols. 1174 -1384 .

وانظر أيضًا الطبعة الحديثة لهذا المصدر والتعليق الذى قدم به الأستاذ بول ليميرل لهذه الدراسة :

Lemerle, **Anciens Recueils**, 2 vols .

٣ - من أهم الدراسات الحديثة التى تناولت المصدر المعروف " بمعجزات القديس ديمترى " الدراسات التالية :

Laurent, **Saint-Demetrius**, pp. 420 - 434; Delehaye, **Recueils Antiques**, 57 - 64; Lemerle, **La Composition**, pp. 349-361; Burmov, **Sièges de Thessalonique**, pp. 167 - 215 ; Barisic, **Miracles de St. Démétrius.**

٤ - Dvornik, **The Slavs**, 43ff.

٥ - Grégoire, **Origine**, pp. 88-118; Lemerle, **Invasions**, pp. 281-285; Hauptmann, **Les Slaves et les Avares**, pp. 137-170; Burmov, **Sièges de Thessalonique**, pp. 167-215.

بالنسبة للحصار الأول لمدينة سالونيكا من قبل السلاف والآفار ، تذكر المصادر أنه حدث يوم الأحد ٢٢ سبتمبر فى عهد الإمبراطور موريس دون أن تحدد السنة ، انظر :

Miracula Sancti Demetri, PG, col. 1288 .

وعلى هذا فإن السنة التى حدث فيها هذا الحصار لابد وأن تكون إما سنة ٥٨٦م أو سنة ٥٩٧م ، ففى هاتين السنتين فقط خلال عهد الإمبراطور موريس كان يوم ٢٢ سبتمبر يوافق يوم أحد . وإذا أخذنا فى الاعتبار الأماكن التى تواجد فيها الآفار سنة ٥٩٧م ، فسيتضح لنا أن الآفار كانوا بعيدين عن سالونيكا ولم يحاصروها . وعلى هذا فإن سنة ٥٨٦م هى فى الغالب السنة التى وقع فيها الحصار الأول لمدينة سالونيكا . انظر :

Charanis, **Capture of Corinth**,p. 347; Barisic, **Miracles de St. Démétrius**, pp. 60-64 .

٦ - **John of Ephesus (Smith)**, p. 432 .

٧ - Hauptmann, **Les Slaves et les Avares**, pp. 168 - 169 .

٨ - Theophanes, I, p. 290 ; Theophylactus Simocatta, p. 308.

٩ - كذلك أغار السلاف على الإقليم الآخى Achaea ، وعلى إيبروس Epirus ، والليريا . انظر :

Miracula Sancti Demetri, PG, cols. 1325ff. ; Tougard, **histoire Profane**,pp. 118 - 126 .

١٠ - Barisic, **Miracles de St. Démétrius**, p. 149 .

١١ - Charanis, **Ethnic Changes**, p. 38 .

١٢ - Charanis, **Demography**, p. 455; Charanis, **Observations**, pp. 15-16 .

١٣ - Charanis, **Ethnic Changes**, p. 41 .

ويرجع بعض المؤرخين حدوث امتزاج سريع بين السلاف والسكان الأصليين ، ويستندون فى هذا إلى وجود أسماء سلافية لبعض الأماكن فى أقاليم اليونان . للمزيد عن هذا الموضوع انظر :

Vasmer, **Die Slaven**, pp. 11-19 .

١٤ - Bon, **Le Péloponnèse**, pp. 27-70.

١٥ - Dölger, **Einsiedlung**, pp. 1-28; Georgacas, **Slavic Groups**, pp. 301 - 333 .

١٦ - البلغار عناصر تركية استقرت فى البداية فى المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود وبحر قزوين ، وهناك خضعوا لسلطان الآفار الذين فرضوا سيادتهم على معظم العناصر المتبربرة المستقرة شمال البحر الأسود ، وذلك أثناء تقدمهم غربًا تجاه الإمبراطورية فى القرن السادس الميلادى . والمعروف أن سلطان الآفار فى البلقان بدأ مرحلة ضعف واضمحلال بعد فشل حصار القسطنطينية سنة ٦٢٦م . هنا ثار البلغار ضد الآفار وأيدت الإدارة البيزنطية البلغار فى صراعهم ضد الآفار فى أواخر عهد الإمبراطور هرقل . وبسبب

ضغط الخزر Khazars اضطر البلغار إلى الهجرة غربًا حتى وصلوا فى سنة ٦٧٠م إلى دلتا نهر الدانوب . وهناك أخذ البلغار يتطلعون لعبور النهر . وللمزيد عن البلغار وأصلهم انظر :

Moravcsik, **Byzantinoturcica**, I,pp.108 - 119 .

وانظر أيضًا : وسام عبد العزيز فرج : **دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية** ، جـ١ ، ص١٦٧ - ١٦٨ .

بالنسبة لأسباب فشل حصار الآفار للقسطنطينية سنة ٦٢٦م ، انظر :

Barisic, **Siège de Constantinople**, pp. 371 - 395 .

١٧ - Ostrogorsky, **Staatenhierarchie**, pp. 41-61 .

١٨ - لقد كان البلغار أمة ذات حضارة تركت آثارًا ونقوشًا . وإذا كانت هذه الآثار والنقوش لاتزال موضع نقاش وبحث المؤرخين ، فلاشك أن هذه الآثار تعطى للبلغار جذورًا حضارية لم يتمتع بها غيرهم من الأقوام التى غزت شبه جزيرة البلقان . فالبلغار على خلاف الهون والآفار لم يقيموا دولة اليوم لتنهار بعد قليل . للمزيد عن آثار ونقوش البلغار ، انظر :

Besevliev, **Inschriften**, pp. 89 - 92 .

للمزيد عن الهون والآفار، انظر :

Moravcsik, **Byzantinoturcica**, I, pp. 57 - 65 ; 70-76 .

١٩ - **Theophanes**, I, pp. 356 - 359; **Nicephorus**, p. 35 .

٢٠ - Ostrogorsky, **World Order**, pp. 1-14 .

٢١ - Vasmer, **Die Slaven**, pp. 20 - 173 ; Charanis, **Slavonic Settlements**, pp. 254 - 258 .

٢٢ - Charanis, **Monemvasia**, pp. 141 - 161 .

٢٣ - كانت السلطة والإدارة الإمبراطورية موجودة بشكل أو بآخر فى النصف الثانى للقرن السابع فى بعض أقاليم اليونان . فالمعروف أن الحكومة البيزنطية أنشأت ثيم هلاس Hellas بين عامى ٦٨٧م و ٦٩٥م . وكان هذا الثيم يضم أقاليم فى شرق ووسط اليونان مثل إقليم أتيكا Attica وإقليم تسالى Thessaly . انظر: Charanis, **Hellas**, pp. 173 - 174 ، كذلك كانت السلطة والإدارة البيزنطية موجودة بشكل أو بآخر فى القرن الثامن فى بعض مناطق شرق البلوبونيز ، بدليل إشارة المصادر البيزنطية لقيام الإمبراطور قسطنطين الخامس فى سنة ٧٥٥ بتهجير عائلات بأكملها من جزر البحر الإيجى ، ومن هلاس ، والبلوبونيز Peloponnesus إلى مدينة القسطنطينية لتعميرها بعد أن فقدت عددًا كبيرًا من السكان خلال طاعون سنة ٧٤٦ / ٧٤٧م . انظر :

Theophanes, I, p. 429 .

على أية حال ، جرى تأسيس ثيم مستقل فى البلوبونيز بعد ذلك . والمرجع أن ثيم البلوبونيز قد تأسس قبل سنة ٨٠٥م ، ففى هذا العام كان الثيم موجوداً بالفعل بل وتعاقب على إدارته عدد من القادة العسكريين Strategoi . للمزيد عن ثيمى هلاس والبلوبونيز ، انظر :

De Thematibus, pp. 170 - 173 ; Charanis, Observations, pp. 4-11; Oikonomidés, Préséance, pp. 350 - 351 .

٢٤ - أدى غزو السلاف لشبه جزيرة البلقان وتوغلهم جنوبًا حتى البلوبونيز إلى هجرة أعداد من السكان البيزنطيين الأصليين من أقاليم اليونان والبلوبونيز فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع إلى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا . انظر :

Charanis, Hellenization, pp. 74 - 87; Charanis, Slavonic Settlements, p. 255 .

٢٥ - Charanis, Ethnic Changes, p. 41 .

٢٦ - Charanis, Ethnic Changes, p. 38; Tapkova-Zaimova, Colonisation, pp. 113 - 115 .

٢٧ - انظر حاشية رقم (٥) فيما سبق ، وانظر أيضًا :

Charanis, Ethnic Changes, pp. 37, 38 .

٢٨ - عن نشاط البلغار فى المنطقة المحيطة بسالونيكا ومحاولات الاستيلاء على المدينة ، انظر :

Charanis, Thessalonica, pp. 229 - 247; Angelov, Formation, p. 54; Besevliev, Inschriften, pp. 110 - 111 .

٢٩ - عن حملة الإمبراطور قنسطانز الثانى ضد السلاف ، انظر :

Theophanes, I, pp. 347 - 348 .

٣٠ - Ostrogorsky, State, p. 105 .

٣١ - Ostrogorsky, State, pp. 105-106 .

٣٢ - Theophanes, I, p. 348 .

٣٣ - للمزيد عن علاقات السلاف المستقرين فى إقليم سالونيكا بغيرهم من القبائل السلافية التى كانت لاتزال فى مرحلة الارتحال ، انظر :

Tapkova - Zaimova, Colonisation, pp. 111 - 123 .

٣٤ - Theophanes, I,p. 347 .

٣٥ - وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ، ص ٤٢ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

٣٦ - Theophanes , I, p. 364 .

وجدير بالذكر أن الإمبراطور جستنيان الثانى أصدر فى نفس العام ٦٨٨ / ٦٨٩م مرسومًا منح فيه كنيسة القديس ديمترى فى سالونيكا بعض الامتيازات تعبيراً عن شكره للقديس ديمترى الذى بفضله

انتصر الإمبراطور على السلاف كما تروى الأسطورة . وفى هذا المرسوم ورد ذكر زيارة الإمبراطور لمدينة سالونيكا، انظر :

Grégoire, **Justinien II**, pp. 119 - 134; Ostrogorsky, **State**, p. 117 n.1.

٣٧ - تحول إقليم تراقيا Thrace إلى ثيم فى الفترة الواقعة بين عامى ٦٨٠ و ٦٨٧م ، ربما كرد فعل لعبور البلغار نهر الدانوب واستقرارهم فى شمال شرق البلقان . والمرجح أن إقليم ستريمون Strymon كان يتبع الإدارة العسكرية لهذا الثيم . انظر عن ثيم تراقيا :

De Thematibus, 156 - 159; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 349 , 355 .

وانظر أيضًا :

Charanis, **Demography**, p. 458; Ostrogorsky, **State**, p. 119; Browning, **Bulgaria**, p. 47 .

٣٨ - Ostrogorsky, **State**, p. 117 .

٣٩ - Angelov, **Formation**, pp. 49 - 64 .

٤٠ - أشار ثيوفانس إلى أن حملة جستنيان الثانى كانت ضد السلاف والبلغار أيضًا ، انظر :

Theophanes, I, p. 364; Charanis, **Observations**, pp. 11-12 .

٤١ - Angelov, **Formation**, p. 55.

٤٢ - من أمثلة تمرد السلاف ضد السيادة البيزنطية ذلك التمرد الذى حدث ضد الإدارة البيزنطية فى عهد الإمبراطور طيربوس الثالث Tiberius III (٦٩٨ - ٧٠٥م) . ومن المحتمل أن بلغاريا هى التى حرضت السلاف على التمرد . انظر :

Michel Le Syrien, II, p. 473 .

٤٣ - بعد نجاح جستنيان الثانى فى استرداد عرشه سنة ٧٠٥م ، عامل خان البلغار بكرم وحفاوة ومنحه لقب قيصر الذى كان يلى فى المكانة لقب إمبراطور إلا أنه فقد فى ذلك الوقت أهميته الأولى . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تمنح فيها بيزنطة هذا اللقب لحاكم أجنبى . ومن المرجح أن خان البلغار ترفل اعتنق المسيحية أثناء إقامته بالعاصمة البيزنطية ، ولكن بلغاريا ظلت دولة وثنية . كذلك قام الإمبراطور جستنيان الثانى بمنح البلغار إقليم زاجوريا Zagoria الذى يرجح أنه يقع بين جبال البلقان وخليج بورجاس Burgas . انظر :

Browning, **Bulgaria**, p. 48; Besevliev, **Inschriften**, p. 58.

٤٤ - Ostrogorsky, **State**, p. 149 .

٤٥ - **Theophanes**,I, p. 430 .

٤٦ - يتلخص تكتيك الهجوم المزدوج الذى اتبعه قسطنطين الخامس فى حملته الأولى ضد البلغار سنة ٧٦٣م فى قيام الإمبراطور بإرسال فرق الفرسان بحراً إلى مصب نهر الدانوب لتتقدم بعد ذلك من مصب

النهر جنوبًا تجاه بلغاريا ، بينما يتقدم الإمبراطور بنفسه على رأس فرق المشاة براً عبر إقليم تراقيا وعلى طول ساحل البحر الأسود شمالاً ، وبهذا يتحقق الهجوم على البلغار من الشمال والجنوب . انظر :

Theophanes, I,pp. 434 - 435; Nicephorus, p. 67; Ostrogorsky, State, p. 150 .

٤٧ - Ostrogorsky, State, p. 151 .

٤٨ - Besevliev, Konstantine V, pp.5-17 .

وجدير بالذكر أن حولية البطريرك نقفور تشير إلى هجرة أعداد كبيرة من السلاف من منطقة الحدود البيزنطية البلغارية تجاه إقليم تراقيا ، وقيام الإمبراطور قسطنطين الخامس بتوطينهم فى إقليم بيثينيا Bithynia فى آسيا الصغرى . انظر :

Nicephorus, pp. 68 - 69 .

٤٩ - Theophanes, I, p. 456 .

٥٠ - Theophanes, I, p.457 .

٥١ - Theophanes, I, p. 486 .

ذكر ثيوفانس - وهو المصدر الرئيسى والمعاصر لأحداث هذه الفترة - أن العناصر البيزنطية التى قام الإمبراطور بتهجيرها جاءت من كل أنحاء وأقاليم الإمبراطورية وأنها استقرت فى Sclavinia بالبلقان . وكلمة Sclavinia تعنى الأقاليم التى قطنها السلاف فى شبه جزيرة البلقان . وهذا يتضمن بالطبع أقاليم تراقيا ، مقدونيا ، إقليم سالونيكا ، اليونان ، وشبه جزيرة البلوبونيز . للمزيد عن معنى كلمة Sclavi- nia انظر :

Charanis, Observations, pp. 11 - 12 ; Charanis, Nicephorus I, pp. 79-83 . .

٥٢ - يطلق الأستاذ خارانيس Charanis على الإمبراطور نقفور الأول لقب " منقذ بلاد اليونان " ، انظر :

Charanis, Nicephorus I,p. 86 .

٥٣ - المصدر الرئيسى لهذه المعلومات هو الحولية المعروفة بـ " حولية مونمفازيا " Chronicle of Monem- vasia . ولقد أثبتت الدراسات التاريخية أخيراً صحة المعلومات الواردة فى هذه الحولية التى تتضمن معلومات قيمة عن التغلغل السلافى فى بلاد اليونان منذ عهد الإمبراطور موريس وحتى عهد الإمبراطور نقفور الأول فضلاً عن معلومات أخرى مفيدة متأخرة زمنيًا . وعلى الرغم من وفرة الدراسات التى ظهرت حتى الآن ، فإن مؤلف هذه الحولية لايزال مجهولاً ، كما أن تاريخ كتابتها غير معروف على وجه الدقة . انظر :

Lemerle, Chron. Monemvasie, p. 10 ; Charanis, Monemvasia, pp. 147-148, 152; Charanis, Nicephorus I, pp. 82-83 .

ومن الجدير بالذكر أن الأحداث الخاصة بثورة السلاف فى البلوبونيز وهجومهم على قلعة باتراس Patras قد وردت فى مؤلف الإمبراطور قسطنطين السابع الخاص بالإدارة الإمبراطورية دون ذكر اسم سكليروس قائد ثيم البلوبونيز الذى أخمد ثورة السلاف ، انظر أيضًا :

DAI, I, ch. 49, pp. 228 - 232 .

وللمزيد عن سكليروس قائد ثيم البلوبونيز ، انظر :

Seibt, **Die Skleroi, p. 20 .**

٥٤ - Ostrogorsky, **State, p. 171, n. 4 .**

٥٥ - Cameniates, **De Exp., pp. 20 , 25 .**

٥٦ - Ostrogorsky, **State, p. 172 .**

٥٧ - أشار ثيوفانس إلى مقدونيا كثيم منفصل عن تراقيا لأول مرة فى أحداث سنة ٨٠٢م . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن ثيم مقدونيا تكون فى الفترة ما بين سنة ٧٨٩م وسنة ٨٠٢م ، انظر :

Theophanes, I, p. 475; De Thematibus, pp. 162-165; Oikonomidès, **Préséance, p. 349;** Lemerle, **Macédoine, pp. 122-123 .**

٥٨ - للمزيد عن ثيم البلوبونيز ، انظر :

De Thematibus, pp. 172 - 173 ; Oikonomidès, **Préséance, p. 350;** Charanis, **Observations, pp. 4-11.**

٥٩ - للمزيد عن ثيم سفالونيا ، انظر :

De Thematibus, pp. 174 - 175 ; Oikonomidès, **Préséance, p. 352:** Oikonomidès, **Cephalonie, pp. 118-119 .**

٦٠ - عن ثيم سالونيكا انظر :

De Thematibus, pp. 168-170: Oikonomidès, **Préséance, p. 352:** Dvornik, **Décapolite, pp.8-12;** Lemerle, **Macédoine, p. 129 .**

وللمزيد عن ثيم ديراخيوم Dyrrachium ، انظر :

De Thematibus, p. 177; Oikonomidès, **Préséance, p. 352;** Ferluga, **Dyrrachium, pp. 83-92 .**

٦١ - Karayannopulos, **Frage, p. 448 .**

٦٢ - أشار المصدر العسكرى الذى ينسب للإمبراطور موريس إلى حياة السلاف فى بداية مرحلة استقرارهم فى أقاليم البلقان . انظر :

Maurice, **Strategikon, pp. 370-375 .**

٦٣ - Maurice, **Strategikon**, pp. 372,373; Dvornik, **Decapolite**, pp. 29 , 51 , 53 - 55 .

٦٤ - Charanis, **Demography**, p. 462 .

٦٥ - **Monemvasias Chronikon**, pp. 68 - 69 ; Charanis, **Nicephorus I**, p. 81; Charanis, **Monemvasia**, p. 149.

٦٦ - Browning, **Bulgaria**,p. 52 .

٦٧ - Obolensky, **Commonwealth**, p. 79.

٦٨ - **Theophanes**, I, pp. 473 - 474 .

٦٩ - Browning, **Bulgaria**, p. 52 .

ويضيف الأستاذ براونج Browning أن البطريرك نيكتاس Nicetas (٧٦٦ - ٧٨٠م) قد يكون من أصل سلافى ، ولكن الأدلة غير كافية .

٧٠ - **Theophanes**, I, p. 400 .

٧١ - **De Thematibus**, p. 91 .

٧٢ - Obolensky, **Commonwealth**, p. 64 .

٧٣ - Browning, Bulgaria, p. 53; Angelov, **Formation**, pp. 54, 55, 58 .

٧٤ - للمزيد عن اتفاقيات السلام بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة البلغار ، والحدود بين الدولتين فى اتفاقية سنة ٦٨١م ، ومعاهدة سنة ٧٠٥م ، انظر :

Besevliev, **Inschriften**, pp. 57-59; Obolensky, **Commonwealth**, p. 65 .

٧٥ - يلاحظ أن حدود دولة البلغار تخطت بالفعل نطاق جبال البلقان كما يتضح فى اتفاقية سنة ٧١٧م بين بيزنطة وبلغاريا . ولكن يجب ألا ننسى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت مضطرة لعقد هذه الاتفاقية ومنح البلغار بعض التنازلات الإقليمية كى تتفرغ لمواجهة الخطر الإسلامى . وجدير بالذكر أن ثيوفانس لم يذكر هذه الاتفاقية فى أحداث سنة ٧١٧م ، بل أشار إليها ضمن أحداث سنة ٨١٢م . فقد ذكر ثيوفانس أن الخان البلغارى كروم عرض على الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الأول رانجاب Michael I. Rangabe (٨١١ - ٨١٣م) مقترحات اتفاق سلام يماثل بنود اتفاقية السلام التى عقدها الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث Theodosius III (٧١٥ - ٧١٧م) والبطريرك جرمانوس مع خان البلغار . انظر :

Theophanes, I, p. 497; Besevliev, **Inschriften**,pp. 60-62 .

٧٦ - ولكن الموقف تغير فى عهد الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) مرة أخرى ، واضطر الإمبراطور إلى الخروج فى حملتين ضد البلغار : سنة ٧٩١ وسنة ٧٩٢م . وفى الحملة الثانية الحق البلغار بالإمبراطور هزيمة كبيرة ، واستطاع قسطنطين الهرب بصعوبة . ومن المرجح أن بيزنطة اضطرت إلى عقد

هدنة مع البلغار تقرر بمقتضاها قيام الإمبراطورية بدفع الجزية لبلغاريا . ومن المرجح أيضًا أن حدود دولة البلغار تخطت مرة أخرى نطاق جبال البلقان جنوبًا . انظر :

Ostrogorsky, **State**, p. 162; Besevliev, **Inschriften**, pp. 65 - 66 .

٧٧ - Browning, **Bulgaria**, p. 48; Ostrogorsky, **State**, p. 173 .

٧٨ - Browning, **Bulgaria**, p. 49 .

٧٩ - عن العلاقات البيزنطية البلغارية فى القرنين التاسع والعاشر ، انظر :

Angelov, **Formation**, pp. 49 - 64; Browning, **Bulgaria**, pp. 54 - 78 .

٨٠ - عن النهضة الثقافية فى بيزنطة فى القرن التاسع الميلادى ، انظر :

Dvornik, **Byzance**, pp. 106 - 146; Dvornik, **Légendes**, pp. 25-37 .

٨١ - للمزيد عن ثيم نيقوبوليس Nicopolis انظر :

De Thematibus, p. 176; Oikonomidès, **Préséance**, p. 351 .

بالنسبة لثيم دالماشيا Dalmatia ، يلاحظ أن قسطنطين بورفيروجينتوس Constantine Porphyrogen-itus لم يخصص له فصلاً فى مؤلفه الخاص بالثيمات كما فعل بالنسبة للثيمات الأخرى ، انظر ملاحظات برتوسى Pertusi فى تفسير ذلك فى نفس المصدر :

De Thematibus, pp.41 - 43 ; Oikonomidès, **Préséance**, p. 353 .

٨٢ - للمزيد عن ثيم ستريمون Strymon ، انظر :

De Thematibus, pp. 166 - 168; Oikonomidès, **Préséance**, pp. 352, 357 .

٨٣ - Obolensky, **Commonwealth**, p. 78 .

٨٤ - Hussey, **World**, p. 130 .

٨٥ - Charanis, **Monk**, pp. 63 - 84 .

٨٦ - Charanis, **Monk**, pp. 81-82 .

٨٧ - Hussey, **Byzantine Monasticism**, pp.180 - 181; Vlasto, **Christendom**, pp.298 - 299; Dujcev, **Mont Athos**, pp. 121 - 144 .

٨٨ - ولكن العناصر السلافية المنتمية لقبيلتى Melingi و Ezeritae والمستقرة فى مرتفعات غرب البلوبونيز احتفظت بهويتها العرقية واللغوية حتى الفتح العثمانى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، انظر:

Georgacas, **Slavic Groups**, pp. 301 - 333 ; Vlasto, **Christendom**, p. 12 .

٨٩ - Obolensky, **Byzantine- Slav Relations**, p. 4; Obolensky, **Commonwealth**, p. 72 .

٩٠ - Dvornik, Byzance, pp. 133 - 146; Obolensky, Byzantine-Slav Relations, p. 4.

٩١ - للمزيد عن حياة البطريرك فوتيوس Photius ، انظر :

Dvornik, Photius, pp. 1-56 .

٩٢ - Browning, Bulgaria, p. 55 .

٩٣ - Ostrogorsky, State, p.203; Browning, Bulgaria, p.55 .

بالنسبة للسفارة البيزنطية إلى دولة الخزر Khazars سنة ٨٦١م ، انظر :

Dvornik, Légendes, pp. 178 - 211 .

٩٤ - عن علاقة مملكة مورافيا بدولة الفرنجة والظروف التى دفعت للملك راستيسلاف Rastislav إلى طلب عون بيزنطة فى تأسيس كنيسة أرثوذكسية فى مورافيا ، انظر :

Dvornik, Byzance, pp. 147 - 163; Dvornik, Légendes, pp. 226 - 235; Vlasto, Christendom, pp. 20 - 28 .

٩٥ - Dujcev, Moravia, pp. 219 - 228 ; Dvornik, Byzance, pp. 164 - 183 .

٩٦ - للمزيد عن حروف اللغة السلافية التى توصل إليها سيريل Cyril ومثوديوس Methodius ، انظر :

Vlasto, Christendom, pp. 28 - 48; Obolensky, Byzantine-Slav Relations, p. 10 .

٩٧ - Dvornik, Légendes, pp. 229 - 231; Browning, Bulgaria, pp. 55, 146; Ostrogorsky, State, p. 204 .

٩٨ - وسام عبد العزيز فرج : دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ، جـ١ ، ص ٢٥٨ -٢٥٩.

٩٩ - Obolensky, Commonwealth, p. 84; Ostrogorsky, State, p. 204; Dvornik, Légendes, p. 230; Dvornik, Byzance, p. 187 .

١٠٠ - Browning, Bulgaria, p. 145 .

١٠١ - كانت رسالة البطريرك فوتيوس محاضرة قيمة عن الديانة المسيحية وأهمية المجامع المسكونية وعددها ، وواجبات الحاكم المسيحى . انظر النص الكامل لهذه الرسالة الطويلة :

Photius, Epistola, cols. pp. 627 - 696 .

وانظر أيضًا :

Dvornik, Byzance, p. 190 .

١٠٢ - Browning, Bulgaria, p. 147 .

١٠٣ - للمزيد عن الخلاف العنيف بين فوتيوس بطريرك القسطنطينية ونيقولا الأول بابا روما ، وكيف حاول القيصر البلغارى استثماره ، انظر :

Dvornik, Schisme, pp.144 - 195 .

كذلك اتجه بوريس إلى دولة الفرنجة وأرسل سفارة إلى لويس الألمانى ، ملك القسم الشرقى من دولة الفرنجة ، يطلب إرسال رجال دين من قبله ، انظر :

Dvornik, Byzance, p.191; Browning, Bulgaria, p.148 .

١٠٤ - لا نعلم على وجه التحديد محتوى رسالة القيصر البلغارى إلى بابا روما ، ولكن رد البابا نيقولا الأول على هذه الرسالة وصلنا بالكامل . ويتضمن هذا الرد الإجابة على ١٠٦ سؤال فى شئون المسيحية والتنظيم الكنسى . للمزيد عن رد بابا روما على رسالة القيصر البلغارى ، انظر :

Dujcev, Die Responsa, pp. 349 - 362; Obolensky, Commonwealth, pp. 87 - 92 .

١٠٥ - فى منتصف عام ٨٦٩م اقترح القيصر بوريس على البابا هادريان الثانى (٨٦٧ - ٨٧٢م) بعض الأسماء (من بين أعضاء الوفد البابوى فى بلغاريا) لشغل وظيفة رئيس أساقفة بلغاريا . ولكن البابا تجاهل المطالب البلغارية ، على اعتبار أن اختيار شخص رئيس الأساقفة من حق البابا وحده ، انظر :

Dujcev, Die Responsa, p.357 .

١٠٦ - كان الإمبراطور باسيل الأول حريصًا على إقامة علاقات طيبة مع الغرب بصفة عامة ومع البابوية بصفة خاصة . وبعد قيام الإمبراطور بعزل البطريرك فوتيوس ، أرسل سفارته الأولى إلى البابا هادريان الثانى . وتم الاتفاق على عقد مجمع دينى فى القسطنطينية لتصفية كل الخلافات بين الكنيستين الشرقية والغربية . ويعتبر هذا المجمع - الذى انعقد خلال الفترة الممتدة من أكتوبر سنة ٨٦٩م إلى مارس سنة ٨٧٠م - بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية هو المجمع المسكونى الثامن . للمزيد عن هذا المجمع ، انظر:

Dvornik, Schisme, pp. 204 - 229 ; Vlasto, Christendom, p.162 .

١٠٧ - Dvornik, Schisme, pp. 123 - 124; Browning, Bulgaria, pp. 151 - 152 .

١٠٨ - لا نعرف على وجه التحديد اسم رئيس أساقفة بلغاريا . ومن المحتمل أنه كان أحد أبناء الجالية اليونانية فى بلغاريا . انظر :

Vlasto, Christendom, p. 162 .

ويرى البعض أن الاتفاق على شخص رئيس أساقفة بلغاريا تم خلال المجمع الدينى وبموافقة الجميع ، انظر:

Browning, Bulgaria, p. 152 .

١٠٩ - Browning, Bulgaria, p. 153 .

١١٠ - عن نشاط الأخوين سيريل ومثوديوس فى مورافيا ، انظر :

Dujcev, Moravia, pp. 219 - 228 .

١١١ - Browning, Bulgaria, p. 154; Vlasto, Christendom, p. 163 .

١١٢ - Obolensky, **Commonwealth**, pp. 95 - 96; Browning, **Bulgaria**, pp. 154 - 155; Angelov, **Formation**, p. 57.

١١٣ - Browning, **Bulgaria**, p. 158; Angelov, **Formation**, p. 57; Obolensky, **Common-- wealth**, p. 97 .

١١٤ - Angelov, **Formation**, pp. 57 - 58 .

وانظر أيضًا :

Dujcev, **L'Etat Bulgare**, p. 224 .

١١٥ - Obolensky, **Commonwealth**, p. 98 .

١١٦ - أفرد الإمبراطور قسطنطين السابع فصلاً كاملاً عن " إقليم دالماشيا والأمم السلافية المجاورة له " ، وهو الفصل رقم (٢٩) في مؤلفه الخاص بإدارة الإمبراطورية De Administrando Imperio . ويعد هذا الفصل هامًا لأنه يقدم مادة تاريخية قيمة عن التاريخ الباكر لدولتي الصرب والكروات فضلاً عن القبائل السلافية الأخرى المستقرة على ساحل البحر الأدرياتي ، انظر :

DAI, I, ch. 29, p. 124 .

وانظر أيضًا الجزء الثاني من هذا المصدر الذي يتضمن تعليقات هامة من قبل بعض المؤرخين المحدثين :

DAI, II, pp. 94 - 101 .

١١٧ - تشير المصادر البيزنطية إلى أن عناصر الصرب ظلت على وثنيتها ورفضت محاولات الإمبراطورية لكسب ودها أو إخضاعها . انظر الفصل الخاص بحياة الإمبراطور باسيل الأول **Vita Basilii** في صلة ثيوفانس :

Theoph. Cont., pp. 288 - 289 .

والمرجح أن مؤلف هذا الفصل الخاص بحياة الإمبراطور باسيل الأول والذي يحمل رقم (٥) في المصدر سابق الذكر ، هو حفيد باسيل الأول ، الإمبراطور قسطنطين السابع . انظر :

Moravcsik, **Byzantinoturcica**, I, p. 380 .

١١٨ - **Theoph. Cont.**, pp. 291 - 292 .

وانظر أيضًا :

Dujcev, **Serbes**, pp. 53 - 60 .

١١٩ - Dujcev, **Serbes**,p. 60 .

١٢٠ - Obolensky, **Commonwealth**, p.100 .

١٢١ - من المرجع أن خضوع كروات بانونيا Pannonia لشارلمان حدث سنة ٧٩٥م ، انظر :

Vlasto, Christendom, p. 189 .

١٢٢ - ترجع أهمية هذه المعاهدة إلى أنها حددت بوضوح حدود الإمبراطورية البيزنطية ودولة الفرنجة ومناطق نفوذهما فى شمال غرب البلقان . انظر :

Vlasto, Christendom, pp. 189 - 190; Obolensky, Commonwealth, p. 100 .

١٢٣ - للمزيد عن نشاط البعثات التبشيرية اللاتينية فى كرواتيا ، انظر :

Vlasto, Christendom, pp. 191 - 194 .

١٢٤ - Obolensky, Commonwealth, p.100 ; Ostrogorsky, State, p. 210 .

١٢٥ - Vlasto, Christendom, p.194 .

١٢٦ - Obolensky, Byzantine-Slav Relations, p. 10 .

١٢٧ - للمزيد عن حروب القيصر سيميون ضد الإمبراطورية البيزنطية ، انظر :

Browning, Bulgaria, pp. 62 - 67; Obolensky, Commonwealth, pp. 105 - 113; Ostrogorsky, State, pp. 231-236.

١٢٨ - Ostrogorsky, State, p.232 .

١٢٩ - فى سنة ٩٦٥ توفت ماريا ليكابينا Maria Lecapena حفيدة الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، وزوجة القيصر البلغارى الضعيف بطرس (٩٢٧ - ٩٦٩م) . وأعقب ذلك وقوع القيصر البلغارى تحت تأثير بعض العناصر المعادية لبيزنطة فى بلغاريا . وتحت تأثير هؤلاء ، أرسل بطرس سفارة إلى العاصمة البيزنطية لاستلام الجزية التى كانت بيزنطة تدفعها أحيانًا وفقًا لاتفاقية رومانوس ليكابينوس والقيصر بطرس ، وهى الاتفاقية التى رتبت زواج بطرس من حفيدة الإمبراطور سنة ٩٢٨م . على أية حال ، حين وصلت سفارة البلغار إلى العاصمة البيزنطية ، كانت الظروف قد تغيرت وبدأت الإمبراطورية عصر قوة وتوسع فى الشرق فى عهد الإمبراطور نقفور فوقاس . ولم يتصور نقفور أن تقوم الإمبراطورية بدفع جزية لهؤلاء البرابرة وقام بطرد السفراء البلغار . وتوقعا لنشوب حرب مع بلغاريا ، قرر نقفور توجيه الضربة الأولى . وبالفعل أرسل الإمبراطور جيشًا إلى حدود بلغاريا ، ثم غير خطته وقرر الاستعانة بالروس لأداء هذه المهمة . وأرسل الإمبراطور سفارة إلى سفياتوسلاف Svjatoslav أمير كيف Kiev الروسى ، ومعها ١٥٠٠ رطل من الذهب كهدية مقابل قيام الأخير بغزو بلغاريا . وبالفعل استجاب الأمير الروسى وعبر الدانوب وهزم البلغار ، ولكنه رفض العودة إلى بلاده بعد أن أدى المهمة . وأدرك نقفور فداحة الخطأ الذى ارتكبه . وبعد مقتل نقفور فوقاس سنة ٩٦٩م ، اعتلى يوحنا تزيمسكس العرش البيزنطى وأصبح عليه تسوية خطأ سلفه . انظر :

Browning, Bulgaria, pp. 70 - 72 ; Ostrogorsky, State, p. 259; Obolensky, Commonwealth, p.128 .

١٣٠ - وسام عبد العزيز فرج : دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ، جـ١ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

١٣١ - Browning, **Bulgaria**, pp. 72 - 73; Ostrogorsky, **State**, pp. 262 - 263; Obolensky, **Commonwealth**, pp. 129 - 131 .

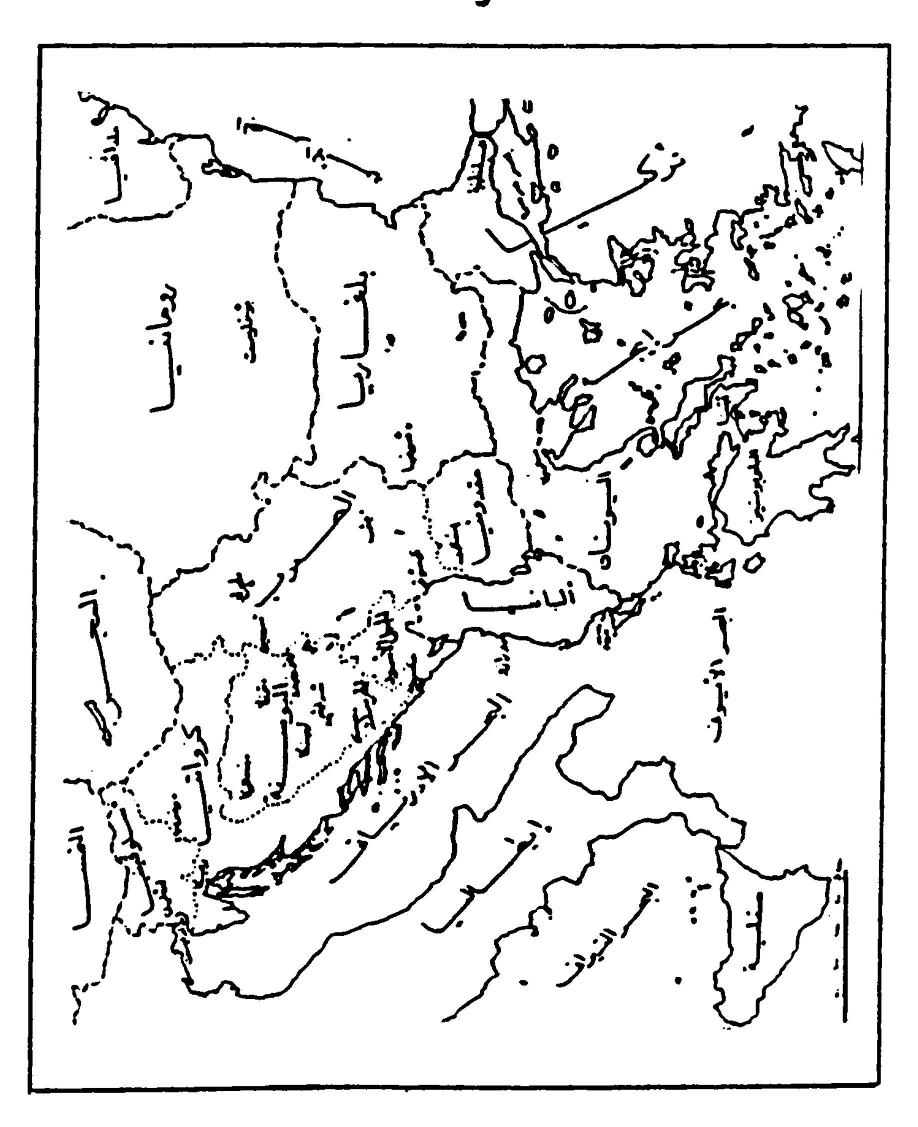
١٣٢ - Obolensky, **Commonwealth**, p.131 .

١٣٣ - قامت الإدارة البيزنطية بتقسيم أقاليم دولة البلغار إلى ثيمات جديدة هى : ثيم بلغاريا وقاعدته سكوبلى Skoplje فى غرب مقدونيا . ثيم باريستريون Paristrion (ويعرف أيضًا باسم Paradunavon) ويضم الإقليم الممتد بين الدانوب الأدنى وجبال البلقان وقاعدته سيلسترا Silistria على نهر الدانوب . ثيم سيرميوم Sirmium فى أقصى الشمال وقاعدته سيرميوم على نهر السافا Sava ، وربما ضم مدينة بلجراد Belgrad التى تقع عند ملتقى الدانوب بنهر السافا . كذلك قامت الحكومة البيزنطية بتدعيم ثيم دالماشيا بإضافة الإقليم الخلفى له . بالنسبة لأقاليم الصرب والكروات فقد أبقى باسيل الثانى عليها تحت حكم أمرائها المحليين فى ظل السيادة البيزنطية . انظر :

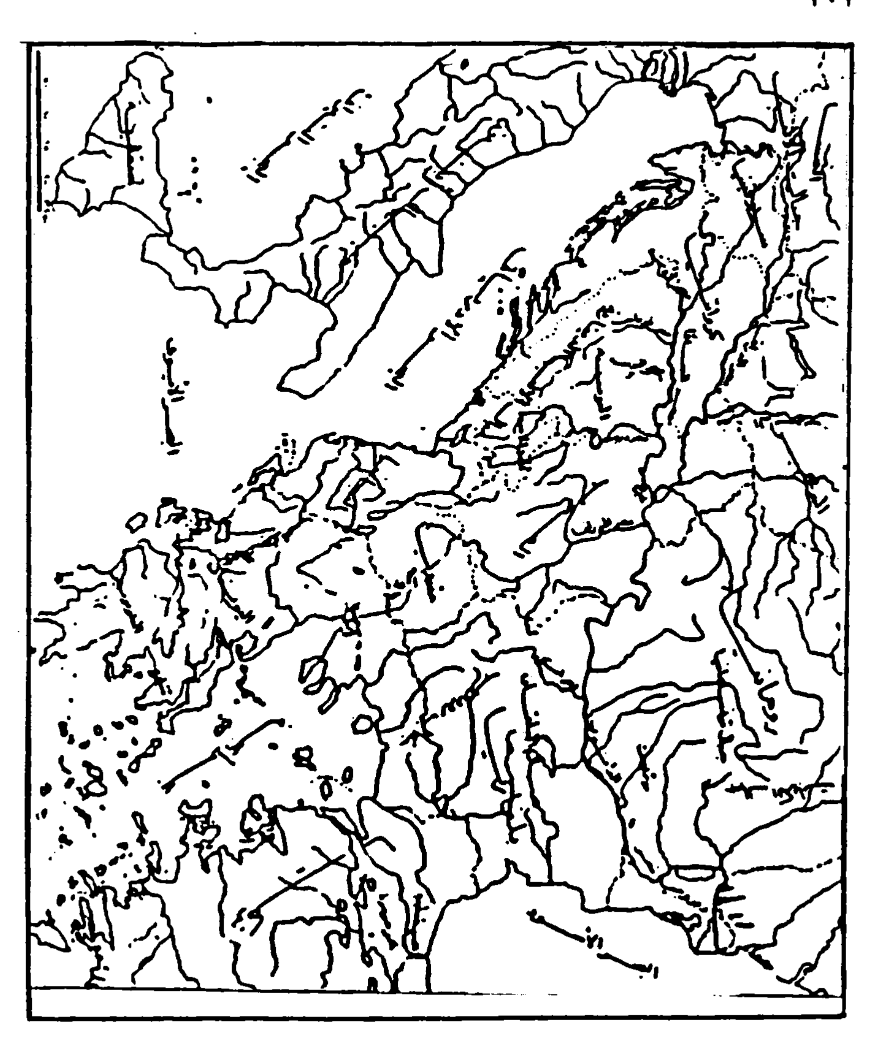
Ostrogorsky, **State**, pp. 276 - 277; Obolensky, **Commonwealth**, pp. 209 - 210 .

١٣٤ - Browning, **Bulgaria**, p. 76 .

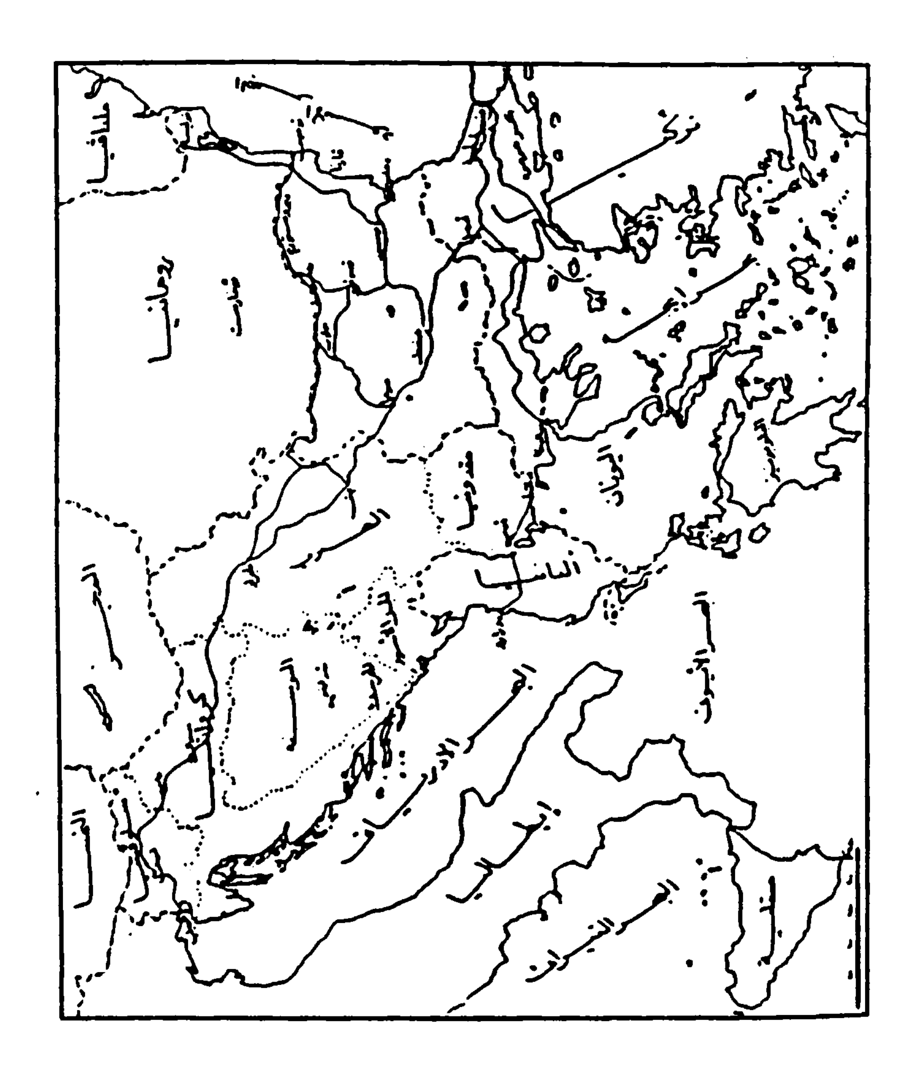
الخـرائـط



شكل رقم (١) الكيانات السياسية فى شبه جزيرة البلقان



شكل رقم (٢) الخريطة الطبيعية لشبه جزيرة البلقان



شكل رقم (٣) الطرق الرومانية فى شبه جزيرة البلقان

قائمة المصادر والمراجع والمختصرات الأجنبية(*)

AAASH	Acta Antique Academiae Scientiarum Hungaricae, Budapest 1952ff .
Acropolites	**Georgii Acropolitae Opera,** ed. A. Heisenberg (Leipzig, 1903), 2 vols .
Adontz, **Basil I .**	N. Adontz, " L'âge et l'origine de l'empereur Basil I. (867-886)" , **B**, 8 (1933), pp. 475 - 500; 9 (1934), pp. 223 - 260 .
Adontz, **L'Oraison Funèbre**	N. Adontz, " La portèe historique de l'oraison funèbre de Basil I. par son fils Leon VI. l'Sage" , **B**, 8 (1933), pp. 501 - 513 .
AHR	American Historical Review. New York and London, 1895 ff .
Ahrweiler, **Crète**	H. Ahrweiler, " L'administration militaire de la Crète byzantine" , **B**, 31 (1961), pp. 217 - 228 .
Ahrweiler, **Donations Conditionelles**	H. Ahrweiler, " La concession des droits incorporels . Donations conditionelles", **Actes du XIIIe Congrès International des Études Byzantines, II** (Beograd, 1964), pp. 103 - 114 .

* تقتصر هذه القائمة على المصادر والمراجع والمختصرات الأجنبية فقط ، أما المصادر والمراجع العربية والمعربة فقد سجلناها كاملة عند ذكرها لأول مرة فى حواشى الكتاب.

Ahrweiler, **Idéologie** — H . Ahrweiler, **L'idéologie politique de l'empire byzantin** (Paris, 1975) .

Ahrweiler, **La Frontiére** — H. Ahrweiler, " La frontiére et les frontières de Byzance en Orient" , **Actes du XIVe Congrés International des Études Byzantines** , I (Bucarest, 1974), pp. 209 - 230 .

Ahrweiler, **La Mer** — H. Ahrweiler, **Byzance et la mer : la marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VIIe - XVe siècles** (Paris, 1966) .

Ahrweiler, **Recherches** — H. Ahrweiler, " Recherches sur l'administration de l'empire byzantin aux IXe-XIe siècles" , **BCH**, 84 (1960), pp. 1-109 .

Anastos, **Iconoclasm** — M. Anastos, " Iconoclasm and Imperial Rule 717 - 842", **CMH**, IV, pt. 1 (1966), pp. 61-104.

Anastos, **Transfer of Illyricum** — M. Anastos, " The Transfer of Illyricum, Calabria and Sicily to the Jurisdiction of the Patriarchate of Constantinople in 732 - 33", **SBN**, 9 (1957), pp. 14 - 31 .

An Boll — Analecta Bollandiana. Bruxelles 1882 ff.

Angelov, **Formation** — D. Angelov, " Formation and Development of the Bulgarian Nationality : Ninth to Twelfth Centuries", **BHR**, 1 (1973), pp. 49 - 64 .

Anna Comnena	Anna Comnena, **The Alexiad**, trans. E. Sewter (Penguin Books, London, 1969).
Arethas, **Scripta Minora**	**Arethae Archiepiscopi Caesariensis Scripta Minora**, ed. L.G. Westerink (Leipzig, 1968 - 1972), 2 vols.
AS	Acta Sanctorum, Antwerp 1643 ff .
Attaleiates	**Michaelis Attaliotae Historia**, ed . I. Bekker (**CSHB**, Bonn 1853).
AUS	Annuaire de l'Université de Sofia . Faculté de Philosophie et Histoire .
B	Byzantion. Bruxelles (Paris), 1924 ff .
Barisic , **Miracles de St. Démétrius**	F. Barisic, **Miracles de St. Démétrius comme source historique** (Belgrade, 1953).
Barisic, **Siège de Constantinople**	F. Barisic, " Le siège de Constantinople par les Avares et les Slaven en 626", **B**, 24 (1954), pp. 371 - 395 .
Basilicorum	**Basilicorum Libri LX, Ser. A**, edd . H-J. Scheltema, N.Van der Wal (Groningen 1955 - 1963) vols. i - viii. **Ser.B**, edd . H.J. Scheltema, D. Holwerda, and the **Scholia** in Libri i-xlviii (Groningen, 1954 - 69), 13 vols.
BCH	Bulletin de Correspondance Hellénique. Paris, 1877 ff.
Beck, **Minister-präsident**	H.-G. Beck, " Der byzantinische Minister-präsident", **BZ**, 48 (1955), pp. 309 - 338 .

Beck, **Senat und Volk**	H. G. Beck, **Senat und Volk von Konstantinopel** (München, 1966). [= Bayerische Akademie der Wissenschaften. Philosophisch - Historische Klasse, Heft 6] .
Beck, Zentralverwaltung	H.G. Beck, **Theorie und Praxis im Aufbau der byzantinischen Zentralverwaltung** (München, 1974) [= Bayerische Akademie der Wissenschaften. Philosophisch - Historische Klasse, Heft 8] .
Benesevic, **Ranglisten**	V. Benesevic, " Die byzantinischen Ranglisten nach dem Kleterologion Philothei und nach den Jerusalemer Handschriften zusammengestellt und revidiert", **BNJ**, 5 (1926/1927), pp. 97 - 167 .
Berthelot, **Chimie**	M. Berthelot, **La chimie au moyen âge** (Paris, 1893) .
Besevliev, **Inschriften**	V.Besevliev, **Die Protobulgarischen Inschriften** (Berlin, 1963) .
Besevliev, **Konstantine V.**	V.Besevliev, Die Feldzüge des Kaisers Konstantine V. gegen die Bulgaren", **EB**, 7/III (1971), pp. 5-17
BF	Byzantinische Forschungen. Amsterdam, 1966 ff .
BHR	Bulgarian Historical Review .
BNJ	Byzantinisch-Neugriechische Jahrbücher. Berlin (Athens), 1920 ff .

Boak, **Master of Offices**	A.Boak, **The Master of the Offices in the Later Roman and Byzantine Empires, in :** Boak and Dunlap, **Two Studies in Later Roman and Byzantine Administration** (New York, 1924) .
Bon, **Péloponnése**	A.Bon, **Le Péloponnése byzantin jusqu'en 1204** (Paris, 1951) .
Bouscaren, Ellis, Korth, **Canon Law**	L.Bouscaren, A. Ellis, F.Korth, **Canon Law : A Text and Commentary,** 4th ed. (Milwaukee, 1963) .
Bréhier, Institutions	L. Bréhier, **Les institutions de l'empire byzantin** (Paris, 1949). [= Le monde byzantin vol. II] .
Browning, **Bulgaria**	R. Browning, **Byzantium and Bulgaria. A Comparative Study Across the Early Medieval Frontier** (London, 1975) .
Browning, **Correspondence**	R. Browning, " The Correspondence of a Tenth Century Byzantine Scholar", **B**, 24 (1954), pp. 397 - 452.
Browning, **Homer**	R. Browning, " Homer in Byzantium", **Viator,** 8 (1975) , pp. 15 - 33 .
Browning, **Repression**	R. Browning , " Enlightenment and Repression in Byzantium in the Eleventh and Twelfth Centuries", **PP**. 69 (1975), pp. 3-23 .
Browning, **Scholarship**	R. Browning, " Byzantine Scholarship", **PP**, 28 (1964), pp. 3-20

BS	Balkan Studies.
BSl	Byzantinoslavica. Prague 1929 ff.
Buckler, **Women in Byz. Law**	G.Buckler, " Women in Beyzantine Law about 1100 A.D.", **B**, 11 (1936), pp. 391 - 416.
Burmov, **Sièges de Thessalonique**	A.Burmov, " Les Siéges de Thessalonique par les Slaves dans Miracula Sancti Demetrii Martyris et leur chronologie", **AUS**, 47 (1952), pp. 167 - 215.
Bury, **Admin. System**	J.B.Bury, **The Imperial Administrative System in the Ninth Century, with a Revisd Text of Kletorologion of Philotheos** (London, 1911).
Bury, **Roman Empire**	J.B.Bury, **A History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene (395 - 800 A.D.)** (London, 1889). Unchanged reprint (Amsterdam, 1966), 2 vols.
BZ	Byzantinische Zeitschrift. (Leipzig), München, 1892ff.
Cameniates, **De Exp.**	**Ioannis Caminiatae de Expugnatione Thessalonicae**, ed. G.Boehling (**CFHB**, Berlin 1973).
Canard, **Deux Épisodes**	M.Canard, "Deux épisodes des relations diplomatiques arabo-byzantines au Xe siècle ", **Bull. d'Et. Or. de L'Inst. fr. de Damas**, 13 (1949 - 50), pp. 51 - 69.

Canard, **Muslim World**	M. Canard, " Byzantium and the Muslim World to the Middle of the Eleventh Century", **CMH** , IV, pt. 1 (1966), pp. 696 - 735 .
Cantacuzenus	**Ioannis Cantacuzenos Historiae**, ed. L. Schopen (**CSHB**, Bonn 1828 - 1832) , 3 vols.
CFHB	Corpus Fontium Historiae Byzantinae. Washington 1967 ff.
Charanis, **Capture of Corinth**	P.Charanis, " On the Capture of Corinth by the Onogurs and its Recapture by the Byzantines", **Speculum**, 27 (1952), pp. 343 - 350 .
Charanis, **Demography**	P.Charanis, " Observations on the Demography of the Byzantine Empire", **Proceedings of the XIIIe International Congress of Byzantine Studies** (Oxford, 1966), pp. 445 - 463 .
Charanis, **Ethnic Changes**	P.Charanis, " Ethnic Changes in the Byzantine Empire in the Seventh Century", **DOP**, 13 (1959), pp. 23 - 44 .
Charanis, **Hellas**	P.Charanis, " Hellas in the Greek Sources of the Sixth, Seventh and Eighth Centuries", in : K. Weitzmann (ed.) , **Late Classical and Medieval Studies in Honor of A.M. Friend** (Princeton, 1955), pp. 161 - 176 .

Charanis, **Hellenization**	P.Charanis, " On the Question of the Hellenization of Sicily and Southern Italy during the Middle Ages", **AHR**, 52 (1946), pp. 74-87 .
Charanis, **Monemvasia**	P.Charanis, " The Chronicle of Monemvasia and the Question of the Slavonic Settlements in Greece", **DOP**, 5 (1950), pp. 141 - 166.
Charanis, **Monk**	P.Charanis, " The Monk as an Element of Byzantine Society", **DOP**, 25 (1971), pp. 63 - 84 .
Charanis, **Nicephorus I**	P.Charanis, " Nicephorus I., the Savior of Greece from the Slaves", **Byzantina Metabyzantina**, 1 (1946), pp. 75 - 92 .
Charanis, **Observations**	P.Charanis, " Observations on the History of Greece during the Early Middle Ages", **BS**, 11/1 (1970), pp. 1-34 .
Charanis, **Slavic Element**	P.Charanis, " The Slavic Element in Byzantine Asia Minor", **B**, 18 (1948), pp. 69 - 83 .
Charanis, **Slavonic Settlements**	P.Charanis, " On the Question of the Slavonic Settlements in Greece during the Middle Ages", **BSl**, 10 (1949), pp. 254 - 258 .
Charanis, **Thessalonica**	P.Charanis, " Kouver, the Chronology of his Activities and their Ethnic Effects on the Regions around Thessalonica", **BS**, 11/2 (1970), pp. 229 - 247 .

Charanis, **Transfer of Population**	P.Charanis, " The Transfer of Population as a Policy in the Byzantine Empire", **Comparative Studies in Society and History** , vol. III, pt.2 (The Hague, 1961), pp. 140 - 154 .
Cheronis, **Chem. Warfare**	N.Cheronis, " Chemical Warfare in the Middle Ages: Kallinikos' Prepared Fire", **Journal of Chemical Education**, 14/8 (1937), pp. 360 - 365 .
Christides, **Arabic Translation**	V.Christides, " Naval Warfare in the Eastern Mediterranean (6th - 14th Centuries). An Arabic Translation of Leo VI'S Naumachica", **Graeco - Arabica**, 3 (1984), pp. 137 - 143 .
Christides, **Naval Technology**	V.Christides, " Naval History and Naval Technology in Medieval Times. The Need for Interdisciplinary Studies", **B.** 58 (1988), pp. 309 - 332 .
Chrysos, **Die Krönung Symeons**	E.Chrysos, " Die Krönung Symeons im Hebdomon", **Cyrillomethodianum**, 3 (1975),pp. 169 - 193 .
CMH	Cambridge Medieval History, vol. IV., 2nd revised edn. J.M.Hussey (Cambridge, 1966-1967).
Codex Justinianus	**Codex Justinianus**, ed. P. Krüger in : **Corp.Jur. Civil.** , vol. II (Berlin, 1963) .
Codex Theodosianus	**Codex Theodosianus : Theodosiani Libri XVI Cum Constitutionibus Sir-**

	mondianis, edd. T.Mommsen, P. Meyer et al. (Berlin, 1905) .
Collingwood, **Autobiography**	R.G. Collingwood, **An Autobiography** (London, 1939) .
Constantinides, **Nikolaos ho Mystikos**	J.Constantinides, **Nikolaos I. ho Mystikos (Ca. 852 - 925) Patriarches Konstantinopoleos (901 - 907 / 912 - 925) . Symbole eis ten ekklesiastiken kai Politiken historian tou a tetartou 10 . A.D. aionos** (Athens, 1967) .
Corbett,, **Roman Law Of Marriage**	P.Corbett, **The Roman Law of Marriage** (Oxford, 1930) .
Corp.Jur. Civil	**Corpus Juris Civilis**, edd. T.Mommsen, P. Krüger, R.Schöll, W.Kroll (Berlin, 1892- 1895). Reprint (Berlin, 1945 - 1963), 3 vols.
Cosmas Indicopleustes	**The Christian Topography of Cosmas, an Egyptian Monk**, trans. J.W. McCrindle (London, 1897) .
Costa, **Castrensis Sacri Palatii**	E.Costa, " The Office of the 'Castrensis Sacri Palatii' in the Fourth Century", **B**, 42 (1972), pp. 358 - 387 .
CSHB	Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn, 1828 - 1897) .
Da Costa - Louillet, **Saints**	G. Da Costa - Louillet, " Saints de Constantinople aux VIIIe, IXe et X siècles", **B**, 24 (1954), pp. 179 - 263 , 453 - 512; 25 - 27 (1955 - 1957), pp. 783 - 852 .

DAI	Constantine Porphyrogenitus, **De Administrando Imperio**, vol. I : **Greek Text** ed. G.Moravcsik, Eng. trans. by R.Jenkins (Budapest, 1949); vol. II: **Commentary**, ed. R. Jenkins and others (London, 1962) .
Dain, **Appellations**	A. Dain, " Appellations grécques du feu grégeois", **Mélanges offerts á Alfred Ernout** (Paris, 1940), pp. 121 - 127 .
DDC	Dictionnaire de Droit Canonique, ed. R. Naz. Paris, 1935 ff .
De **Caerim**	**Constantini Porphyrogeniti imperatoris De Cerimoniis aulae byzantinae** , ed. I. Reiske (**CSHB**, Bonn 1829-1830), 2 vols.
Delehaye, **Recueils Antiques**	H.Delehaye, " Les Recueils Antiques de Miracles des Saints ", **An Boll**, 43 (1925), pp. 57 - 64 .
De Thematibus	**Constantino Porfirogenito De Thematibus**, ed. with Commentary A. Pertusi (Citta' Del Vaticano, 1952) .
Diehl, **Byzantine Portraits**	C.Diehl, **Byzantine Portraits**, trans. by H. Bell (New York, 1927) .
Diehl, **Logothéte ton Sekreton**	C.Diehl, " Un haut fonctionnaire byzantin : le logothéte (ton sekreton)", in : **Mélanges N. Jorga** (Paris, 1933), pp. 217 - 227 .

Diehl, Sénat	C.Diehl, " Le sénat et le peuple byzantin aux VII et VIII siècles", **B**, 1 (1924), pp. 201 - 213 .
Dimitrakos, Mega Lexikon	D.Dimitrakos, **Mega Lexikon tes hellenikes glosses** (Athens, 1949 - 1950), 9 vols.
Dölger, Byzanz	F.Dölger, **Byzanz und die europäische Staatenwelt** (Ettal, 1953 / Darmstadt 1964) .
Dölger, Diplomatik	F.Dölger, **Byzantinische Diplomatik** (Ettal, 1956) .
Dölger, Einsiedlung	F.Dölger, **Ein Fall slavischer Einsiedlung im Hinterland von Thessalonike im 10 Jahrhundert** (München, 1952) .
Dölger, Finanzverwaltung	F. Dölger, **Beiträge zur Geschichte der byzantinischen Finanzverwaltung, besonders des 10. und 11. Jahrhunderts** (Leipzig, 1927). New ed. (Darmstadt, 1960). [= Byzantinisches Archiv 9] .
Dölger, Gedankenwelt	F. Dölger, " Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner", **ZKG**, 56 (1937), pp. 1-42 .
Dölger, Literature	F.Dölger, "Byzantine Literature", **CMH**, IV, pt. 2 (1967), pp. 207 - 263 .
Dölger, Paraspora	F.Dölger, **Paraspora. 30 Aufsätze zur Geschichte, Kultur und Sprache des Byzantinischen Reiches** (Ettal, 1961) .

Dölger, **Regesten (Kais)** — F.Dölger, **Regesten der kaiserurkunden des oströmischen Reiches von 565 - 1453** (München / Berlin, 1924 - 1965), 5 vols.

DOP — Dumbarton Oaks Papers. (Cambridge / Mass.) Washington, 1941 ff .

DTC — Dictionnaire de Théologie Catholique ed. A.Vacant, E.Mangeot, et al. (Paris, 1905 - 1950), 15 vols.

Dujcev, **Die Responsa** — I. Dujcev, "Die Responsa Nicolai I. Papae ad Consulta Bulgarorum als Quelle für die bulgarische Geschichte", **FHHS**, 1 (1949), pp. 349 - 362 .

Dujcev, **L'Etat Bulgare** — I.Dujcev, " La formation de l'etat bulgare et de la nation bulgare" in : **L'Europe aux IXe-Xe siècles. Aux origines des etats nationaux** (Varsavie, 1968), pp. 215 - 224 .

Dujcev, **Mont Athos** — I. Dujcev, " Le Mont Athos et les Slaves au moyen âge", **EM**, 2 (1964), pp. 121 - 144 .

Dujcev, **Moravia** — I.Dujcev, "L'activité de Constantine Philosophe- Cyrille en Moravia", **BSI**, 24 (1963), pp. 219 - 228 .

Dujcev, **Serbes** — I. Dujcev, "Une ambassade byzantine auprés des Serbes au IXe siècle", **ZRSAN**, 7 (1961), pp. 53 - 60 .

Dunlap, **Grand Chamberlain**	J. Dunlap, **The Office of the Grand Chamberlain in the Later Roman and Byzantine Empires,** in : Boak and Dunlap, **Two Studies in Later Roman and Byzantine Administration** (New York, 1924) .
Dvornik, **Byzance**	F.Dvornik, **Les Slaves, Byzance et Rome au IXe siècle** (Paris, 1926) .
Dvornik, **Constantinople and Rome**	F.Dvornik, " Constantinople and Rome", **CMH**, IV, pt.1 (1966), pp. 431 - 472 .
Dvornik, **Décapolite**	F.Dvornik, **La vie de saint Grégoire le Décapolite** (Paris, 1926).
Dvornik, **Légendes**	F.Dvornik, **Les légendes de Constantin et de Méthode vues de Byzance** (Prague, 1933) .
Dvornik, **Photian Schism**	F. Dvornik, **The Photian Schism : History and Legend** (Cambridge, 1948) .
Dvornik, **Photius**	F. Dvornik, " The Patriarch Photius in the Light of Recent Research", **Berichte zum XI. Internationalen Byzantinisten - Kongress** (München, 1958), vol. III/2, pp. 1-56 .
Dvornik, **Schisme**	F. Dvornik, **Le schisme de Photius, histoire et légende** (Paris, 1950) .
Dvornik, **Second Schisme**	F. Dvornik, " Le second schisme de Photius. Une mystification historique", **B**, 8 (1933), pp. 425 - 474 .

Dvornik, **The Slavs**	F. Dvornik, **The Slavs . Their Early History and Civilization** (Boston, 1956) .
ÉB	Études Balkaniques.
Ebersolt, **Sainte-Sophie**	J.Ebersolt, **Sainte - Sophie de Constantinople : étude de topographie d'aprés les Cérémonies** (Paris, 1910) .
Ebersolt, **Vestiarium**	J.Ebersolt, " Sur les fonctions et les dignités du vestiarium byzantin", **Mélanges Ch. Diehl** (Paris, 1930), I, pp. 81 - 89 .
Ecloga	**Ekloge ton Nomon : Ecloga Legum Leonis et Constantini**, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal, in : **Collectio Librorum Iuris Graeco - Romani** (Leipzig, 1852), pp. 1-52 . Reprinted in : **JGR (Zepos)**, II, pp. 1-62 .
EHR	English Historical Review . London, 1886 ff .
Eickhoff, **Seekrieg**	E. Eickhoff, **Seekrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland : Das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonie (650 - 1040 A.D.)** (Berlin, 1966) .
Ellis- Davidson, **Secret Weapon**	H.Ellis - Davidson, " The Secret Weapon of Byzantium", **BZ**, 66 (1973), pp. 61 - 74 .
ÉM	Études et Mélanges . Venezia - Chevetogne.

Ensslin, Gottesgnadentum — W.Ensslin, " Das Gottesgnadentum des autokratischen Kaisertums der frühbyzantinischen Zeit", **SBN**, 5 (1939), pp. 154 - 166 .

Ensslin, Government — W.Ensslin, " The Government and Administration of the Byzantine Empire", **CMH**, IV, pt. 2 (1967), pp. 1-54 .

Ensslin, Praefectus Praetorio — W.Ensslin, " Praefectus Praetorio", **PW**, XXII, cols. 2391 - 2502 .

EO — Échos d'Orient, 1 - 39. Paris (Constantinople / Bucarest), 1897 - 1942 .

Epanagoge — **He Epanagoge**, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal in : **Collectio Librorum Iuris Graeco - Romani Ineditorum. Ecloga Leonis et Constantini. Epanagoge Basilii, Leonis et Alexandri** (Leipzig, 1852), pp. 53 - 217 . Reprinted in : **JGR** (Zepos), II, pp. 229 - 368 .

Eparchikon Biblion (Nicole) — **Leontos Tou Sophou To Eparchikon Biblion : Le livre du préfet, ou l'edit de l'empereur Leon le Sage sur les corporations de Constantinople**, texte grec du Genevensis 23, ed. J.Nicole (Geneva, 1893).

Ephraemius — Ephraemii Monachi, **Imperatorum et Patriarcharum**, ed. I. Bekker (CSHB, Bonn 1840) .

ERE	Encyclopaedia of Religion and Ethics, ed. J. Hastings, et al .
Every, **Byzantine Patriarchate**	G.Every, **The Byzantine Patriarchate 451 - 1204 A.D.** (London, 1962) .
Ferluga, **Dyrrachium**	J.Ferluga, " Sur la date de la création du thème Dyrrachium", **Actes du XIIe Congrès International des Études Byzantines**, II (Beograd, 1964), pp. 83 - 92 .
FHHS	Festschrift des Haus - , Hof - und Staats-archivs. Wien, 1949 ff.
Fischer, **De Patriarcharum**	F.Fischer, " De Patriarcharum Constantinoplitanorum Catalogis", **Commentationes Philologae Ienenses**, 3 (1884), pp. 263-333 .
Forbes, **Petroleum History**	R.Forbes, **More Studies in Early Petroleum History** (Leyden, 1959).
Fulton, **Laws of Marriage**	J.Fulton, **The Laws of Marriage** (London, 1883) .
Gay, **Italie Méridionale**	J.Gay, **L'Italie méridionale et l'empire byzantin depuis l'avènement de Basile I.er jusqu'a la prise de Bari par les Normands** (867 - 1071 A.D.) (Paris, 1909), 2 vols.
Gay, **Nicolas le Mystique**	J.Gay, " Le Patriarche Nicolas le Mystique et son rôle politique", **Mélanges Ch. Diehl** (Paris, 1930), I, pp. 91 - 100 .
Georg. Mon. Cont.	**Georgius Monachus Continuatus, Vita recentiorum imperatorum**, ed. I. Bek-

	ker, in : **Theoph. Cont.** (**CSHB**, Bonn 1838), pp. 761 - 924 .
Georgacas, **Slavic Groups**	D.J. Georgacas, " The Medieval Names Melingi and Ezeritae of Slavic Groups in the Peloponnesus", **BZ**, 43 (1950), pp. 301 - 333 .
Gibbon, **Decline and Fall**	E.Gibbon, **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire**, ed. with introduction, notes and appendices by J.B.Bury (London, 1923), 7 vols.
Girard, **Droit Romain**	P. Girard, **Manuel élémentaire de droit romain** (Paris, 1924).
Goar, **Euchologion**	J. Goar, **Euchologion Sive Rituale Graecorum** (Graz, 1960) .
Godefroy, Le Bras and Jugie, **Mariage**	L. Godefroy, G. Le Bras and M. Jugie, " Mariage", **DTC**, 9, pt. II (1927), cols. 2044 - 2335 .
GOTR	Greek Orthodox Theological Review. Brookline / Mass., 1954ff.
Grégoire, **Âge Héroique**	H. Grégoire, " L'âge héroique de Byzance", **Mélanges offerts à N. Jorga** (Paris, 1933), pp. 383 - 397 .
Grégoire, **Justinien II**	H. Grégoire, " Un édit de l'empereur Justinien II date de Septembre 688", **B**,17 (1944 - 1945), pp. 119 -124 .
Grégoire, **Macedonians**	H.Grégoire, " The Amorians and the Macedonians 842 - 1025", **CMH**, IV, pt. 1 (1966), pp. 105 - 192 .

Grégoire, **Neuviéme Siècle**	H.Grégoire, " Études sur le meuviéme siècle", **B**, 8 (1933), pp. 515 - 550 .
Grégoire, **Origine**	H. Grégoire, " L'origine et le nom des Croates et des Serbes", **B**, 17 (1944 - 1945), pp. 88 - 118 .
Gregoras	Nikephoros Gregoras, **Bizantina Historia**, ed L.Schopen, I. Bekker (**CSHB**, Bonn 1830 - 1845), 3 vols.
Grierson and Jenkins, **Coronation**	P. Grierson and R. Jenkins, " The Date of Constantine VII's Coronation", **B**, 32 (1962), pp. 133 - 138 .
Grumel, **Annexion de l'Illyricum**	V. Grumel, " L'annexion de l'Illyricum oriental, de la Sicile et de la Calabre au Patriarcat de Constantinople", **Recherches de sciences religieuses, XL. Mélanges Jules Lebreton** (1952), II, pp. 191 - 200 .
Grumel, **La Chronologie**	V. Grumel, **La chronologie** (Paris, 1958). [= **Traité d'études byzantines**, ed. P.Lemerle, I.] .
Grumel, **Les Regestes**	V.Grumel, **Les regestes des actes du patriarcat de Constantinople, vol. I : Les actes des patriarches, fasc. I : 381 - 715; II : 715 - 1043; III : 1043 - 1206** (Socii Assumptionistae Chalcedonenses, 1932, 1963, 1947) .
Grumel, **Notes**	V. Grumel, " Notes de chronologie byzantine", **EO**, 35 (1936), pp. 331 - 335 .

Grumel, **Régne de Léon VI**	V. Grumel, " La chronologie des événements du régne de Léon VI (886 - 912)", **EO**, 35 (1936), pp. 5-42 .
Guilland, **Collation**	R. Guilland, " La collation et la perte ou la déchéance des titres nobiliaires à Byzance", **REB**, 4 (1946), pp. 24 - 69 .
Guilland, **Haute Époque**	R.Guilland, " La noblesse byzantine à la haute époque (IVe-Ve siècles), observations diverses", in : **Prosphora Eis Stilpona P. Kuriakiden** (Thessalonike, 1953), pp. 255 - 266 .
Guilland, **Les Noces**	R.Guilland, " Les noces plurales à Byzance", **BSl**, 19 (1947 - 1948), pp. 9 - 30.
Guilland, **Logothétes**	R.Guilland, " Les logothétes : études d'histoire administrative de l'empire byzantin", **REB**, 29 (1971), pp. 5 - 115 .
Guilland, **Questeur**	R.Guilland, " Études sur l'histoire administrative de l'empire byzantin. Le Questeur", **B**, 41 (1971), pp. 78 - 104 .
Guilland, **Recherches**	R. Guilland, **Recherches sur les institutions byzantines** (Berlin / Amsterdam, 1967), 2 vols.
Guilland, **Titres**	R. Guilland, **Titres et fonctions de l'empire byzantin** (Variorum, London 1976) .
Guilland, **Titres Nobiliaires**	R.Guilland, " La transmission héréditaire des titres nobiliaires à Byzance", **Palaeologia**, 8/2 (1959), pp. 137 - 143 .

Hajjar, **Synode Permanent** — J. Hajjar, **Le synode permanent** (**Synodos Endemoysa) dans l'église byzantine des origines au XIe siècle** (Rome, 1962) . [= OCA, 164] .

Haldon, **Praetorians** — J. Haldon, **Byzantine Praetorians. An Administrative, Institutional and Social Survey of the Opsikion and Tagmata C. 580 - 900** (Bonn, 1984). [= Poikila Byzantina 3] .

Haldon & Byrne , **Possible Solution** — J. Haldon and M. Byrne, " A possible Solution to the Problem of Greek Fire", **BZ**, 68 (1975), pp. 91 - 99 .

Halkin, **Bibliotheca** — **Bibliotheca hagiographica graeca (Subsidia hagiographica**, 8a), 3rd ed F. Halkin (Bruxelles, 1957), 3 vols .

Halkin, **Trois Dates** — F. Halkin, " Trois dates historiques précisées grâce au synaxaire", **B**, 24 (1954), pp. 7 - 17 .

Haskins, **Greek Element** — C.H.Haskins, " The Greek Element in the Renaissance of the Twelfth Century", **AHR**, 25 (1919), pp. 603 - 615 .

Haskins, **Renaissance** — C.H. Haskins, **The Renaissance of the Twelfth Century** (Cambridge, 1927) .

Hauptmann, **Les Slaves et les Avares** — L. Hauptmann, " Les rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avares pendant la seconde moitié du VIe siècle", **B**, 4 (1927 - 1928), pp. 137 - 170 .

Haussig, **Civilization**	H. Haussig, **A History of Byzantine Civilization** , Eng . trans . J. Hussey (London, 1971) .
Hegel, **Vorlesungen**	G. Hegel, **Vorlesungen über die Philosophie der Geschichte**, Eng. trans. J. Sibree (London, 1890).
Hergenröther, **Photius**	J. Hergenröther, **Photius Patriarch von Konstantinopel: sein Leben, seine Schriften und das griechische Schisma** (Regnsburg, 1867 - 1869) , 3 vols .
Herman, **Digamon**	E. Herman, " Eyche epi Digamon", **OCP**, 1 (1935), pp. 467 - 489 .
Herman, **Secular Church**	E. Herman, " The Secular Church", **CMH**, IV, pt. 2 (1967), pp. 104 - 133 .
Hime, **Artillery**	H. Hime, **The Origin of Artillery** (London, 1915) .
Hime, **Gunpowder**	H. Hime, **Gunpowder and Ammunition** (London, 1904) .
Hohlweg, **Beiträge**	A. Hohlweg, **Beiträge zur Verwaltungs- geschichte des oströmischen Reiches unter den Komnenen** (München, 1965). [=Miscellanea Byzantina Monacensia 1] .
Hohlweg, **Pronoia in Byzanz**	A. Hohlweg, " Zur Frage der Pronoia in Byzanz", **BZ**, 60 (1967), pp. 288 - 308 .
Hunger (ed.), **Herrscherbild**	H. Hunger (ed.), **Das byzantinische Herrscherbild** (Darmstadt, 1975) .

Hussey, **Byzantine Monasticism**	J. Hussey, " Byzantine Monasticism", **CMH**, IV, pt.2 (1967), pp. 161 - 184 .
Hussey, **World**	J.Hussey, **The Byzantine World** (London, 1961) .
Hutton, **Constantinople**	W.H.Hutton, **Constantinople. The Story of the Old Capital of the Empire** (Kraus Reprint, Nendeln - Liechtenstein 1971) .
Iuris Ecclesiastici	**Iuris ecclesiastici Graecorum historia et monumenta**, ed. I. Pitra (Rome, 1864 - 1868), 2 vols .
Ivànka, **Rhomäerreich**	E. von Ivànka, **Rhomäerreich und Gottesvolk** (Freiburg - München, 1968).
Izv. RAIK	Izvestija Russkago Archaeol. Instituta V Konstantinopolje (Sofia, 1896 - 1912) .
Jaffé, **Regesta**	P. Jaffé, **Regesta Pontificum Romanorum ab condita ecclesia ad annum post Christum natum 1198** (Berlin, 1851); 2nd ed. W. Wattenbach and others (Leipzig, 1885 - 1888), 2 vols .
Janin, **Constantinople**	R. Janin, **Constantinople byzantine : développement urbain et répertoire topographique** (Paris, 1950) .
Janin, **Hiéria**	R. Janin, " La banlieue asiatique de Constantinople: Hiéria (Féner - Bagtché)", **EO**, 22 (1923), pp. 50 - 58 .
Janin, **Samonas**	R. Janin, " Un Arabe ministre à Byzance: Samonas (IXe - Xe siècle)", **EO**, 34 (1935), pp. 307 - 318 .

Jenkins, **Chronological Accuracy**	R. Jenkins, " The Chronological Accuracy of the 'Logothete' for the years A.D. 867 - 913", **DOP**, 19 (1965), pp. 91 - 112.
Jenkins, **Consolatio**	R. Jenkins, " A **Consolatio** of the Patriarch Nicholas Mysticus", **B**, 35 (1965), pp. 159 - 166.
Jenkins, **Flight of Samonas**	R. Jenkins, " The Flight of Samonas", **Speculum**, 23/2 (1948), pp. 217 - 235.
Jenkins, **Hellenistic Origins**	R. Jenkins, " The Hellenistic Origins of Byzantine Literature", **DOP**, 17 (1963), pp. 37 - 52.
Jenkins, **Imperial Centuries**	R. Jenkins, **Byzantium : The Imperial Centuries A.D.610 - 1071** (London, 1966).
Jenkins, **Leo Choerosphactes**	R. Jenkins, " Leo Choerosphactes the Saracen Vizier ", **RTIEB**, 8 (1963), pp. 167 - 175.
Jenkins, **Letter to the Emir**	R. Jenkins, " A Note on the Letter to the Emir of Nicholas Mysticus", **DOP**, 17 (1963), pp. 399 - 401.
Jenkins, **Nicholas Mysticus**	R. Jenkins, " A Note on the Patriarch Nicholas Mysticus, **AAASH**, 11 (1963), pp. 145 - 147.
Jenkins, **Tetragamy**	R. Jenkins, " Three Documents Concerning the Tetragamy", **DOP**, 16 (1962), pp. 229 - 241.

Jenkins and Laourdas, **Letters of Arethas**	R. Jenkins and B. Laourdas, " Eight Letters of Arethas on the Fourth Marriage of Leo the Wise", **Hellenika**, 14 (1956), pp. 293 - 372.
Jenkins,Laourdas, Mango, **Nine Orations**	R.Jenkins, B.Laourdas and C.Mango, "Nine Orations of Arethas from Cod. Marc. Gr. 524 ", **BZ**, 47 (1954), pp. 1-40.
JGR (Lingenthal)	**Jus Graeco-Romanum**, ed. C.E. Zachariae von Lingenthal, Part III : Novellae Constitutiones (Leipzig, 1857), pp. 220 - 318.
JGR (Zepos)	**Jus Graeco - Romanum**, edd. I. and P. Zepos (Athens, 1931), 8 vols.
JÖB	Jahrbuch der österreichischen Byzantinistik, 18. Wien (Köln / Graz), 1969 ff.
John of Ephesus (Smith)	**The Third Part of the Ecclesiastical History of John of Ephesus**, ed. and trans. R. Payne - Smith (Oxford, 1860).
Jones, **LRE**	A.H.M.Jones, **The Later Roman Empire: A social, economic and administrative survey** (Oxford, 1964), 3 vols. Reprinted 1973, in 2 vols.
Joyce, **Christian Marriage**	G. Joyce, **Christian Marriage : A Historical and Doctrinal Study**, 2nd ed. (London, 1948).
JTS	Journal of Theological Studies. London, 1900ff.

Jugie, Notes — M. Jugie, " Notes de litérature byzantine", EO, 26 (1927), pp. 408 - 425.

Jugie, Vie d'Euthyme — M. Jugie, " La vie et les oeuvres d'Euthyme Patriarche de Constantinople", EO, 16 (1913), pp. 385 - 395.

Just., Nov. — Iustiniani Novellae, ed. R. Schöll in : Corp. Jur . Civil., vol. III (Berlin, 1963).

Kaegi, Two Studies — W.E.Kaegi, " Two Studies in the Continuity of Late Roman and Byzantine Military Institutions", BF, 8 (1982), pp. 87-113.

Karayannopulos, Finanzwesen — J. Karayannopulos, Das Finanzwesen des frühbyzantinischen Staates (München, 1958).

Karayannopulos, Peloponnes — J. Karayannopulos, " Zur Frage der Slavenansiedlungen auf dem Peloponnes", RESEE, 9 / 1 (1971), pp. 443 - 460.

Karlin - Hayter, Alexander's Bad Name — P. Karlin - Hayter, " The Emperor Alexander's Bad Name", Speculum, 44 (1969), pp. 585 - 596.

Karlin - Hayter, Andronicus Ducas — P. Karlin - Hayter, " The Revolt of Andronicus Ducas", BSl, 27 (1966), pp. 23 - 25.

Karlin - Hayter, Arethas Documents III. — P. Karlin - Hayter, " New Arethas Documents III " , B, 32 (1962), pp.117 - 127.

Karlin - Hayter, Arethas Documents IV. — P. Karlin - Hayter, " New Arethas Documents IV", B, 32 (1962), pp. 387 - 487.

Karlin - Hayter, **Arethas Documents V.**	P. Karlin - Hayter, " New Arethas Documents V", **B**, 34 (1964), pp. 49 - 67 .
Karlin - Hayter, **Basileopator**	P. Karlin - Hayter, " The Title or office of Basileopator", **B**, 38 (1968), pp. 278 - 280 .
Karlin - Hayter, **Mort de Theophano**	P. Karlin - Hayter, " La mort de Théophano (10 .11.896 ou 895)", **BZ**, 62 (1969), pp. 13 - 19 .
Karlin - Hayter, **New Arethas Texts**	P. Karlin - Hayter, " New Arethas Texts for the Historical Study of the Vita Euthymii", **B**, 31 (1961), pp. 273 - 307 .
Karlin - Hayter, **Parakoimomène Constantin**	P. Karlin - Hayter, " Le Parakoimomène Constantin l'Eunuque était Euthymien", **B**, 33 (1963), pp. 251 - 252 .
Karlin - Hayter, **Préhistoire**	P. Karlin - Hayter, " La prehistoire de la dernière volonté de Léon VI", **B**, 33 (1963), pp. 483 - 486 .
Karlin - Hayter, **Synode**	P. Karlin - Hayter, " Le Synode à Constantinople de 886 à 912 et le rôle de Nicolas le Mystique dans l'affaire de la tetragamie", **JÖB**, 19 (1970), pp. 59 - 101 .
Karlin - Hayter, **Texts**	P. Karlin - Hayter, " Texts for the Historical Study of the Vita Euthymii", **B**, 28 (1958), pp. 363 - 389 .
Karlin - Hayter, **Vita S.Euthymii**	P. Karlin - Hayter, " Vita S.Euthymii", **B**, 25 - 27 (1955 - 1957), pp. 1 - 172 , 747 - 778 .

Kedrenos	G. Cedrenus, **Compendium Historiarum**, ed. I. Bekker (CSHB, Bonn 1838 - 1839), 2 vols.
Kolias, **Leon Choerosphactès**	G. Kolias, **Léon Choerosphactès magistre, proconsul et patrice : Biographie - Correspondance (texte et traduction)** (Athens, 1939). [= Texte und Forschungen zur Byzantinisch - Neugriechischen Philologie Nr. 31] .
Kougeas, **Kaisareias Arethas**	S. Kougeas, **ho Kaisareias Arethas kai to Ergon autou : Symbole eis ten historian tes protes anagenneseos ton ellenikon grammaton en Byzantio** (Athens, 1913).
Krause, **Die Byzantiner**	J.H. Krause, **Die Byzantiner des Mittelalters in ihren Staats -, Hof - und Privatleden inbesondere vom Ende des zehnten bis gegen Endes des vierzehnten Jahrhunderts den byzantinischen Quellen** (Halle, 1869). Reprinted (Leipzig, 1974).
Lambros and Kougeas, **Epistole Niketa**	S. Lambros and S. Kougeas, " Anonymos Epistole Niketa tou Paphlagonos pros Arethan ton Kaisareias", **Neos Hellenomnemon**, 8 (1911), pp. 301 - 314 .
Laurent, **Saint-Demetrius**	V. Laurent, " Sur la date des églises Saint- Demetrius et Saint - Sophie à Thessalonique", **BZ**, 4 (1895), pp. 420 - 434 .

Lebeau, **Bas-Empire**	Ch. Lebeau, **Histoire du bas - empire en commencant a Constantin le Grand** (Paris, 1757 - 1786), 27 vols.
Lechner, **Hellenen**	K. Lechner, **Hellenen und Barbaren** (Ph.D. Dissertation, München 1954).
Lemerle, **Anciens Recueils**	P. Lemerle, **Les plus anciens recueils des miracles de Saint Démétrius et la pénétration des Slaves dans les Balkans** (Paris, 1979 - 1981), 2 vols .
Lemerle, **Chron. Monemvasie**	P. Lemerle, " Le chronique impropement dite de Monemvasie : le contexte historique et légendaire", **REB**, 21 (1963), pp. 5-49 ..
Lemerle, **Humanism**	P.Lemerle, **Byzantine Humanism**, Eng. trans. H. Lindsay and A. Moffat (Canberra, 1986) . [= Byzantine Australinesia 3] .
Lemerle, **Invasions**	P. Lemerle, " Invasions et migrations dans les Balkans depuis la fin de l'époque romaine jusqu'au VIII siècle", **RH**, 211 (1954), pp. 265 - 308 .
Lemerle, **La Composition**	P. Lemerle, " La composition et la chronologie des deux premiers livres des Miracula S. Demetrii", **BZ**, 46 (1953), pp. 349 - 361 .
Lemerle, **Macédoine**	P. Lemerle, **Philippes et la Macédoine orientale à l'époque chrétienne et byzantine. Recherches d'histoire et**

d'archéologie (Paris, 1945). [= Bibl. des Écoles françaises d'Athénes et de Rome 158].

Lemerle, Terre Militaire — P. Lemerle, " Recherches sur le régime agraire à Byzance : la terre militaire à l'époque des Comnènes", Cahiers de Civilisation Médiévale, 2 (1959), pp. 265 - 281.

Leo VI, Taktika — Leonis Imperatoris Tactica, ed. J.P.Migne in : PG, 107 (Paris, 1863), Cols. 669 - 1120.

Leo Diaconus — Leonis Diaconi Caloensis Historiae Libri Decem et Liber de Velitatione Bellica Nicephori Augusti, ed. C.B.Hase (CSHB, Bonn, 1828), pp. 3 - 178.

Leo Gramm. — Leonis Grammatici Chronographia, ed. I. Bekker (CSHB, Bonn, 1842).

Liutprand, Antapodosis — Liutprand (Liudprand) Bishop of Cremona, Antapodosis, ed. J.P.Migne, in : PL, 136 (Paris, 1864), cols. 828 - 851.

Liutprand, De Legatione — Liutprand (Liudprand) Bishop of Cremona, Relatio De Legatione Constantinopolitana, in : Opera, ed. J.Becker (Die Werke Liudprands von Cremona) (Hanover and Leipzig, 1915), pp. 175 - 212.

Loenertz, **Chancelier** — R.-J.Loenertz, " Le chancelier impérial à Byzance au XIIIe et XIVe siècles", **OCP**, 26 (1960), pp. 275 - 300 .

Loud, **Coronation of Symeon** — G.Loud, " A re-examination of the Coronation of Symeon of Bulgaria in 913", **JTS**, 29 (1978), pp. 109 - 120 .

Lydus — **Ioannes Lydus on Power or The Magistracies of the Roman State**, ed. and trans. A.C.Bandy (Philadelphia, 1983) .

Maas, **Der Interpolator** — P. Mass, "Der Interpolator des Philotheos", **BZ**, 34 (1934), pp. 257 - 261 .

Mango, **Homilies of Photius** — **The Homilies of Photius Patriarch of Constantinople**, Eng. trans., introduction and commentary by C. Mango (Cambridge / Mass., 1958). [Dumbarton Oaks Studies, III] .

Mango, **New Rome** — C. Mango, **Byzantium : The Empire of New Rome** (London, 1980) .

Maurice, **Strategikon** — **Mauricius Arta Militara**, ed. H. Mihaescu (Bucuresti, 1970) .

Mavrogordato, **Digenes Akrites** — J.Mavrogordato, **Digenes Akrites** (Oxford, 1956).

Meyendorff, **Marriage** — J. Meyendorff, **Marriage : An Orthodox Perspective** (New York, 1970) .

Meyendorff, **Paschal Mystery** — J. Meyendorff, " Marriage - A Paschal Mystery " , **Concern**, IV/2 (1964), pp. 11-14 .

Michel le Syrien	**Chronique de Michel le Syrien**, ed. J.B. Chabot (Paris, 1899 - 1905) , 3 vols .
Milas, **Das Kirchenrecht**	N. Milas, **Das Kirchenrecht der morgenländischen Kirche**, 2nd ed. (Mostar, 1905).Greek trans. by M.Apostolopoulos (Athens, 1906) .
Miller, **Logothete of the Drome**	D.A. Milller, " The Logothete of the Drome in the Middle Byzantine Period", **B**, 36 (1966), pp. 438 - 470 .
Miracula Sancti Demetri (AS)	**Miracula Sancti Demetri,** in : AS, Oct. 8 , vol. IV, Cols. 104 - 194 .
Miracula Sancti Demetri (PG)	**Miracula Sancti Demetri,** ed. J.P. Migne in : **PG**, 116 , cols. 1174 - 1384 .
Monemvasias Chronikon	**To Peri tes Ktiseos Monemvasias Chronikon**, ed. A . Bees (Athens, 1909) , 37 - 105 . [= Byzantis, I, 1909] .
Montesquieu, **Considérations**	C. Montesquieu, **Considération sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence**, Eng.trans. J.Baker (New York, 1882) .
Moravcsik, **Barbarisch Sprachreste**	G. Moravcsik, " Barbarische Sprachreste in der Theogonie des Johannes Tzetzes", **BNJ**, 7 (1928 - 1929), pp. 352 - 365.
Moravcsik, **Byzantinoturcica**	G. Moravcsik, **Byzantinoturcica**, (Berlin, 1958), 2 vols .
Morris, **Tenth-Century Byzantium**	R.Morris, " The Powerful and the Poor in Tenth - Century Byzantium : Law and Reality" , **PP**, 73 (1976), pp. 3-27.

Naz, Mariage en Droit Occidental	R.Naz, " Mariage en droit occidental", **DDC**, VI (1957), cols. 740 - 787 .
Nicephorus	**Nicephori Archiepiscopi Constantinopolitani Opuscula Historica,** ed C.De Boor (Leipzig, 1880) .
Niceph., Praecepta	**Nicephori Praecepta Militaria e Codice Mosquensi,** ed . J.Kulakovskij, in : **Zapiski Imperatorskoj Akademii Nauk,** VIII ser., vol. 8, No.9 (St. Petersbourg, 1908).
Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters	**Nicholas I Patriarch of Constantinople Letters,** ed . and trans. R. Jenkins & L. Westerink (**CFHB** 6, Dumbarton Oaks, Washington 1973) .
Nomocanon	**Nomocanon XIV Titulorum,** in : Syntagma (**RP**), vol. I, pp. 1-335
Novellae Leonis	**Les novelles de Léon VI le sage,** ed. et trad. A. Dain, P. Noailles (Paris, 1944) .
Obolensky, **Byzantine-Slav Relations**	D. Obolensky, "The Cult of St. Demetrius of Thessaloniki in the History of Byzantine-Slav Relations", **BS**, 15 (1974), pp. 3-20.
Obolensky, **Commonwealth**	D. Obolensky, **The Byzantine Commonwealth. Eastern Europe**: 500-1453 A.D. (London, 1971).
OCA	Orientalia Christiana Analecta. Rome, 1923 ff .

OCP	Orientalia Christiana Periodica. Rome, 1935 ff.
Ohnsorge, **Abendland und Byzanz**	W. Ohnsorge, **Abendland und Byzanz** (Darmstadt, 1963).
Ohnsorge, **Töchter Kaiser Leons VI**	W. Ohnsorge, " Zur Frage der Töchter Kaiser Leons VI", **BZ**, 51 (1958), pp. 78 - 81 .
Oikonomidès, **Cephalonie**	N.Oikonomidès, " Constantin VII Porphyrogenénéte et les thèmes de Céphalonie et de Longobardie", **REB**, 23 (1965), pp. 118 - 123 .
Oikonomidès, **Dernière Volonté**	N.Oikonomidès, " La dernière volonté de Léon VI au sujet de la tétragamie", **BZ**, 56 (1963), pp. 46 - 52 .
Oikonomidès, **Préhistoire de la dernière Volonté**	N.Oikonomidés, " La Préhistoire de la dernière volonté de Léon VI au sujet de la tétragamie", **BZ**, 56 (1963), pp. 265 - 270 .
Oikonomidès, **Préséance**	N. Oikonomidès, **Les listes de préséance byzantines des IXe. et Xe siècles** (Paris, 1972).
Ostrogorsky, **Féodalité Byzantine**	G. Ostrogorsky, **Pour l'histoire de la féodalité byzantine,** trans. H. Grégoire (Brussels 1954) .
Ostrogorsky, **Immunité á Byzance**	G. Ostrogorsky, "Pour l'histoire de l'immunité á Byzance", **B**, 28 (1958), pp. 165 - 254.

Ostrogorsky, **Pronoia Unter den Komnenen** — G. Ostrogorsky, "Die Pronoia unter den Komnenen", **ZRVI**, 12 (1970), pp. 41-57.

Ostrogorsky, **Staatenhierarchie** — G. Ostrogorsky, "Die byzantinische Staatenhierarchie", **SK**, 8 (1936), pp. 41-61.

Ostrogorsky, **State** — G. Ostrogorsky, **History of the Byzantine State**, Eng. trans. J.M.Hussey (Oxford, 1968).

Ostrogorsky, **World Order** — G. Ostrogorsky, "The Byzantine Emperor and the Hierachical World Order ", **SEER**, 35 (1956 - 1957), pp. 1-14.

Panofsky, **Renaissance** — E. Panofsky, **Renaissance and Renascences in Western Art**, (Stokholm, 1960).

Partington, **Greek Fire** — J. Partington, **A History of Greek Fire and Gunpowder** (Cambridge, 1960).

Patria — **Patria tes Konstantinoupoleos**, in : Scriptores Originum Constantino Politanarum, ed. T.Preger (Leipzig, 1901-1907) 2 vols.

Patrinacos, **Character of Marriage** — N. Patrinacos, " The Sacramental Character of Marriage : A Study of the Practice of the Greek Orthodox Church on the Basis of St. Paul's Theology of Marriage", **GOTR**, I/2 (1955), pp. 118 - 132.

PB — Poikila Byzantina. Berlin, 1981 ff .

Peri Naumachias — **Peri Naumachias** , ed. J.P.Migne in : Leo VI, **Taktika**, cols. 989 - 1013 .

Petit, **Homélies de Léon le Sage**	L. Petit, " Note sur les homélies de Léon le sage " , **EO**, 3 (1900), pp. 245 - 249 .
PG	Patrologiae Cursus Completus, series Graeco-Latine, ed . J.P.Migne (Paris, 1857 - 1866 ; 1880 - 1903), 161 vols .
Philotheos, **Kleterologion**	Philotheos, **Kleterologion**, ed. I. Reiske, in : **De Caerim**, I, pp. 702 - 798 .
Photius, **Epistola**	" Photii Sanctissimi Patriarchae Constantinopolitani Epistola ad Michaelem Bulgariae Principem; de officio Principis", ed. J. P. Migne, in : **PG**, 102 , cols. 627 - 696 .
Picot, **Mariage Romain**	J.Picot, **Du mariage romain , chrétien et français** (Paris, 1849) .
PL	Patrologiae Cursus Completus, series Latina, ed. J.P. Migne (Paris, 1844 - 1855 ; 1862 - 1864), 221 vols .
Polemis, **The Doukai**	D.Polemis, **The Doukai : A Contribution to Byzantine Prosopography** (London, 1968) .
Popov, **Imperator Leo VI**	N.Popov, **Imperator Leo VI i ego pravlenie V Cherkovnom otnoshenii** (Moscow, 1892) .
Pospishil, **Divorce and Remarriage**	V.Pospishil, **Divorce and Remarriage : Towards a New Catholic Teaching** (New York, 1967) .
PP	Past and Present. London, 1952 ff.

Previté - Orton , **Charles Constantine**	C.Previté-Orton, " Charles Constantine of Vienne", **EHR**, 29 (1914), pp. 703 - 706 .
Primary Chronicle	**The Russian Primary Chronicle** , Laurentian Text, ed. and trans. S.H.Cross and O.P. Sherbowitz-Wetzor (Cambridge/ Mass., 1953) .
Prochiron	**Ho Procheiros Nomos- Imperatorum Basilii, Constantini et Leonis Prochiron**, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal (Heidelberg, 1837). Reprinted in : **JGR (Zepos)**, II, pp. 108 - 228 .
Procopius, **Bello Gothico**	**Procopii Caesariensis De Bello Gothico (De Bellis Libri V - VIII)**, in : **Procopii Caesariensis Opera Omnia II**, ed. J.Haury (Leipzig, 1905). New edition by G.Wirth (Leipzig, 1963) .
Ps. Codinus	Pseudo-Kodinos, **Traité des Offices**, ed et trad. J.Verpeaux (Paris, 1966) .
Psellos, **Chronographie**	M.Psellos,**Chronographie**,ed.F.Renauld (Paris, 1926 - 1928), 2 vols.
PW	Paulys Real-Encyclopädie der classischen Altertumswissenchaft ed. G. Wissowa, 1893 ff.
Ramsay, **Historical Geography**	W.Ramsay, **The Historical Geography of Asia Minor** (London, 1890). Reprinted (Amsterdam, 1962) .

REB	Revue des Études Byzantines. (Bucharest) and Paris, 1946 ff.
RESEE	Revue des Études Sud-Est Européennes.
RH	Revue Historique. Paris, 1876 ff .
Ritzer, **Le Mariage**	K.Ritzer, **Le mariage dans les églises chrétiennes du Ler au XIe siécles** (Paris, 1970) .
Rivers, **Marriage**	W.Rivers, et al., " Marriage", **ERE**, 8 (1951), pp. 423 - 472 .
RTIEB	Recueil de Travaux de l'Institut d'Études Byzantines (Mélanges G. Ostrogorsky I). Belgrade 1955 ff .
Runciman, **Romanus Lecapenus**	S.Runciman, **The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign : A Study of Tenth - Century Byzantium** (Cambridge, 1963)
Salaville, **Léon VI Le Sage**	S.Salaville, " Léon VI le sage", **DTC**, IX/1 (1926), cols. 365 - 394 .
SBN	Studi Bizantini e Neoellenici. Rome, 1924 ff .
Schreiner, **Byzanz**	P.Schreiner, **Byzanz** (München, 1986) .
Scylitzes	**Ioannis Scylitzae Synopsis Historiarum**, ed. I. Thurn (**CFHB** 5 , Berlin / New York 1973) .
Seeck, **Comites**	O.Seeck, " Comites", **PW**, IV, cols. 626 - 632 .
Seeck, **Untergang**	O.Seeck, **Geshichte des Untergangs der antiken Welt** (Stuttgart, 1920 - 1923), 6 vols .

SEER	Slavonic and East European Review. London, 1922ff.
Seibt, Die Skleroi	W.Seibt, **Die Skleroi. Eine Prosopographisch - Sigillographische Studie** (Wien, 1976).
Serruys, **Homélies de Léon le Sage**	D. Serruys, " Les homélies de Léon le sage" **BZ**, 12 (1903), pp. 167 - 170 .
Sevcenko, **Decline of Byzantium**	I.Sevcenko, " The Decline of Byzantium seen through the Eyes of its Intellectuals", **DOP**. 15 (1961), pp. 169 - 186 .
Sevcenko, **Poems**	I.Sevcenko, " Poems on the Deaths of Leo VI and Constantine VII in the Madrid Manuscript of Scylitzes", **DOP**, 23 - 24 (1969 - 1970), pp. 185 - 228 .
SK	Seminarium Kondakovianum. Prague (I - VIII) , 1929 - 1936 . Continued as Annales de l'Institut Kondakov. Belgrade, 1937 - 1940 .
Sophocles, **Greek Lexicon**	E.A. Sophocles, **Greek Lexicon of the Roman and Byzantine Periods**, new ed. (Cambridge / Mass., 1914) .
Speck, **Das Geteilte Dossier**	P.Speck, Das geteilte Dossier : Beobachtungen zu den Nachrichten über die Regierung des Kaisers Herakleios und die seiner Söhne (PB9, Bonn 1988) .
Sphrantzes	**Georgi Sphrantzae Chronicon Minus**, ed. together with the **Chronicon Maius**

	of Pseudo - Phrantzes by V. Grecu : **Georgios Sphrantzes Memorii 1401 - 1477** (Bucharest, 1966) .
Stein, **Bas - Empire**	E.Stein, **Histoire du bas - empire**, vol. I/ 1-2: **De l'état romain à l'état byzantin (284 - 476)**; vol. II : **De la disparition de l'empire d'occident à la mort de Justinien (476 - 565)** (Paris, 1949 - 1959) .
Stein, **Studien**	E. Stein, **Studien zur Geschichte des byzantinischen Reiches vornehmlich unter den Kaisern Justinus II und Tiberius Konstantinus** (Stuttgart, 1919).
Stein, **Untersuchungen**	E. Stein, " Untersuchungen zur spätbyzantinischen Verfassungs - und Wirtschaftsgeschichte", **Mitteilungen zur osmanischen Geschichte**, 2 (1923 - 1925), pp. 1-62 .
Stephani Papae V Epistolae	Stephani Papae V.Epistolae, Diplomata et Privilegia, ed. J.P.Migne in : **PL**, 129, Ep.IV, cols. 795 - 796 .
Svoronos, **Serment de Fidélité**	N.Svoronos, " Le serment de fidélité à l'empereur byzantin et sa signification constitutionelle", **REB**, 9 (1951), pp. 106 - 142 .
Sym. Mag .	**(= Pseudo Symeon) Symeonis Magistri et Logothetae Chronographia**, ed. I. Bekker in : **Theoph. Cont.** (CSHB, Bonn 1838), pp. 601 - 760 .

Syntagma (RP)	**Syntagma ton Theion kai hieron Kanonon**, edd. G.Rhalles, M.Potles (Athens, 1852- 1859), 6 vols.
Taktikon Uspenskij	Uspenskij, " Vizantijskaja table' O rangah", **Izv. RAIK**, 3 (1898), pp. 98 - 137 .
Tapkova- Zaimova, **Colonisation**	V. Tapkova - Zaimova, " Sur quelques aspects de la colonisation Slave en Macédoine et en Gréce", **EB**, I (1964), pp. 111 - 123 .
Theodori Studitarum Epistolae	**Theodori Praepositi Studitarum Epistolae**, ed. J.P.Migne in : **PG**, 99, cols. 904 - 1669 .
Theophanes	**Theophanis Chronographia**, ed.C.De Boor (Leipzig, 1883 - 1885), 2 vols.
Theoph. Cont.	**Theophanes Continuatus , Ioannes Cameniata , Symeon Magister, Georgius Monachus Continuatus**, ed. I. Bekker (**CSHB**, Bonn 1838), pp. 1 - 211; 354 - 481 .
Theophylactus Simocatta	**Theophylacti Simocattae Historiae**, ed. C. De Boor (Leipzig, 1887).
Tougard, **Histoire Profane**	A. Tougard, **De l'histoire profane dans les actes grecs des Bollandistes** (Paris, 1874).
Toynbee, **Constantine**	A.Toynbee, **Constantine Porphyrogenitus and His World** (London, 1973).
Toynbee, **History**	A. Toynbee, **A Study of History** (Oxford , 1934 - 1954) , 10 vols.

Toynbee, **History (Abrid.)**	A.Toynbee, **A Study of History : Abridgement of volumes I-VI**, by D.C.Somervell (Oxford, 1946). **Abridgement of volumes** VII-X (Oxford, 1957) .
Treadgold, **Finances**	W.Treadgold, **The Byzantine State Finances in the Eighth and Ninth Centuries** (New York, 1982) .
Tsirpanlis, **John Lydos**	C.N. Tsirpanlis, " John Lydos on the Imperial Administration", **B**, 44 (1974), pp. 479 - 501 .
Underwood and Hawkins, **Emperor Alexander**	P.Underwood and E.Hawkins, " The Mosaics of Hagia Sophia at Istanbul the Portrait of the Emperor Alexander", **DOP**, 15 (1961), pp. 187 - 217 .
Vasiliev, **Byzance et les Arabes**	A.A.Vasiliev, **Byzance et les Arabes, I: La dynastie d'Amorium (820 - 867); II: La dynastie Macédonienne (867 - 959)** . Éd. Française par H.Grégoire, M.Canard (Bruxelleas 1935, 1950). [= Corpus Bruxellense Hist. Byz. I, II] .
Vasiliev, **Byzantine Empire**	A.A.Vasiliev, **History of the Byzantine Empire 324 - 1453 A.D.** (Madison, 1971 - 1973) , 2 vols .
Vasmer, **Die Slaven**	M.Vasmer, **Die Slaven in Griechenland** (Berlin, 1941) .
Verpeaux, **Contribution**	J.Verpeaux, " Contribution à l'étude de l'administration byzantine : ho Mesazon", **BSl**, 16 (1955), pp. 270 - 296 .

Verpeaux, Cursus Honorum	J.Verpeaux, " Le cursus honorum de Theodore Métochite", **REB**, 18 (1960), pp. 195 - 210.
Verpeaux, Les Oikeoi	J. Verpeaux, " Les Oikeoi. Notes d'histoire institutionelle et sociale", **REB**, 23 (1965) pp. 89 - 99.
Villien, Divorce	A. Villien, " Divorce", **DTC**, IV, pt.2 (1911), cols. 1455 - 1478.
Vita Antonii	**Vita S.Antonii Patriarchae CP, AS**, Feb. II, pp. 622 - 629.
Vita Basilii Junioris	**EX Basilii Junioris Vita**, ed. J.P. Migne in : **PG**, 109, cols. 653 - 664.
Vita Euthymii	**Vita Euthymii Patriarchae CP : Text, Translation, Introduction and Commentary** by P.Karlin - Hayter (Bruxelles, 1970). [= Bibliothéque de Byzantion 3].
Vita Sanctae Theophano	**Vita Sanctae Theophano**, ed. E. Kurtz, in : **Zwei griechische Texte über die heilige Theophano, die Gemahlin Kaisers Leo VI** (St. Pétersbourg, 1898). [= Mémoires de l'Académie Impérial des Sciences de St. Petersbourg, VIIIe Série, C1. historico-Philol. III/2].
Vlasto, Christendom	A.Vlasto, **The Entry of the Slavs into Christendom. An Introduction to Medieval History of the Slavs** (Cambridge, 1970).

Vogel, **Science**	K. Vogel, " Byzantine Science", **CMH**, IV/ pt.2 (1967), pp. 265 - 305 .
Vogt, **Léon VI**	A.Vogt, " La jeunesse de Léon VI le sage", **RH**, 174 (1934), pp. 389 - 428 .
Vogt, **Patriarches de Constantinople**	A.Vogt, " Note sur la chronologie des patriarches de Constantinople aux IXe et Xe siècles", **EO**, 32 (1933), pp. 275 - 278 .
Voltaire, **Pyrrhonisme de l'Histoire**	F. voltaire, **Le Pyrrhonisme de l'histoire** (Paris, 1768) .
Vryonis, **Time of Troubles**	S. Vryonis, **The Internal History of Byzantium during the Time of Troubles 1057 - 1081 A.D.** (Ph. D. Dissertation, Harvard 1956) .
Weiss, **Beamte**	G. Weiss, **Oströmische Beamte im Spiegel der Schriften des Michael Psellos** (München, 1973). [= Miscellanea byzantina Monacensia 17] .
Wesener, **Quaestor Sacri Palatii**	A. wesener, " Comes et Quaestor Sacri Palatii", **PW**, XXIV, cols. 820 - 827 .
White, **Patriarch Photios**	D. White, **Patriarch Photios of Constantinople : His life scholarly contributions, and correspondence together with a translation of fifty-two of his letters** (Brookline/ Mass., 1981) .
Zenghelis, **Feu Grégeois**	C. Zenghelis, " Le feu grégeois et les armes à feu des byzantins", **B**, 7 (1932), pp. 265 - 286 .

Zhishman, **Das Eherecht**	J. Zhishman, **Das Eherecht der orientalichen Kirche** (Wien, 1864), 2 vols. Greek trans. with additions by M. Apostolopoulos (Athens, 1912).
ZKG	Zeitschrift für Kirchengeschichte. Stuttgart, 1876 ff.
Zonaras	**Ioannis Zonarae epitomae historiarum,** edd. M. Pinder, T. Büttner-Wobst (**CSHB**, Bonn 1841 - 1897), 3 vols.
ZRSAN	Zbornik Radova Srpske Akademie Nauka. Vizantoloski Institut .
ZRVI	Zbornik Radova Vizantoloskog Instituta. Belgrade, 1952ff.


http://www.al-maktabeh.com


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المحتويات

إهـداء : .... أ

مقدمة : .... ج - ز

١ - الدولة البيـزنطيـة بين أوهام النظرية وحقيـقـة الهـوية : ٣

٢ - الألقـاب والمناصب الحكوميـة فى بيـزنطة بين الاسـتـمرارية والانقطاع : ٣٣

٣ - الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م) :

الأبعاد الدينية والدلالة السياسية : ٦٥

٤ - النار الإغـريقـيـة «طبيعة تركيبها وأثرها فى نشاط المسلمين البحرى» : ١٤٣

٥ - السلاف (الصقالبة) فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية

البيزنطية لاسترداد سيادتها (٥٩١ - ١٠١٨م) : ١٥٧

الخـرائط : ٢٠١

قائمة المصادر والمراجع : ٢٠٥